

كتابي
59
شارلوت برونتى
جين إير
الجزء الثانى
www.liiilas/com/vb3
^RAYAHEEN^
APPROVED
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة



مطبوعات كتابى
إصدار جديد

عزيزى القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شىء تقريبًا : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت! . . وهكذا اقترن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن « آن برونتى» من هذا الإنتاج رواية (أجنس جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذرنج) .

أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب ـ وهو مرض السل أو التدرن الرئوى ـ فماتت به « شارلوت » فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ ـ ١٨٥٥) ، وماتت به «إميلى» فى سن الثلاثين (١٨١٨ ـ ١٨٤٨) . . ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ ـ ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لا تقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به رواياتهن جميعًا . فقد كانت أسرة «برونتى» تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بإنجلترا . . وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد . هم بالترتيب : ماريا ، و إليزابيث ، وشارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلى ، وأخيرًا «آن» .

وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين !

وبعد أربع سنوات ألحق الأب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية ـ هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها «شارلوت» فى رواية (جين إير) باسم «لوورد» .


جين إير
الجزء الثانى

هكذا بدأت القصة

ملخص ما ورد فى الجزء الأول

● كان أقصى ما تفتحت عليه عيناى – أنا (جين إير) – فى طفولتى هو أننى كنت وحيدة فى الحياة، بلا أسرة، ولا مال، ولا جمال!.. فقد مات والداى – أحدهما إثر الآخر، فى مدى شهر واحد – وأنا بعد طفلة لا أكاد أعى شيئاً، فكفلنى بعدهما خالى مستر (ريد)، الذى كان يعيش فى رخاء، فى قصر (جيتسهيد)، ولكنه لم يلبث أن توفى وتركنى فى رعاية أرملته مسز (ريد)..

ولم تكن حياتى فى قصر (جيتسهيد) نعيماً.. كان (جون) – ابن خالى – يجد متعة فى إيذائى، وكانت شقيقتاه (جورجيانا) و (إليزا) تتعاليان علىّ، بينما حرصت أمهم مسز (ريد) على أن تعاقبنى بذنوبهم، وأن تعمل على إذلالى.. كانت ترهقنى بالحرمان، وتسومنى العذاب.. إلى أن أصبت بالمرض ذات مرة، بعد أن حبستنى أرملة خالى فى غرفة مهجورة، رهيبة، استبد بى فيها الفزع، ودفعتنى الحالة النفسية التى خلفنى فيها هذا الحادث، إلى أن أروى للصيدلى – الذى عادنى وتولى علاجى – كل ما كنت ألاقيه من عنت مسز (ريد) وأولادها وخدمها.. وحاول الرجل الطيب أن يساعدنى فيتصل بأى أقارب لى كى ينقذونى من الحياة فى قصر (جيتسهيد)، ولكننى لم أكن أعرف أحداً من أقارب أبى.. أجل، لم أكن أعرف عنهم سوى ما كانت تذكره مسز (ريد) من أنهم فقراء، وضيعون..

ولم أكن من الشجاعة بحيث أشترى حريتى بالفقر !.. ومن ثم اقترح
الصيدلى على مسز (ريد) أن تلحقنى بمدرسة داخلية . ووجدت السيدة
فى هذا الاقتراح وسيلة للتخلص منى ، فألحقتنى بالفعل بمدرسة فى
(لوورد) ، تبعد عن القصر بعشرات الأميال .

على أننى ما لبثت أن علمت أن أرملة خالى لم تطوق عنقى بأى
فضل ، إذ كانت المدرسة معهداً خيرياً لليتيمات !.. وكان خير عزاء
لى فى حياتى الجديدة ، أن مالت ناظرة المدرسة — مس تمبل — إلىّ ،
فراحت تغمرنى بعطفها ، وتشجعنى .

* * *

● وقضيت فى المدرسة ثمانى سنوات : ستاً منها كتلميذة ، واثنتين
كمعلمة .. وأتقنت فى تلك الأثناء العزف على (البيانو) ، والرسم ،
كما أجدت اللغة الفرنسية ، ثم استبدت بى الرغبة فى مبارحة (لوورد)
بعد أن تزوجت نصيرتى (مس تمبل) ، وغادرتها .. ومن ثم نشرت
فى إحدى الصحف إعلاناً أنشد العمل كمعلمة ومربية لأطفال إحدى
الأسرات .. وسرعان ما تلقيت دعوة لأكون معلمة لتلميذة دون
العاشرة من العمر ، لقاء ثلاثين جنيهاً فى العام ..

وهكذا انتقلت إلى قصر (ثورنفيلد) بالقرب من مدينة تدعى
(ميلكوت) .. ولم يكن فى القصر سوى سيدة مسنة تدعى (مسز
فيرفاكس) — عرفت فيما بعد أنها المشرفة على القصر ، وليست ربته —
وكانت تشرف أيضاً على رعاية تلميذتى (أديل فارنس) ، التى كانت
فى حوالى السابعة أو الثامنة من عمرها .. وكانت نحيلة ، شاحبة ،

لطيفة ، ولدت فى فرنسا ، وكفلها مستر (روشستر) — سيد القصر —
فأحضرها إلى إنجلترا لتعيش فى كنفه .

ولم تكن (أديل) تذكر عن أبيها شيئاً ، ولكنها كانت تذكر حنان
أمها وعنايتها بأن تلقنها — منذ طفولتها — الشعر والإلقاء والرقص ..
ولم ألق أنا بالا إلى والدى تلميذتى ، فقد علمت أنهما ماتا .. أما سيد
القصر ، فقد عرفت من أحاديث مسز فيرفاكس وأديل أنه كان سيداً
محترماً ، يملك معظم أراضى المنطقة ، ويعتبره مستأجرو هذه الأراضى
مالكاً عادلا متحرراً .. وكان كثير الأسفار والرحلات ، على شيء
من الشذوذ ، وصفته مسز فيرفاكس بقولها : « ليس من السهل وصف
ذلك الشذوذ ، وإن كنت تحسينه عندما تحدثين إليه ، فلا تدرين أهو
يمزح أم يجد ، أهو مسرور أو مستاء .. قصارى القول أنه لا يتسنى
لك أن تفهميه جيداً ! » .. ولم أحفل بذلك كثيراً ، فقد كان السيد
متغيباً ، وكان حنان مسز فيرفاكس ، وتعلق تلميذتى بى ، وأبهة
القصر وفخامته وجمال المناظر المحيطة به .. كل هذه كانت تشغلنى عن
السيد الغائب !

* * *

● ولم يكن فى القصر عدانا سوى مربية فرنسية جاءت مع أديل من
أوربا — وتدعى (صوفى) — وحوذى يدعى (جون) وزوجته ،
وخادم لتنظيف الدار تدعى (لياه) .. ولم يكن هؤلاء ينامون فى القصر
وإنما كانوا يشغلون صفاً من الحجرات الصغيرة خلف القصر .

وكان يخيم على القصر طابع غريب ، يبدو فى أجلى صورة فى الطابق

الثالث ، الذى كان مكتظاً بقطع من الأثاث عريقة فى القدم ، بل أثرية .. وأوحى إلى جوه بالأشباح ، فسألت مسز فيرفاكس عما إذا كانت تظهر فى القصر أشباح ، فقالت : « لم أسمع عن وجود واحد منها .. ومع ذلك ، يقال إن أفراد أسرة روشستر كان يغلب عليهم — فى الماضى — العنف ، ولعل هذا سر هدوئهم الآن فى قبورهم !

وفيما كانت مسز فيرفاكس تطوف فى حجرات هذا الطابق ، سمعت وسط الهدوء الشامل ضحكة عجيبة .. ضحكة واضحة ، متكلفة ، كئيبة !.. وتكررت الضحكة فى جلجلة صاخبة ، من وراء باب إحدى حجرات الطابق ، فقالت مسز فيرفاكس : « لعلها ضحكة الخادم جريس بول !.. فإنى كثيراً ما أسمعها ترسل مثل هذه الضحكة إذا ما زارتها (لياه) وهى منصرفة إلى الحياكة فى إحدى الغرف ! » .. وأخذت الضحكة تتكرر بعد ذلك بشكل رهيب، غير طبيعى ، تعقبها همهمة !.. فصاحت مسز فيرفاكس : « جريس ! » .. وما لبثت أن أقبلت من إحدى الغرف امرأة ربعة القوام ، بين الثلاثين والأربعين من عمرها ، حمراء الشعر ، جامدة الأسارير ، أقرب إلى أن تكون شبحاً مخيفاً !.. وأخذت مسز فيرفاكس تؤنبها على الضحك، فاستنتجت أنها الخادم الغريبة الأطوار !

وأصبحت أسمع — فى خلواتى — هذه الضحكة الغريبة ، الرهيبة، تجلجل ، ثم تعقبها همهمة شاذة .. وكنت أرى (جريس) — فى بعض الأحيان — تغادر غرفتها وهى تحمل حوضاً أو صحناً أو صينية ، تهبط بها إلى المطبخ ، ثم تعود حاملة وعاء مليئاً بالطعام .. وكان مظهرها

يخالف تصرفاتها الصوتية الشاذة ، فقد كانت قسماتها الحادة تنم عن رصانة .. وكثيراً ما حاولت استدراجها إلى الحديث ، فكانت تبدى زهداً فيه ، وتجيب باقتضاب يقطع على المرء أى أمل !

* * *

● وفى عصر أحد أيام شهر يناير — وكنت قد قضيت ثلاثة أشهر فى القصر — خرجت أسعى على قدمى إلى قرية (هاى) التى كانت تبعد بمسافة لا تتجاوز ميلين .. وعندما بلغت طريقاً ضيقاً على سفح التل المفضى إلى القرية ، استبد بى الخوف ، إذ فوجئت بكلب ضخم يبرز من بين الأحراش .. ثم أعقبه سيد على ظهر جواد .. ولكن الجواد لم يلبث أن انزلق على الصخور المكسوة بالجليد ، فوقع الفارس والتوت قدمه . وخففت إلى مساعدته ، فتقبل المساعدة فى جفاء وخشونة .. وكان طويل القامة ، عريض المنكبين ، أسمر البشرة ، ذا قسمات جادة وحاجبين غزيرين يلتقيان فوق عينيه .

● ثم انطلق الفارس فى طريقه ، بينما تابعت سيرى إلى القرية التى كنت أقصدها .. وعندما عدت إلى القصر وقد هبط الليل ، وجدت حجرة المائدة الكبيرة مضاءة ، والنيران تتلظى فى مدفأتها .. وعلمت أن مستر (روشستر) سيد القصر قد عاد .. وأنه أرسل فى استدعاء طبيب لأن جواده قد انزلق به فى الطريق فالتوت قدمه !

والآن ، تستطيع أن تتابع قراءة هذه القصة الرائعة !

* * *

الفصل الثالث عشر

● أوى مستر روشستر إلى فراشه مبكراً فى تلك الليلة بأمر الطبيب – فى الغالب – كما أنه لم يستيقظ مبكراً فى الصباح التالى .. ولم يهبط من الطابق العلوى إلا ليباشر أعماله ، لأن وكيله وبعض مستأجرى أرضه كانوا قد وصلوا وراحوا ينتظرونه ليتحدثوا إليه .

واضطررت أنا و (أديل) إلى أن نخلى حجرة المكتبة ، لأن الحاجة كانت تدعو إلى استعمالها كغرفة لاستقبال الزوار ، ومن ثم أشعلت ناراً فى حجرة أخرى بالطابق العلوى حملت إليها كتبنا ، وأعددتها لتكون فى المستقبل غرفة للدراسة . وتبينت خلال الصباح أن قصر (ثورنفيلد هول) قد أصبح شيئاً آخر مغايراً لما كان عليه من قبل .. فلم يعد ساكناً سكون الكنيسة ، بل كانت تتردد فى أرجائه – كل ساعة أو اثنتين – طرقات على أحد الأبواب أو رنين من أحد الأجراس ثم كثرت الأقدام التى تذرع البهو، وارتفعت فى الطابق الأعلى أصوات جديدة متباينة الإيقاع . وكأن نهراً من العالم الخارجى قد فاض خلال القصر بعد أن عاد إليه سيده !.. على أنى ابتهجت من ناحيتى لذلك !

أما (أديل) فلم يكن من السهل تلقينها الدرس فى ذلك اليوم ، إذ أنها لم تقو على المواظبة عليه ، بل ظلت تجرى إلى الباب وتطل من أعلى (الدرابزين) لترى هل تستطيع الظفر بنظرة خاطفة إلى مستر روشستر !. ثم أخذت تنتحل المعاذير للهبوط إلى الطابق الأسفل لتسعى – فيما حسبت – إلى المكتبة ، حيث لم يكن أحد فى حاجة إليها !.. وكنت ، إذا تولانى بعض الغضب وأكرهتها على الجلوس والإنصات للدرس ،

أجدها تتحول إلى الحديث بلا انقطاع عن « عزيزها مسيو إدوار فيرفاكس دى روشستر » ، كما كانت تلقب سيد القصر ! – ولم أكن قد سمعت بألقابه هذه من قبل – كما مضت تحدس أية هدايا جاء بها ، بعد أن قال فى الليلة الماضية إن بين متاعه القادم من (ميلكوت) حقيبة صغيرة ستجد فى بعض محتوياتها ما يهمها . وأخذت تقول بالفرنسية : « معنى ذلك أن الصندوق يضم هدية لى ، وربما لك كذلك يا آنسة .. فقد تحدث السيد عنك ، وسألنى عن اسم (معلمتى) ، وعما إذا كانت صغيرة الجسم ناحلة ، شاحبة بعض الشىء .. فرددت عليه بالإيجاب ، لأن هذا هو الواقع . أليس كذلك يا آنسة ؟ »

وتغديت مع تلميذتى كالعادة فى حجرة مسز فيرفاكس .. وجاء العصر عاصفاً كثير الثلوج ، فقضيناه فى حجرة الدراسة .. حتى إذا هبط الظلام ، سمحت لأديل بأن تقصى كتبها وتكف عن عملها ، لتبادر بالهبوط إلى الطابق الأرضى .. بعد أن حدست من السكون النسبى الذى ساده ، ومن انقطاع رنين الجرس ، أن مستر (روشستر) قد فرغ من زواره . ووجدتنى أخلو إلى نفسى ، فمضيت إلى النافذة ، غير أننى لم أستطع رؤية شىء خلالها ، لأن الغسق وندف الثلج ، تضافرا معاً على زيادة كثافة الهواء وإخفاء شجيرات المروج .. فأنزلت الستار ، وعدت إلى جانب المدفأة ، ورحت أترسم فى جذوات النار المتوهجة منظراً يشبه صورة أذكر أننى رأيتها لقلعة (هيدلبرج) على ضفاف (الراين) .. وما لبثت مسز فيرفاكس أن قدمت لتقطع بدخولها حبل تصوراتى ، وتبدد الخواطر الثقيلة التى بدأت تتزاحم على

فى وحدتى . وقالت : « يسر مستر روشستر أن تتناولى وتلميذتك الشاى معه فى حجرة الاستقبال هذا المساء ، فقد شغلته أعماله طوال النهار عن طلب مقابلتك قبل الآن » .. فسألتها : « ومتى يتناول الشاى؟ » .

– فى السادسة ، فهو يراعى التبكير فى الريف . ويجمل بك أن تغيرى ثوبك الآن ، وسأذهب معك لأعاونك .. ها هى ذى الشمعة .

– وهل من الضرورى أن أغير ثوبى ؟

– نعم .. يحسن ذلك ، فإننى أتزين دائماً فى المساء متى كان مستر روشستر هنا !

وبدا لى هذا الحرص على المظاهر ضرباً من الأبهة والفخفخة . فذهبت إلى حجرتى واستبدلت بثوبى – بمعاونة مسز فيرفاكس – ثوباً من الحرير الأسود كان خير ما أملك ، فيما عدا ثوب رمادى كنت – فيما درجت عليه من آراء فى الزينة عندما كنت فى (لووود) – أرى أنه أبدع من أن أرتديه فى غير المناسبات الفريدة !

وقالت مسز فيرفاكس : « أنت فى حاجة إلى بروش » .. وكان لدى دبوس واحد ذو رصيعة (بروش) ، كانت مس تمبل قد منحتنى إياه كتذكار ، عندما افترقنا . ومن ثم تزينت وهبطنا الدرج . ولما كنت غير معتادة على مقابلة الأغراب ، فقد بدا استدعائى – بهذا الشكل الرسمى – إلى حضرة مستر روشستر ، بمثابة امتحان لى : ولذلك تركت مسز فيرفاكس تتقدمنى إلى حجرة المائدة ، ولازمت ظلها إلى أن اجتزنا تلك الحجرة ، ثم مررنا تحت القوس المسدلة الستائر ، ودلفنا إلى الحجرة الأنيقة التى كانت خلفها . وكانت ثمة شمعتان على المائدة ،

وأخريان على المدفأة ، وقد رقد (بايلوت) ــ الكلب ــ يصطلى فى ضياء الموقد وحرارته ، وإلى جانبه ركعت أديل . وكان مستر روشستر مضطجعاً على أريكة ، وقد بسط قدميه على وسادة ، وراح يتأمل أديل والكلب ، ووهج النار ينعكس على وجهه . وتبينت فيه نفس المسافر الذى صادفته فى الطريق ! .. عرفته بحاجبيه البارزين ، وجبينه العريض ، الذى ضاعف من عرضه شعره الأسود المنسق إلى الخلف . كما ميزته بأنفه الذى كان ينم عن خلق حاسم أكثر مما كان ينطق بالجمال ! وبفمه وذقنه وفكه ، وكلها تدل على الصلابة .. أجل ، كانت هذه القسمات الثلاث جد متجهمة بلا ريب . أما قوامه ، فقد رأيته ــ بعد أن خلع معطفه ــ منسجماً مع قسمات وجهه .. كان قواماً رياضياً ، عريض الصدر ، نحيل الخصر ، ولكنه لم يكن فارع الطول أو ممشوقاً .

ولا شك أن مستر روشستر قد فطن إلى دخول مسز فيرفاكس ودخولى ، ولكنه لم يكن متهيئاً للنظر إلينا ــ على ما بدا ــ لأنه لم يرفع رأسه قط عندما اقتربنا منه ، وقالت مسز فيرفاكس بطريقتها الهادئة : « ها هى ذى الآنسة إير ياسيدى » .. وعندئذ أحنى السيد رأسه ــ دون أن يرفع عينيه عن الكلب والطفلة ــ وقال : « دعى الآنسة تجلس » .

وكان فى انحناءة رأسه المتكلفة الجافة ، وفى اللهجة الرسمية النافدة الصبر ، ما ينطق برغبته فى القول : « ما الذى يعنينى بالله من وجود الآنسة إير أو عدمه ؟ .. لست الآن راغباً فى التحدث إليها ! » .

وجلست دون أن يساورنى شىء من الارتباك ، بل لعلى كنت أرتبك لو أنه استقبلنى بأدب جم ، فما كنت إذ ذاك لأعرف كيف أرد

عليه ، فى تلطف ولباقة . أما هذا الجفاء الفظ ، فلم يكن يفرض علىّ أن ألتزم مسلكاً متكلفاً ، بل إن الأمر كان على النقيض ، إذ أتاح لى الصمت والارتقاب فرصة مواتية . فقد كانت البداية الشاذة مثيرة ، فرغبت فى أن أرى كيف سيمضى السيد فى مسلكه !

وظل فى جلسته كالتمثال ، لا يتكلم ولا يتحرك . ويبدو أن مسز فيرفاكس رأت أن من الواجب أن يكون أحدنا ظريفاً ، فبدأت تتحدث حديثاً رقيقاً كالعادة ، مبتذلا لكثرة استعماله كالعادة ، فراحت تبدى إشفاقها عليه من كثرة أعماله التى استغرقت النهار بأكمله ، ومن الآلام التى كانت تسببها له قدمه الملتوية ، ثم أخذت تثنى على صبره ومثابرته ، بيد أنها لم تلق جزاء على ذلك سوى قوله : « إننى أرغب ياسيدتى فى تناول الشاى » !.. فأسرعت تدق الجرس ، ولما جاءت الصينية ، أخذت ترتب الأقداح والملاعق وغيرها ، بجد ورشاقة . بينما مضيت أنا وأديل إلى المائدة . ولكن السيد لم يغادر متكأه .

وقالت لى مسز فيرفاكس : « أرجو أن تقدمى لمستر روشستر قدحه ، خشية أن تريقه أديل » .. ففعلت ما طلبته .. وفيما كان يتناول القدح من يدى ، رأت أديل الفرصة مواتية لخدمتى فصاحت : « أليست هناك هدية للآنسة إير فى حقيبتك الصغيرة ياسيدى ؟ » . فأجاب بخشونة وفظاظة : « من هذا الذى يتحدث عن الهدايا ؟ أكنت تتوقعين هدية يامس إير ؟ هل أنت مغرمة بالهدايا ؟ » .

وراح يتأمل وجهى بعينين ــ رأيتهما ــ سوداوين غاضبتين نفاذتين .. وقلت : « لا أعرف تماماً ياسيدى ، فإن خبرتى بالهدايا

ضئيلة ، ولكنها تعد بصفة عامة من الأشياء الشائقة ! » .

– تعد بصفة عامة ! وماذا تعدينها أنت ؟!

– إننى فى حاجة إلى بعض الوقت قبل أن أعطيك جواباً تتقبله : إن للهدية وجوهاً كثيرة ، أليس كذلك ؟ وعلى الإنسان أن يدرسها كلها قبل أن يدلى برأيه فى ماهيتها !

– إنك لست ساذجة نزقة مثل أديل التى تطالب فى ضجة وصخب بالهدايا بمجرد أن ترانى ، ولكنك تجسين النبض أولا !

– لأننى أقل من أديل ثقة باستحقاق ، لذلك فهى تفضلنى بمعرفتها السابقة بك ، وبحقها عليك ، ثم بحكم العادة .. إذ تقول إنك اعتدت دائماً أن تعطيها لعباً .. أما أنا فقد يتولانى الارتباك لأننى غريبة ، ولأننى لم أفعل ما يؤهلنى لترقب المكافأة !

– أوه .. لا تبالغى فى الأدب والتواضع . لقد اختبرت أديل ولمست ما عانيته أنت معها .. إنها ليست ذكية ، وليست موهوبة ، ولكنها تقدمت فى فترة وجيزة تقدماً محسوساً .

– إنك ياسيدى بهذا قد قدمت لى هديتى ، وإنى لشاكرة لأن أشهى ما يسعى إليه المعلمون هو إطراء تقدم تلاميذهم !

فشرب الشاى فى صمت ، حتى إذا رفعت الصينية قال : « اقتربى من الموقد ! » :

* * *

● وكانت مسز فيرفاكس قد التزمت ركناً ، وانهمكت فى أشغال الإبرة ، بينما كانت أديل تمسك بيدى وتطوف بى الحجرة لتفرجنى على

الكتب الجميلة والزخارف التى تعلو المناضد . وصدعت بالأمر : وأرادت أديل أن تجلس على ركبتى ، ولكنه أمرها بأن تتلهى مع (بايلوت) ، ثم سألنى : « هل أقمت فى منزلى ثلاثة أشهر ؟ » :

– نعم ياسيدى .

– وجئت من .. ؟

– من مدرسة (لوورد) فى مقاطعة ...

– آه .. مؤسسة خيرية .. كم قضيت هناك ؟

– ثمانى سنوات :

– ثمانى سنوات ! لابد أنك متشبثة بالحياة . كنت أحسب أن نصف هذه المدة كاف للقضاء على أية بنية ، فلا عجب أن تكونى كمن يعيش فى عالم آخر غير عالمنا . ولقد تساءلت من أين لك هذا الوجه – عندما شاهدتك فى طريق هاى فى الليلة الماضية – ووجدتنى أفكر فى القصص الخرافية ، وكنت أسألك هل سحرت لى جوادى :: وإن كنت ما أزال فى ريب من ذلك . من هم أهلك ؟

– ليس لى أحد !

– وأحسب أن لم يكن لك أحد من قبل .. أتذكرين والديك !

– كلا .

– هذا ما حدست . ولذلك كنت تنتظرين قومك عندما رأيتك تجلسين فوق حجر ناصية الدرب .

– أنتظر من يا سيدى ؟

– ذوى الثياب الخضراء ! كان ضوء القمر مناسباً فى ذلك المساء

لظهورهم ! ترى هل اخترقت أنا أحد الطلاسم التى كنت تثيرينها فوق ذلك الجليد اللعين على الجسر ؟

فهززت رأسى وقلت متظاهرة مثله بالجد : « إن ذوى الثياب الخضراء قد هجروا إنجلترا منذ مائة سنة ، ولن تجد أثراً لهم فى طريق (هاى) ولا فيما حوله من حقول ، كما أعتقد أن القمر — سواء فى الصيف أو الشتاء أو موسم الحصاد — سيضئ ضياءه مرة أخرى على حفلاتهم الصاخبة وقصفهم المرح ، الذى ورد فى الأساطير » .. فتركت مسز فيرفاكس الشغل الذى كانت تطرزه ، ورفعت حاجبيها ، وكأنها تتساءل أى نوع من الحديث هذا . واسترسل مستر روشستر يقول : « حسناً .. إذا كنت بلا والدين ، فلابد أن لك أقارب : أعمام أو عمات ؟ » .

— كلا .. لم أر واحداً منهم !

— ومنزلك ؟

— ليس لى منزل !

— وأين يعيش إخوتك وأخواتك ؟

— لا إخوة لى ولا أخوات !

— من زكى مجيئك إلى هنا ؟

— نشرت إعلاناً ردت عليه مسز فيرفاكس !

فقالت السيدة الطيبة التى عرفت الآن موضوع حديثنا : « نعم ، وأنا أحمد الله فى كل يوم على أن وفقتنى العناية إلى هذا الاختيار ، لأن الآنسة إير غدت لى رفيقة لا سبيل إلى تقدير قيمتها ، ومعلمة شفيقة شديدة العناية بأديل » . فرد مستر روشستر قائلا : « لا تتعبى نفسك فى

امتداح أخلاقها ، فإن الثناء لا يحملنى على المحاباة ، وسوف أحكم عليها بنفسى بعد أن بدأت بإسقاط جوادى » .

فهتفت مسز فيرفاكس مشدوهة : « سيدى » ! ؟

— ويجب أن أشكرها على هذا الالتواء !

فتجلت الحيرة على الأرملة ، ولكنه استرسل يسألنى : « هل عشت من قبل فى إحدى المدن يا آنسة ؟ » :

— كلا ياسيدى .

— وهل اختلطت كثيراً بالمجتمع ؟

— لم أختلط بغير التلميذات والمعلمات فى (لوورد) .. ثم بأهل (ثورنفيلد) !

— هل قرأت كثيراً ؟

— لم أقرأ سوى ما صادفنى — فى حياتى المحدودة — من الكتب . وهى ليست متعددة ، ولا تحتوى جانباً كبيراً من الثقافة !

— لقد عشت مثل حياة الراهبة ، فأنت بلا ريب ذات خبرة واسعة بأمور الدين . إن (بروكلهيرست) — الذى يدير (لوورد) فيما أعتقد — قسيس أو راعى كنيسة . أليس كذلك ؟

— نعم ياسيدى .

— إذن فلعل البنات كن يعبدنه ، كما يعبد الدير الزاخر بالمتدينات مديره ؟

— أوه . كلا !

— يالك من باردة الطبع ! كيف لا تعبد راهبة قسيسها ؟ إن هذا يبدو نوعاً من التجديف !!

— لقد كنت أكره مستر بروكلهيرست ، ولم أكن الوحيدة التى يساورها هذا الإحساس ، لأنه رجل فظ ، مغرور ومتطفل معاً .. أمر بقص شعرنا ، وبدافع من الاقتصاد اشترى لنا إبراً وخيطاً يتعذر الحياكة والتطريز بها .

وعادت مسز فيرفاكس تستولى على دفة الحديث ، قائلة : « كان اقتصاداً زائفاً ! » .. فتساءل مستر روشستر : « هل هذا كل ما أخذتكن عليه ؟ » .

— لقد ضورنا جوعاً عندما كان يتولى الإشراف على شئون التموين قبل تأليف اللجنة . كما كان يضايقنا بمحاضراته الطويلة فى كل أسبوع ، وبقراءات مسائية فى كتب من تأليفه ، عن الموت المفاجئ والقصاص ، مما كان يجعلنا نخشى الذهاب إلى أسرتنا !

— كم كان عمرك عندما ذهبت إلى لو وود ؟

— نحو عشرة أعوام .

— وقد مكثت هناك ثمانى سنوات ، فأنت الآن إذن فى الثامنة عشرة ؟

فرددت بالإيجاب . وإذ ذاك ، قال : « هأنتذى ترين فائدة الحساب فلولاه ما استطعت تقدير سنك ، لأنه يصعب أن يقطع الإنسان بما إذا كانت قسمات الوجه والأسارير لا تتفق مع حقيقة السن كما هو الحال معك . والآن .. ماذا تعلمت فى (لووود) ؟ هل تستطيعين العزف ؟ » .

— قليلاً ..

— بالطبع .. هذا هو الرد الأكيد ! اذهبى إلى المكتبة .. أعنى إذا سمحت !.. ومعذرة على لهجتى الآمرة ، لأننى اعتدت أن أقول « افعل هذا » ، فإذا هو مفعول !.. اذهبى إلى المكتبة ، وخذى شمعة معك ، واتركى الباب مفتوحاً ، ثم اجلسى إلى البيانو واعزفى لحناً .

فذهبت إطاعة لأوامره ولكنه ما لبث بعد دقائق أن صاح : « كفى ! إنك تعزفين كأية تلميذة إنجليزية . وقد تكونين أكثر إجادة من غيرك ولكنه عزف أقل مما ينبغى » .. فأغلقت البيانو ، وقفلت راجعة ، فاسترسل يقول : « إن أديل أرتنى صباح اليوم بعض رسومات تخطيطية قالت إنها من رسمك ، وإن كنت لا أدرى إذا كانت كلها من عملك أو أن أستاذاً ساعدك فيها ؟ » . فاعترضت قائلة : « كلا ، إنها فى الواقع من عملى ! » .

— آه ، هذا يمس كبرياءك !.. إذن ، أرينى ما عندك إذا كنت تصرين على أنه من رسمك حقاً ، ولكن لا تقسمى إلا إذا كنت متأكدة ، لأننى أستطيع أن أميز من الأعمال ماهو زائف أو منتحل .

— إذن فلن أقول شيئاً حتى تحكم بنفسك ياسيدى !

وأحضرت حافظتى من المكتبة ، فقال : « قربى المنضدة ! » .. فدفعتها إلى متكئه ، واقتربت أديل ومسز فيرفاكس لمشاهدة الصور ، فقال : « لا أريد تزاحماً ، خذا الرسومات من يدى متى فرغت منها ، ولكن لا تدفعا وجهيكما نحو وجهى ! » .. وأخذ يطيل النظر والتمعن فى كل رسم ، ثم وضع ثلاثة منها جانباً ، حتى إذا انتهى من فحص

الرسوم الأخرى، طوح بها بعيداً عنه وقال : « احمليها يامسز فيرفاكس إلى المنضدة الأخرى ، وتطلعى أنت وأديل إليها » .

وبعد ذلك رنا إلىّ ، ثم استطرد قائلا : « عودى إلى مقعدك وأجيبى عن أسئلتى : أرى أن تلك الصور رسمتها يد واحدة .. فهل هى يدك ؟ » ..

قلت : « نعم » .

— ومتى وجدت وقتاً لرسمها ؟ لقد استغرقت وقتاً طويلا وبعض التفكير !

— رسمتها أثناء الأجازتين الآخرتين فى (لووود) عندما لم يكن لدى عمل آخر .

— ومن أين جئت بالنماذج ؟

— من رأسى !

— هذا الرأس الذى أراه الآن بين كتفيك ؟!

— نعم ياسيدى !

— وهل به رياش من الطراز الذى رسمتيه فى الصور الأخرى ؟

— أظن ذلك .. بل أرجو أن يكون به ماهو خير من ذلك وأبدع !

فبسط الصور أمامه وراح يتفحصها عدة مرات . وفيما هو منهمك فى ذلك ، سأخبر القارئ بما كانت تحويه . ويجب أولا أن أستهل بأنها لم تكن رائعة بحال ، وأن موضوعاتها نبتت زاهية فى رأسى ، وكانت عندما رأيتها بعين الخيال — قبل أن أجسمها — أخاذة رائعة ، غير أن يدى لم تقو على معاونة خيالى ، فجاءت صورة باهتة لما تمثلته من قبل ! ..

وكانت الصور الثلاث مرسومة بالألوان المائية ، وتمثل أولاها

سحباً قريبة زرقاء تتدرج فوق بحر خضم ، وقد ظهرت نهاية الصورة من بعيد — كمقدمها القريب — غارقة فى الظلام والأمواج ، إذ أن الصورة كانت خالية تماماً من كل أرض . ولم يكن يهتك ذلك الظلام سوى خيط من الضياء يكشف عن شراع غارق لنصفه ، وقد جثم عليه غراب من غربان البحر بجسمه الداكن وجناحيه المرصعين بالزبد ، بينما أمسك بمنقاره سواراً من ذهب تزينه أحجار كريمة استعنت فى رسمها بكل ما كان لدى من ألوان ، وجلوت تألقها بكل ما فى قلمى الرصاص من قوة !.. وتحت الطائر والشراع — بين المياه الخضراء — طفت جثة غارقة لايظهر منها سوى الذراع التى سقط منها السوار !

أما الصورة الثانية ، فكان جزؤها الأمامى لا يحوى سوى قمة تل معتم ، تكسوه حشائش وأوراق مالت مع النسيم ، وعلى مبعدة من التل وفوق هامته ، تنبسط سماء واسعة زرقاء بضوء الغسق ، بينما ترتفع نحو السماء صورة نصفية لامرأة يأتلق على جبينها نجم ، وتبدو قسماتها شاحبة ، وكأنها ملفوفة بضباب من البخار : عينان سوداوان تأتلقان ، وشعر ينساب كالظلال ، أو كسحابة قاتمة مزقتها يد الأنواء أو مستها كهرباء ، وعنق ينعكس عليه ضياء باهت كنور القمر !

أما الصورة الثالثة ، فكانت تمثل جبلا من جبال الثلج الشامخة ، وهو يناطح السماء فى شتاء المنطقة القطبية ، كما تمثل حشداً من أضواء الشمال شرعت رماحها الداكنة فى الأفق إلى مسافات بعيدة ، بينما ظهر فى صدر الصورة رأس يعتمد على يدين ، ويغطيه خمار رقيق تظهر من خلفه عين غائرة خالية من كل معنى سوى اليأس والقنوط .. وكانت

على الرأس عمامة سوداء يتألق بين طياتها هلال يرصعه شرار كالح اللون ، يمثل فى مجموعه تاجاً !

وفجأة ، سألنى مستر روشستر : « هل كنت تشعرين بسعادة وأنت ترسمين هذه الصور ؟ » .

— كانت تستغرقنى ياسيدى ، وكنت سعيدة بها ! وقصارى القول ، وجدت فى رسمها أعظم أسباب السعادة التى عرفتها فى حياتى !

— ليس فى هذا القول مبالغة ، إذ يبدو أن أسباب سعادتك — كما يؤخذ من أقوالك — كانت محدودة ، ولكنى أظنك كنت تعيشين فى عالم من أحلام الفنانين وأنت تمزجين وترتبين هذه الألوان العجيبة .. هل كنت تجلسين أمامها طويلا فى كل يوم ؟

— لم يكن لدى شىء آخر يشغلنى ، لأننى كنت فى عطـلة ، فأخذت أجلس إليها من الصباح حتى الظهر ، ثم من بعد الظهر حتى الليل . وكان طول النهار فى أيام الصيف معيناً لى على إشباع ميولى .

— وهل ارتاحت نفسك لنتيجة هذه الجهود الجبارة ؟

— كلا .. لم ترتح على الإطلاق ، إذ كان يعذبنى الفارق الكبير بين ما يرتسم فى ذهنى ، وما تصنعه يدى . وكنت فى كل مرة أتصور شيئاً لا أقوى على إبرازه .

— ليس هذا بالتعبير الصحيح ، فقد كنت متمكنة من الفكرة التى راودت خيالك ، ولكنك لم تؤت من العلم والمهارة الفنية ما يجعل رسمك صورة حية كاملة . ومع ذلك ، فإن هذه الصورة عجيبة بالنسبة لتلميذة !.. أما عن الأفكار ، فهى خرافيـة .. ولعلك شاهدت فى

الحلم عينى المرأة السوداوين تأتلقان ، لأن الكوكب الذى يضىء الصورة ويعلوهما كفيل بأن يبدد تألقهما ! ثم ما معنى ظهور العين غائرة ؟ ومن الذى علمك تصوير الرياح حتى ترسمى رياحاً هوجاء عالية فى السماء فوق قمم التلال ؟ !

وما كدت أحزم حافظة أوراقى ، حتى تطلع إلى ساعته وقال فى غلظة واقتضاب : « الساعة التاسعة ! كيف تتركين أديل جالسة فى انتظارك طوال هذا الوقت ؟ امضى بها إلى فراشها » .. فذهبت أديل تقبله قبل أن تغادر الحجرة ، واحتمل هو مجاملتها ، وإن لم يتذوقها بأكثر مما لو كان كلبه (بايلوت) هو الذى فعل ذلك !.. ثم أشار إلى الباب إشارة من ملّ صحبتنا ورغب فى إقصائنا ، وقال : « طابت ليلتكما ! »

فتناولت حقيبتى وانحنينا له فى أدب ، ولكنه رد علينا بإيماءة جافة . وهكذا انسحبنا ، حتى إذا لحقت بمسز فيرفاكس فى حجرتها بعد أن أسلمت أديل إلى فراشها ، قلت لها : « لقد أخبرتنى أن مستر روشستر ليس على جانب ملحوظ من الشذوذ .. » .

— نعم .. أليس هو كذلك ؟

— أظنه غاية فى التقلب والفظاظة ؟

— هكذا يبدو للغريب عنه ، ولكنى تعودت طباعه ولم أعد أعجب منها قط ! ومع ذلك ، إذا كان فى طباعه شذوذ فيجب أن نتجاوز عنه !

— لماذا ؟

— لأن هذه طبيعته من جهة ، فليس لنا حول ولا قوة فى ذلك ، ولأن لديه ، من جهة أخرى ، أفكاراً مؤلمة تنكد عليه صفوه وتعذب روحه !

— أية أفكار ؟

— إن له متاعبه العائلية .. من ناحية !

— ولكنه بلا عائلة ؟!

— ليست له أسرة الآن ، ولكن .. كان له بعض أقارب على الأقل .. وقد فقد أخاه الأكبر منذ سنوات قلائل .

— أخاه الأكبر ؟

— نعم ، فإن مستر روشستر الحالي لم يطل عهده بتولي شئون هذه الممتلكات ، إنما آلت إليه منذ حوالي تسع سنوات فقط .

— إن تسع سنوات مدة معقولة ، فهل كان شديد التعلق بأخيه بحيث يظل إلى الآن غير قادر على احتمال فقده ؟

— كلا .. ربما كلا ، فإنني أعتقد أنه قد نشب بينهما سوء تفاهم نتيجة لأن مستر رولاند روشستر لم يكن منصفاً مع أخيه مستر إدوارد وربما كان قد أوغر عليه صدر والده ، إذ كان السيد الكبير يحب المال ، كما كان راغباً في أن تظل أملاك الأسرة وحدة واحدة ، فلم يشأ أن يبددها بالتقسيم ، ومع ذلك فإنه كان شديد الرغبة في أن يصيب مستر إدوارد ثروة ، هو الآخر ، ليحافظ على كرامة اسمه . ولكن ما أن بلغ مستر إدوارد سن الرشد ، حتى اتخذت بعض إجراءات لم تكن عادلة ، بل أنزلت به كثيراً من الضرر .. ثم اتحد مستر روشستر الكبير مع مستر رولاند على أن يضعا إدوارد في مركز اعتبره هو مؤلماً ، وإن كنت لا أدري إلى الآن طبيعة هذا المركز بالضبط ، ولكنه لم يشأ أن يصفح عنهما ، فقاطع أسرته .. ومنذ ذلك الحين — منذ سنوات عديدة — وهو

يعيش حياة غير مستقرة ، ولا أحسبه أقام في (ثورنفيلد) مرة لأكثر من أسبوعين كاملين ، لأن وفاة أخيه بلا وصية جعلته مالكاً للمقاطعة ، ولا عجب في الحقيقة إذا كان يعرض عن المكان القديم .

— ولماذا يعرض عنه ؟

— لعله يراه مقبضاً للنفس !

وكان الرد ينطوي على مراوغة ، في حين أنني كنت أطمع في أن يكون أكثر صراحة ووضوحاً ، ولكن الظاهر أن مسز فيرفاكس لم تكن تملك ما يمكنها من الإفصاح ، أو أنها لم تشأ أن تدلي إليّ بمعلومات أكثر صراحة عن أصل وطبيعة المحن التي كان مستر روشستر يعيش فيها . وقد أكدت لي أن في الأمر سراً لم تكن تعلمه ، وإن ما تعرفه كان من باب الحدس والتخمين . وكان واضحاً جلياً أنها ترغب في أن تسقط هذا الموضوع من حسابنا ، ففعلت بناء على رغبتها !

* * *

الفصل الرابع عشر

● لم أر مستر روشستر في بضعة الأيام التالية إلا لماماً .. فقد كان يبدو في الصباح جد مشغول بأعماله ، أما بعد الظهر فكان بعض السادة من (ميلكوت) أو البقاع المجاورة يزورونه ويمكثون أحياناً حتى يتعشوا معه . وعندما تحسن التواء قدمه وبات في وسعه امتطاء جواده ، راح يكثر من الخروج به ، ولعله كان يرد هذه الزيارات ، لأنه لم يكن يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل .

وفي تلك الأثناء ، كان يندر أن يدعو أحداً — حتى أديل — إلى

حضرته ، كما أن مقابلاتى له لم تتعد حدود اللقاء العابر فى الردهة ، أو على الدرج ، أو فى القاعة الكبرى ، فكان يمر بى أحياناً فى تعاظم وبرود دون أن يعبر وجودى أكثر من إيماءة عن كثب ، أو نظرة فاترة ، أو انحناءة ، أو ابتسامة — فى بعض الأحيان — كما يفعل السادة إذا تلطفوا !.. ولم تكن هذه التغيرات فى مزاجه تكدر صفوى ، لأنى لم أكن أرى لنفسى يداً فى تقلباتها ، بل كان مدها وجزرها يرجعان إلى أسباب لا تمت إلى بأية صلة !

وذات يوم ، دعا السيد جماعة للعشاء ، وأرسل فى طلب حافظة أوراق لكى يستعرض محتوياتها بلا ريب ، ثم خرج السادة بعد ذلك مبكرين لحضور اجتماع عام فى (ميلكوت) ، كما بلغنى من مسز فيرفاكس . ولما كانت الليلة مطيرة قاسية ، فإن مستر روشستر لم يخرج فى رفقتهم ، فما إن رحلوا ، حتى دق الجرس وجاءتنى دعوة لكى أنزل مع أديل إلى الطابق الأرضى ، فنسقت لها شعرها وهندمت ملابسها . وبعد أن استوثقت من أنى قد ارتديت ثوباً مناسباً لا يحتاج إلى إصلاح .. ثوباً غاية فى الاحتشام والبساطة ، نزلنا معاً ، وأديل تتساءل إذا كان الصندوق الصغير قد جاء — أخيراً — بعد أن تأخر حضوره بسبب بعض الأخطاء ؟!.. وعندما دخلنا حجرة الطعام أرضاها أن شاهدت علبة من الورق المقوى على المائدة . ويبدو أنها أدركت أنها بغيتها بغريزتها ، إذ صاحت وهى تجرى إلى المائدة : « صندوق ! صندوق ! » .

فقال مستر روشستر بصوته العميق الساخر ، وهو مضطجع فى

مقعد كبير بجوار الموقد : « حذار أن تضايقينى بأسئلتك عن تفاصيل عملية تشريح الدمية أو عن حال أحشائها !.. شرحيها بنفسك فى صمت والزمى السكون يا طفلتى » .

ويبدو أن (أديل) لم تكن فى حاجة إلى هذا التحذير ، إذ سرعان ما انسحبت بكنزها إلى إحدى الأرائك ، وانهمكت فى حل (الدوبارة) التى كانت تربط الغطاء ، حتى إذا أزالت ذلك العائق ورفعت بعض أغلفة فضية من ورق (السلوفان) صاحت بالفرنسية : « أوه .. يا للسماء ! كم هى جميلة ! » .. ولم تزد ، بل مكثت غارقة فى تأملاتها الذاهلة . وعندئذ قال السيد وهو ينهض قليلاً عن مقعده ليتطلع إلى الباب الذى كنت ما أزال واقفة بجانبه : « هل الآنسة اير هنالك ؟ آه .. حسناً ، تقدى .. اجلسى هنا ! » .. ثم جر مقعداً إلى جوار مقعده وقال :

— إنى لا أحب ثرثرة الأطفال ، فأنا كأعزب عريق لا أملك ذكريات سارة تتصل بلغتهم .. وما أرانى أحتمل أن أقضى مساء برمته أتسامر مع طفل ! لا تبتعدى عنى بمقعدك يا مس (اير) ، بل اجلسى حيث وضعته تماماً .. هكذا ، من فضلك !.. ألا قبحاً للمجاملات المتكلفة ، فإنى لا أكاد أتسامحها ، ومن ثم فلست أروق للعجائز الساذجات !.. وبهذه المناسبة ، يجب أن أذكر عجوزى ، فلا يجمل أن أغفلها ، لأنها من آل فيرفاكس ، أو بالأحرى كانت زوجة لواحد منهم .. والدم ، كما يقال ، أشد كثافة من الماء !

ثم دق الجرس وأرسل يدعو مسز فيرفاكس ، فسرعان ما قدمت وبيدها سلة أشغال الإبرة ، فقال لها : « طاب مساؤك يا صديقى :

لقد أرسلت أدعوك لغرض خيرى ، إذ أننى منعت أديل من أن تحدثنى عن هداياها ، ولذلك فهى مفعمة ، تكاد تنفجر ، فتفضلى بأن تكونى مستمعة لها وكليمة ، وسيكون هذا من أعظم الأعمال الخيرية التى قمت بها فى حياتك ! » .

والواقع أن أديل لم تكد ترى مسز فيرفاكس ، حتى دعتها إلى الأريكة ، ثم بادرت تملأ لها حجرها بمحتويات الصندوق الخزفية والعاجية والشمعية ، كما راحت فى الوقت نفسه تفيض بالشرح والإيضاح بقدر ما مكنتها درايتها الكليلة باللغة الإنجليزية .. بينما عاد المستر روشستر إلى مخاطبتى قائلا :

ـ أما وقد قمت بدور المضيف الكريم ، إذ دبرت الوضع بحيث تسلى كل من الضيفتين زميلتها ، فإننى فى حل من أن أنصرف إلى ما فيه تسليتى .. قربى مقعدك مسافة أخرى يا آنسة إير ، فأنت ما زلت على منأى منى ، بحيث لا أستطيع أن أراك دون أن أحول عن الوضع المريح فى هذا المقعد ، وهو ما لا أعتزم أن أفعله !

وصدعت بما أمر ، برغم أننى كنت أوثر أن أظل فى مجلسى ، متوارية بعض الشىء فى الظلال . على أن مستر روشستر كان ذا طريقة فى إلقاء الأوامر ، لا يبدو معها مفر من الإطاعة فوراً !.. وكنا ـ كما قلت ـ فى حجرة المائدة ، والثريا تغمر المكان بفيض من النور يشرح النفس ، كما كانت نيران الموقد حمراء متألقة ، والستائر الأرجوانية تتدلى فى أناقة أمام النافذة والقبو المرتفع .. وكان السكون يغشى كل شىء ، لا يكاد يعكره سوى حديث أديل الخافت ـ إذ لم تكن تجرؤ

على رفع صوتها ـ يتخلل فترات الصمت فيه وقع المطر وهو يصفع الألواح الزجاجية للنافذة .

* * *

● وبدا مستر روشستر ـ فى جلسته على المقعد المكسو بالدمقس ـ مختلفاً عما رأيته من قبل ، إذ كان أقل تجهماً . وكانت على شفتيه ابتسامة ، وفى عينيه بريق يأتلق ، بفعل الخمر أو بغيرها .. فلست واثقة من ذلك ، وإن كنت أراه جد محتمل !.. وقصارى القول .. كان السيد بعد العشاء فى حالة نفسية أكثر انشراحاً وابتهاجاً ، وأكثر تساهلا مما كان عليه فى الصباح من صرامة وجفاء . ومع ذلك ، فقد لاح على قدر غير قليل ـ نسبياً ـ من العبوس ، وهو يسند رأسه الضخم على ظهر مقعده المنتفخ ، ويتلقى وهج النيران على قسمات كأنها قدت من صوان ، وعينين كبيرتين سوداوين ـ إذ كانت عيناه واسعتين ، داكنتى السواد ـ بديعتين كذلك ، وإن لم تكونا تخلوان من بعض تغير يتراءى فى أعماقهما أحياناً .. تغير إذا لم يكن لطيفاً ، فهو ـ على الأقل ـ يوحى إليك بالعطف !.. وكان قد قضى دقيقتين يتفرس فى النار ، حين التفت إلىّ فجأة ، ووجد نظراتى عالقة بسحنته ، فقال : « إنك تتفحصيننى يا مس إير .. أفتريننى جميلا ؟! » .

وكان خليقاً بى ـ لو أننى فكرت ـ أن أجيب عن هذا السؤال بعبارة مبهمة مهذبة ، تتمشى مع ما اصطلح عليه الناس من مجاملات ، ولكن الجواب انزلق من لسانى بطريقة ما ، قبل أن أفطن : « لا يا سيدى ! » .. فقال : « آه .. لعمرى !.. إن فيك شيئاً غير

عادى ، فأنت تشبهين الراهبة الصغيرة فى غرابة أطوارها ، وهدوئها ، ورزانتها ، إذ تجلسين هكذا ، ويداك مبسوطتان أمامك ، وعيناك منكستان عادة على البساط ، لا تفارقانه إلا عندما تصوبان إلى وجهى نظرات نافذة ، كما فعلت منذ قليل ، مثلا !.. فإذا وجه أحد إليك سؤالا ، أو أبدى ملاحظة تضطرين إلى التعقيب عليها ، قذفت برد يكون لاذعاً – على الأقل – إن لم يكن جافاً بارداً .. ما الذى عنيته بردك ؟! » .

– لقد كنت صريحة أكثر مما ينبغى يا سيدى ، فأسألك المعذرة. كان يجدر بى أن أجيب بأنه ليس من السهل أن أصدر جواباً مرتجلا عن سؤال يخص المظهر والهيئة ، وبأن الأذواق تتباين إلى حد كبير ، وبأن الجمال لا يهم كثيراً .. أو بشىء من هذا القبيل !

– بل ما كان ينبغى أن تجيبى بذلك .. إن الجمال لا يهم كثيراً ، بالفعل ! ولكنك تغرسين مطواة خبيثة خلف أذنى ، بدعوى التخفيف من الإساءة السابقة ومحاولة تلطيف وقعها على نفسى !.. ألا قولى لى : أى عيوب تجدينها فىّ ، من فضلك ؟.. إننى فيما أعتقد مكتمل الأطراف والقسمات ، كأى رجل آخر .. أليس كذلك ؟

– دعنى أنكر ردى الأول يا مستر روشستر ، فما كنت أنتوى أى رد قاس ، ولكنها كانت زلة لسان فقط !

– هو ذلك ، على ما أرى ، ولكنك ستؤاخذين بهذه الزلة ، فانتقديني : ألا يروق لك جبينى ؟

ورفع شعره المتموج الذى كان متهدلا على حاجبيه ، فكشف عن

جبين تنطق صفحته بالذكاء ، ولا يعتوره عيب سوى نقص ما ينم عن الأريحية وحب الخير ، واستطرد : « والآن يا سيدتى .. هل أنا أبله؟ » :

– كلا ، على الإطلاق يا سيدى .. ولعلك ترمينى بالفظاظة إذا سألتك بدورى : هل أنت محب للإنسانية والخير ؟

– أعدنا ثانية !؟.. وخزة أخرى من المطواة ، وأنت تتظاهرين بأنك تربتين رأسى ، لمجرد ما قلته من أنى لا أطيق معاشرة الأطفال والنساء العجائز ! (ولنخفض صوتنا هنا !) .. كلا يا سيدتى الصغيرة.. لست محباً للبشر والإنسانية بصفة عامة ، ولكنى أحمل ضميراً بين جنبى (وأشار إلى المكان الذى تنم عنه كلماته) . هذا إلى أنه كان لى فيما مضى قلب رقيق .. وكنت فى سنك ، إنساناً شديد الحساسية ، يعطف على كل من لم يتكفل نضجه ، وكل من لا يجد من يعوله ، وكل من يخونه الحظ ، بيد أن القدر عاداني منذ ذلك الوقت .. بل إنه طحننى بيديه ! وإننى لأطرى الآن نفسى على أن غدوت صلباً جامداً ، ككرة صماء من المطاط ، وإن كان ما يزال بهذه الكرة شق أو اثنان ، كما توسطها نقطة حساسة ، فهل يتيح لى ذلك سبيلا إلى أمل أو رجاء ؟

– رجاء فى أى شىء يا سيدى ؟!

وقلت فى نفسى : « لا شك أنه أفرط فى احتساء الخمر ! » :.
ولم أدر بماذا ينبغى أن أرد على سؤاله العجيب هذا ، كما تساءلت كيف أقطع بأنه قادر على أن يتحول أو يتبدل من جديد !.. وعاد يقول :

– إن الحيرة البالغة تتجلى عليك يا آنسة إير ، ومع أنك لا تفوقيننى جمالا ، إلا أن هذه الحيرة تلائم مظهرك ، فضلا عن أنها تريحنى لأنها

تقصى عن صحتى هاتين العينين المنقبتين وتشغلهما عنى بتأمل زهور السجادة الصوفية !.. أمعنى فى حيرتك ، وثقى يا سيدتى الصغيرة أننى الليلة ميال إلى أن أكون أليفاً محباً للاجتماع بالغير !

* * *

● وما أن قال هذا حتى نهض من مقعده فوقف ، ثم اتكأ على ذراع الموقد الرخامى ، فتجلت فى وقفته هذه حقيقة شكله ووجهه ، وصدره المفرط فى الاتساع إفراطاً لا يتسق مع طول أطرافه . ولا ريب عندى فى أن معظم الناس كانوا خليقين بأن يعتبروه دميماً . على أنه كان فى هيئته ما ينم عن كثير من الكبرياء غير المفتعلة ، وعن بسطة فى الخلق ، وعن عدم اكتراث بمظهره ، مع اعتداد متعال بقوة فضائله الأخرى – سواء أكانت ذاتية أو عرضية – مما كان يعوض ما يفتقر إليه من جاذبية المظهر الخارجى ، ويحمل من يراه على أن يثق به ثقة عمياء ؟!

وعاد يكرر قوله : « إن بى الليلة ميلا إلى أن أكون أليفاً محباً للاختلاط بالغير ، ولذلك أرسلت فى طلبك ، لأننى لم أجد فى الموقد والثريا رفقة كافية .. ولا فى (بايلوت) ، إذ أن أياً من هذه لا يستطيع الكلام .. ومع أن أديل أفضل من هؤلاء درجة ، إلا أنها ما زالت دون الدرجة التى تصلح فيها للإيناس والمسامرة ، وكذلك مسز فيرفاكس !.. أما أنت ، فأنا مقتنع بأن فى وسعك – إذا شئت – أن تكونى زميلة مناسبة ، وإن حيرتنى فى أمرك فى أول ليلة دعوتك فيها للنزول إلى هنا ، ولقد نسيتك تماماً بعد ذلك ، لأن رأسى ازدحم بأفكار أخرى أقصتك بعيداً ، ولكنى أعتزم الليلة أن أريح نفسى فأبتعد عما يضايقنى

من أفكار وأجتلب منها ما يسرنى « والآن .. يسعدنى أن أستدرجك لأزداد بك معرفة ، فتكلمى ! » .

وبدلا من أن أتكلم ، ابتسمت ، وإن لم تكن ابتسامة بشوش أو مستسلمة .. فراح يستحثنى : « تكلمى ! » :

– فيم يا سيدى ؟

– فيما يعجبك ، فسأترك لك اختيار الموضوع وطريقة معالجته .

ولكنى لم أنبس بحرف ، بل قلت أحدث نفسى : « إذا كان يتوقع أن أتكلم لمجرد الكلام والتظاهر ، فسوف يكتشف أنه قد أخطأ الاختيار ! » .

– هل أنت بكماء يا مس إير ؟!

فظللت بكماء ، وعندئذ مال برأسه نحوى قليلا ، وغاص فى عينى بنظرة عاجلة ثم قال : « عنيدة ؟.. ومتضايقة ؟.. هذا فى موضعه ، لأننى ألقيت طلبى عليك بطريقة سخيفة تكاد تكون وقحة ، فأسألك المعذرة يا مس إير . والواقع أننى لا أرغب بحال فى أن أعاملك معاملة من هم دونى منزلة .. (ثم قال مصححاً) : أعنى أننى لا أدعى لنفسى عليك تفوقاً ، إلا ما تحتمه عشرون عاماً تفصل بين عمرينا ، وقرن من الزمن أسبقك به فى الخبرة ؛ وهذا حق مشروع أتمسك به – كما تقول أديل بفرنسيتها – وبحق هذا التفوق وحده أرغب فى أن تتكرمى بالحديث معى الآن قليلا ، وأن تحولى أفكارى التى يفسدها ارتكازها على نقطة واحدة .. فهى تتآكل كالمسمار الصدئ ! » .

ولقد أراد بهذا الشرح أن يكون أشبه باعتذار ، ولكنى لم أدع

هذا التنازل يستحق ، ولو لمجرد التظاهر ، فقلت : « بودى أن أسليك يا سيدى ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، ولكن ليس فى وسعى أن أقدم موضوع الحديث ، إذ كيف لى أن أعرف ما يسرك ؟ سلنى ما تشاء وسأبذل قصاراى للرد » .

— إذن أخبرينى أولا : هل توافقيننى على أن لى الحق فى شىء من السيادة ، والفظاظة — وربما التدقيق — للاعتبارات التى ذكرتها ؟. أعنى أنى فى سن والدك وأنى خضت تجارب من كل لون ، مع رجال من مختلف الشعوب ، وأنى جبت ما يزيد على نصف الكرة الأرضية ، بينما قضيت أنت حياتك فى هدوء ، ومع فريق واحد من الناس ، فى منزل واحد .

— لك ما تشاء يا سيدى .

— ليس هذا جواباً .. أو هو بالأحرى جواب غاية فى الإثارة ، لأنه يتسم بكثير من المراوغة . أجيبينى بصراحة !

— لست أرى يا سيدى أن لك الحق فى فرض أوامرك علىّ لمجرد أنك تفوقنى سناً ، أو لأنك خبرت العالم أكثر منى .. إن دعواك فى السيادة تستند إلى الطريقة التى أفدت بها من وقتك وتجاربك !

— أف !.. إنك تستدرجيننى ، ولكننى لن أقر رأيك ، إذ أنه لا ينطبق على حالى ، بل يظهرنى بمظهر الذى يستغل الميزتين — السن والخبرة — فى غير اكتراث ، إن لم أقل استغلالا سيئاً .. فلندع السيطرة جانباً ، وليكن واجبك أن تتلقى منى الأوامر من حين إلى آخر ، دون أن تستائى أو تتأذى من لهجة الأمر .. فهل تقبلين ؟

فابتسمت وقلت فى نفسى إن مستر روشستر رجل شاذ ، فقد نسى أنه يدفع لى ثلاثين جنيهاً فى السنة مقابل أن أتلقى أوامره . ولاحظ هو على الفور ما ارتسم على وجهى فقال : « إن الابتسامة حسنة جداً ، ولكن .. تكلمى أيضاً ! » .

— كنت أفكر يا سيدى فى أن قليلا جداً من السادة يكلفون أنفسهم عناء السؤال عما إذا كان أتباعهم المأجورون يستاءون أو يتأذون من تلقى أوامرهم !

— أتباع مأجورون !.. ماذا ؟.. هل أنت تابعة مأجورة عندى ؟.. آه ، نعم .. نسيت المرتب !.. حسناً إذن .. هل تقبلين على هذا الاعتبار — اعتبار الارتزاق — أن أتسفه قليلا ؟

— كلا يا سيدى ، ليس على هذا الاعتبار ، ولكن على اعتبار أن تنسى ذلك وأن تعنى بالسؤال عما إذا كان من تعوله مستريحاً فى علاقته معك .. عندئذ أقبل بكل سرور !

— وهل تقبلين التجاوز عن كثير من الأشكال والعبارات المصطلح عليها دون أن ترى فى التجاوز عنها شيئاً من القحة ؟!

— أنا واثقة يا سيدى من أننى لن أخطىء التمييز بين رفع الكلفة وبين الوقاحة .. ولعلنى أفضل أولاهما ، ولكن الثانية لا يرضى بها من ولد حراً ، ولو تقاضى فى مقابلها أجراً !

— غش وخداع ! إن معظم من يولدون أحراراً يتقبلون أى شىء مقابل الأجر !.. تحدثى عن نفسك فقط ، ولا تتجاوزى إلى العموميات التى تجهلينها . ومع ذلك ، فإننى أصافحك بعقل على جوابك برغم عدم

دقته .. أما الطريقة التى قيل بها ، والمادة التى اشتمل عليها ، فتنطويان على الصراحة والإخلاص . والمرء لايصادف كثيراً هذا الطبع ، وإنما يلق – على العكس – تكلفاً ، أو فتوراً ، أو غباء ، أو سوء فهم للمعانى نتيجة ضيق العقل . ولا توجد ثلاث معلمات بين آلاف يستطعن الإجابة عن سؤالى بمثل مافعلت .. لست أتملقك بذلك .. ولكن ، إذا كنت قد خلقت فى قالب غير قوالب غالبية البشر ، فلا فضل لك فى ذلك ، لأنه من فعل الطبيعة ، بيد أننى أتسرع فى أحكامى ، إذ ما الذى أعرفه عنك ؟.. إنك قد لا تكونين أفضل وأمثل من غيرك ، إذ قد تكون فيك نقائص وعيوب لا تحتمل ، فى مقابل محاسنك القليلة !

فقلت فى نفسى : « وقد تكون أنت كذلك ! » .

* * *

● والتقت عينى بعينه عندما طافت هذه الفكرة برأسى ، ويبدو أنه قرأها إذ أجاب وكأننى حدثته بما يدور بخاطرى : « نعم ، نعم ، إنك على حق .. إن لى كثيراً من العيوب التى أعرفها ولا أحب أن ألتمس لها المبررات ، ومن ثم فحاشا لله أن أكون قاسياً إزاء عيوب الآخرين . إن لى تجارب ماضية ، ومجموعة من الأفعال ، ولوناً من الحياة ، أكتمها فى صدرى ، لأنها قد تجلب علىّ كثيراً من هزء معارف ولومهم . وقد بدأت ، أو قدر لى أن أبدأ – لأننى أحب كغيرى من الخاطئين أن أضع اللوم على عاتق سوء الحظ والظروف المعاكسة – بسلوك معوج ، مذ كنت فى الحادية والعشرين من عمرى ، ولم أعد إلى الصراط المستقيم منذ ذلك العهد . وكان محتملا أن أكون شيئاً آخر ، بل لعلنى

كنت أغدو مثلك طيبة وطهارة ، وربما أرجح عقلا ! .. وإنى لأغبطك على راحة البال ، وعلى نقاء ضميرك ، وذاكرتك التى لم يدنسها شىء .. ألا اعلمى يا فتاة أن الذاكرة التى لا تشوبها أية وصمة أو دنس لابد أن تكون كنزاً نفيساً ، ومعيناً لا ينضب من الانتعاش النقى .. أليس كذلك ؟

– كيف كانت ذاكرتك وأنت فى الثامنة عشرة يا سيدى ؟

– على خير ما يمكن : صافية ، مليئة بالصحة ، لم يلوثها ماء آسن يحولها إلى غدير كريه الرائحة . كنت فى الثامنة عشرة مثلك .. مثلك تماماً ، فقد كانت الطبيعة تريد أن تجعل منى رجلا طيباً يا آنسة إير .. رجلا من أحسن الرجال ، وهاأنتذى ترين إننى لست كذلك .. قد تقولين إنك لا ترين ذلك ، وأنا أطرى نفسى إذا قلت لك إننى أقرؤه فى عينيك – وبهذه المناسبة ، أحذرك مما تعبر عنه عينك ، لأننى سرعان ما أترجم لغتها ! – وأقسم لك إننى لست شريراً ، ولست وغداً ، ولا ينبغى أن تظنينى كذلك أو تنسبى لى مثل هذه الوصمة ، ولكن .. لظروف خاصة أحاطت بى ، ولا أقول لعيب فى طبيعتى ، أصبحت مبتذل الأخلاق ، وآثماً مهيناً ، تردى فى كل الملذات الرخيصة التى يحاول الأغبياء والتافهون أن يدخلوها على حياتهم . هل يدهشك أن أجاهرك بذلك ؟ .. اعلمى أنك ستجدين نفسك – فى مستقبل حياتك – مختارة على الرغم منك لتكونى مستودع أسرار معارفك .. سيجد الناس بالغريزة – كما وجدت أنا – أن ميزتك ليست فى الحديث عن نفسك ، وإنما فى الإنصات عندما يتحدث الآخرون عن أنفسهم ، وسيشعرون

كذلك أنك لا تصغين إليهم وفى نفسك احتقار وسخط على نزقهم وطيشهم ، وإنما بعطف غريزى يسرى ويشجع ، لأنه خال من التطفل !

— وكيف تعرف ؟ وكيف تستنتج هذا كله ياسيدى ؟

— أعرف ذلك جيداً ، وعلى هذا أمضى فى حرية وانطلاق ، وكأننى أدون أفكارى فى مذكراتى اليومية .. قد تقولين إنه كان ينبغى أن أسيطر على الظروف .. نعم كان ينبغى أن أفعل ذلك ، ولكنك ترين أننى لم أفعل . وعندما ظلمنى القدر ، لم أوت من الحكمة ما يبقينى بارداً غير مكترث ، بل استبد بى اليأس ، فترديت .. وإذا أثار اشمئزازى اليوم رجل أخرق ، بخسته وبلاهته ، فإنى لا أكذب على نفسى زاعماً أننى خير منه ، ولكنى أضطر إلى الاعتراف بأننى وهو فى مستوى واحد ! كم كنت أود الثبات ، والله على ما أقول شهيد !.. نصيحتى إليك أن تخشى تأنيب الضمير يا مس إير ، إذا صادفت ما يغرى على تنكب الطريق الصحيح ، لأن تبكيت الضمير هو سم الحياة !

— يقال إن التوبة شفاء له يا سيدى !

— إنها ليست شفاء له ، ولكن قد يكون الإصلاح هو الشفاء . ولقد كنت أقوى على الإصلاح وما زلت أقوى عليه للآن إذا ... ولكن أية فائدة فى التفكير ، وأنا مثقل بالعراقيل والأعباء واللعنات ؟!.. وفضلا عن ذلك ، لما كانت السعادة قد حرمت علىّ — دون ما سبيل لتفادى الحرمان — فمن حقى أن أنتزع السرور من الحياة ، وسوف أناله ، مهما يكن الثمن !

— إذن فسوف تمعن فى الهبوط إلى الحضيض يا سيدى !

— ربما ، ولكن لماذا أنحدر إلى الحضيض إذا كان فى وسعى أن أحصل على متعة حلوة طازجة ؟.. وقد أحصل عليها فى حلاوة وجدة العسل الذى يجمعه النحل من أقذر الأحراش !

— ولكنها ستلدغك ، وستكون مرة المذاق يا سيدى !

— كيف علمت ذلك وإن لم تجربيها قط ؟ كم تتجلى عليك أمارات الجد والوقار ، فى حين أنك تجهلين الأمر كل الجهل !.. ليس لك الحق فى أن تعظينى .. أنت التى لم تتخط عتبة الحياة بعد ، ولا تعلم شيئاً عن أسرارها مطلقاً !

— إننى أذكرك بكلماتك أنت يا سيدى ، فقد قلت إن الخطأ يسبب الندم ، كما قلت إن الندم وتقريع الضمير سم الحياة !

— ومن ذا الذى يتحدث عن الخطأ الآن ؟.. لا أكاد أعتقد أن الفكرة التى ومضت فى خاطرى كانت خطأ ، بل أومن بأنها وحى أكثر منها إغراء .. ولقد كانت مريحة ، وفيها عزاء !.. وها هى ذى قد أتت مرة أخرى ! إنها ليست وسوسة من الشيطان .. فإن كانت ، فلابد أنها تتزيا بمسوح الملائكة النورانية . ولذلك أرى من الواجب أن أتقبل مثل هذه الضيفة الحسناء ، إذا طلبت الدخول إلى قلبى !

— لا تثق بها ياسيدى لأنها ليست (ملاكاً) حقيقياً !

— مرة أخرى .. من أين علمت بذلك ؟.. وبأية غريزة تدعين أن فى وسعك التمييز بين (ملاك) ساقط من الهوة ، وبين رسول قادم من العرش السرمدى .. بين هاد وبين مضلل ؟

— حكمت على ذلك من وجهك يا سيدى ، فقد اضطرب عندما

قلت إن الفكرة قد عاودتك ! .. وأنا أشعر شعوراً صادقاً بأنها ستضاعف من تعسك وشقائك ، إذا أنت أصغيت إليها ؟

— كلا .. مطلقاً ! .. إنها تحمل أعظم رسالة كريمة خيرة فى العالم . أما فيما عدا ذلك فلست أراك وصية على ضميرى ، فلا تشغلى بالك .. ادخل أيتها الهائمة الظريفة !

.. فاه بذلك وكأنه يخاطب رؤيا من الرؤى لا تبصرها غير عينيه ، ثم عقد ذراعيه — اللتين كان قد بسطهما — على صدره ، وكأنه يحتضن تلك الرؤيا غير المنظورة ، ثم استطرد يحدثنى : « الآن استقبلت الهائمة القدسية .. الربة المتنكرة ، كما أعتقد اعتقاداً جازماً . ولقد أفادتنى كثيراً لأن قلبى كان أشبه بمقبرة ، وسيغدو الآن محراباً ! » .

— الحق يا سيدى ، أننى لا أفهمك مطلقاً ، فليس بوسعى أن أتعقب الحديث ، لأنه انبعث من أعماق .. كل ما أدريه هو أمر واحد .. ذلك هو ما قلت من أنك لست من الطيبة بالقدر الذى كنت ترجوه ، وأنك تندم على نقائصك . كما أننى أدركت شيئاً هاماً ، وهو أن الذاكرة المكتئبة عذاب مقيم . ويخيل إلى أنك إذا ناضلت بكل قوتك فإنك لن تلبث أن تتبين أنه من السهل أن تصبح الشخص الذى كنت تشتهى أن تكونه ، وأنك لو بدأت منذ اليوم فى إصلاح أمورك وأفكارك بعزيمة جبارة ، لوجدت بعد سنوات قلائل زاداً كبيراً من الذكريات الجديدة التى لا تشوبها شائبة ، بحيث يمكن أن ترجع إليها وأنت مغتبط مسرور :

— تفكير عادل وقول صائب يا آنسة ؛ وإنى فى هذه اللحظة لأرصف الجحيم بكل همة ونشاط !

— سيدى ؟!

— إننى أرمى نوايا طيبة فى متانة الحجر الصوان . ولا ريب فى أن رفاقى وهواياتى ستصبح غير التى كانت بالأمس :

— بل خيراً منها ؟

— خيراً منها بكثير .. فسوف تكون كالذهب الخالص بالنسبة إلى المعدن الخسيس الزائف ! يبدو أنك فى شك من ذلك ولكننى شخصياً لا يساورنى أدنى شك ، إذ أننى أعرف هدفى كما أعرف العوامل التى تدفعنى إليه . وأنا فى هذه اللحظة أصدر قانوناً كقوانين الميديين والفرس العادلة التى لا تتغير !

— هذا غير ممكن يا سيدى ، وإلا لاحتاجت هذه القوانين إلى هيئة تشريعية جديدة تقرها :

— نعم تحتاج إلى هيئة جديدة يا مس إير ، مكونة من مجموعة من الظروف لم يسمع بمثلها ، تحتاج بدورها إلى قواعد لم يسمع بها كذلك !

— هذه الحكمة تبدو خطرة يا سيدى ، لأن فى وسع الإنسان أن يرى فى الحال أنها عرضة لأن يساء استعمالها !

— يالك من حكيمة سديدة الرأى !.. فلتكن كذلك ، ولكنى أقسم بأرباب أسرتى ألا أسىء استعمالها !

— إنك من البشر ومعرض للزلل !

— إنى لكذلك ، وأنت مثلى .. فماذا تقصدين ؟

— ينبغى على البشر المعرضين للخطأ ألا ينتحلوا قوة لا يؤتاها سوى القديسين والكاملين من البشر !

— أية قوة ؟

— قوة القول عن كل غريب غير مشروع من الأعمال « ليكن هذا حقاً » !

— « ليكن هذا حقاً » .. هذه هى الكلمات الصحيحة . لقد نطقت بها !

— قد يكون هذا صحيحاً إذن.!

ثم قمت بعد أن رأيت أن من العبث أن أمضى فى حديث كنت أتخبط فى ظلماته ، فضلا عن أنى وجدت أن شخصية محدثى كانت أعمق من أن أنفذ إلى أغوارها ، أو أن أبلغ سطحها الراهن على الأقل .. كما ساورنى القلق .. ذلك الشعور المبهم بعدم الأمان ، الذى يرافق اليقين بالجهل !

وقال السيد : « إلى أين أنت ذاهبة ؟ » .

— سأسلم أديل إلى فراشها ، إذ فات موعد نومها .

— هل أنت خائفة منى لأننى أتحدث فى غموض أبى الهول ؟!

— إن لغتك غامضة ياسيدى ، ولكنى غير خائفة بحال ، وإن كنت فى حيرة ؟

— بل أنت خائفة ، لأن حبك لنفسك يحملك على الخوف من الزلل والعثار !

— إننى أحس بالخوف فعلا ، من هذه الناحية ، ولا رغبة لدى فى حديث فارغ !

— إذا كان الخوف يساورك حقاً ، فإن رزانتك وهدوءك لم يتخليا

عنك حتى أنى حسبتك غير خائفة ! .. ألا تضحكين أبداً يا آنسة ؟!! لا تكلفى نفسك عناء الرد ، فإنه قل أن أراك تضحكين ، وإن كان فى وسعك دائماً أن تضحكى فى مرح وابتهاج .. ثق أنك لست عابسة بطبيعتك ، بأكثر مما أنا شرير أثيم بطبيعتى . ويبدو أن قيود (لو وود) مازالت تؤثر فيك إلى حد ما ، وتتحكم فى معالم وجهك ، وتخافت من صوتك ، وتشل من أطرافك ، وتجعلك تستشعرين الخوف فى حضرة رجل لك أن تعتبريه أخاك أو أباك أو مخدومك أو من تشائين . وأنت بسبب هذا الخوف لا تبتسمين ، ولا تتكلمين بحرية ، ولا تتحركين بسرعة ، ولكنك سوف تصبحين — فى الوقت المناسب — على سجيتك وطبيعتك معى ، وعندئذ سوف تكتسب نظراتك وحركاتك حياة لا تجرئين الآن على إظهارها ، إذ أننى ألمح فى عينيك بين الفينة والأخرى نظرة طائر من نوع غريب ، حبيس خلف قضبان ، كأسير دائب القلق ولكنه ثابت العزم ، فلو أطلق سراحه لانطلق يحلق فى كبد السماء . أما زلت مصرة على الانصراف ؟

— لقد دقت الساعة التاسعة ياسيدى .

— لا يهم .. انتظرى لحظة فإن أديل لم تتهيأ بعد للذهاب إلى فراشها . إن وقفتى يا آنسة إير ، وظهرى إلى الموقد ، ووجهى إلى الحجرة ، ساعدتنى على ملاحظة الكثير . ففيما كنت أتحدث إليك ، أتيحت لى الفرصة لمراقبة أديل — فإن لدى أسباباً خاصة تدعونى إلى اعتبارها مادة عجيبة للدراسة :: أسباباً ربما ، بل سوف أفضى بها إليك يوماً ما — فرأيتها تخرج من صندوقها ثوباً قرنفلياً صغيراً ، ما أن بسطته أمامها حتى أشرق

وجهها حبوراً ، لأن (الغندرة) تجرى فى دمائها وتمتزج بعقلها وتقبل نخاع عظامها .. وقد سمعتها تهتف : « يجب أن أجربه .. فى هذه اللحظة ! » ، ثم اندفعت تغادر الحجرة . وهى الآن مع صوفى — مربيتها الفرنسية — ترتدى الثوب ، وسوف تعود بعد دقائق .. وإنى لأعرف ما سوف أرى .. صورة مصغرة من الممثلة (سيلين فارنس) ، وهى على خشبة المسرح .. ولكن لا داعى لهذا الآن ، فإن مشاعرى المرهفة توشك أن تصاب بصدمة .. هذا ما أتنبأ به ، فانتظرى لترى هل تتحقق هذه النبوءة !

وبعد قليل ، سمع وقع قدمى أديل وهى تخطر برشاقة فى الردهة ، ثم دخلت وقد تحولت إلى الصورة التى تنبأ بها الوصى عليها ، إذ كانت ترتدى ثوباً من الحرير الوردى اللون ، منتفخاً عند (الجونلة) — بدل الثوب الرمادى الذى كانت ترتديه من قبل — وقد وضعت حول جبينها إكليلاً من أكمام الورد ، بينما لبست فى قدميها جوربين من الحرير ، وصندلين صغيرين أبيضين من الحرير نفسه !

وصاحت بالفرنسية ، وهى تثب إلى الأمام : « هل ثوبى جميل ؟ وحذائى ؟ وجوربى ؟ انتبها لأننى سوف أرقص ! » .

ثم بسطت ثوبها وراحت ترقص عبر الحجرة ، إلى أن وصلت إلى مستر روشستر ، فدارت أمامه على أطراف أصابع قدميها فى خفة ورشاقة ، ثم ركعت على ركبة واحدة وهتفت : « أشكرك ألف مرة ياسيدى على طيبتك ! » .. ثم نهضت وأردفت تقول : « هكذا كانت تفعل ماما . أليس كذلك ياسيدى ؟ » .

فكان الرد : « تماماً .. هكذا ! لقد فتنتنى وجعلتنى أنفق عليها بغير حساب ، إذ كنت غض الإهاب : مخضر العود يامس إير ، لا ينعشك من الشباب الآن أكثر مما كان ينعشنى إذ ذاك . ولكن ربيعى قد ولى ، وإن خلف لى هذه الزهرة الفرنسية الصغيرة ، التى أتمنى أحياناً أن أتخلص منها . ولما كنت الآن لا أقدر (الجذر) الذى نبتت منه بعد أن اكتشفت أنه من النوع الذى لا ينمو إلا بسماد من ذهب ، فإننى لا أميل إليها كل الميل ، لاسيما عندما تظهر بمظهر مصطنع متكلف كما ظهرت الآن .. إننى آويها وأربيها تطبيقاً للمبدأ الرومانى الكاثوليكى الذى يقضى بالتكفير عن الخطايا العديدة كبيرها وصغيرها ، بعمل واحد مجيد .. وسوف أشرح لك ذلك يوماً ما .. طابت ليلتك ! » .

* * *

الفصل الخامس عشر

● وبالفعل ، شرح لى مستر روشستر الأمر فى فرصة تالية .. فى عصر يوم قابلنى فيه مصادفة مع أديل فى الحقل . وفيما كانت الصغيرة تلعب مع (بايلوت) وبإحدى لعبها ، طلب إلىّ أن نذرع طريقاً تظلله أشجار الزان على مشهد من الفتاة . ثم أخبرنى أن أديل ابنة راقصة الأوبرا الفرنسية (سيلين فارنس) ، التى أحبها يوماً ما حباً جارفاً ، قابلته هى — حسب اعتراف الراقصة له — بحب أشد عنفاً ، حتى خيل إليه برغم دمامته أنه معبودها ، اعتقاداً منه بأنها كانت تؤثر قوامه الرياضى على جمال ورشاقة (أبوللو بلفيدير) !.. ومضى يقول :

— ولقد ازدهانى وخدعنى ، يامس إير ، هذا الإيثار من الغانية



وفيما كانت الصغيرة تلعب مع (بايلوت) وباحدى لعبها ، طلب الى أن نزرع طريقا تظلله أشجار الزان على مشهد من الفتاة

ابنة بلاد (الغال) ، للمسخ البريطاني ، فأنزلتها في أحد الفنادق ، وزودتها بحاشية كاملة من الخدم ، وبعربة ، وأثواب من الكشمير ، وماسات ، ودانتلا .. وغير ذلك . وقصارى القول ، بدأت عملية إفلاس نفسي ككل مغرم غبي ! .. ويبدو أنني لم أوت من ملكة الابتكار ما يمكنني من أن أختط لنفسي طريقاً جديداً إلى الخزي والخراب ، وإنما سلكت الطريق القديم بدقة حمقاء ، جعلتني لا أحيد قيد أنملة عن مجراه ! .. ولذلك حق علىّ أن ألاقي مصير أولئك المدنفين الحمقى ! فقد اتفق أن زرت (سيلين) ذات مساء — ولم تكن تتوقع قدومي — فوجدتها في الخارج .. ولكن الأمسية كانت حارة ، وكنت متعباً من التجول في أنحاء باريس ، فجلست في مخدعها سعيداً بأن أملأ رئتي بالهواء الذي اكتسب قداسة لأنه حف بها .. كلا .. إنني أبالغ ، لأنني لم أر فيها قط أية فضيلة مقدسة .. على أنها تركت في مخدعها رائحة من روائح (الباستيليا) تشبه المسك والعنبر أكثر مما تشبه رائحة القداسة . وبدأت أشعر ولكنك لن تلبثي أن تلقى الصدمة التي توقعتها ! .. أفتحت النافذة ، وأن أخرج إلى الشرفة . وكان القمر ومصابيح الشارع ترسل أشعتها ، والسكون والهدوء يخيمان ، كما كانت الشرفة مؤثثة بمقعد أو اثنين فجلست وأخرجت سيجاراً ... وسأتناول الآن واحداً إذا سمحت !

وتوقف بعد ذلك فترة شغل فيها بإخراج سيجار وإشعاله ، حتى إذا وضعه بين شفتيه ونفث سحابة من دخان (الهافانا) الشذى في الهواء المتجمد الذي زايلته الشمس ، استرسل يقول : « كنت أحب الحلوى كذلك في تلك الأيام يا مس إير ، فرحت أتلذذ — واغفري لي هذا

التعبير السخيف — بالتهام قطع الشيكولاتة تارة ، وبالتدخين تارة أخرى ، وأنا أراقب فى الوقت نفسه المارة فى الشوارع الحديثة الطراز ، وهم يتجهون نحو دار الأوبرا ، إلى أن شاهدت عربة أنيقة مغلقة يجرها جوادان إنجليزيان جيلان . واستطعت — فى أضواء المدينة المشرقة — أن أتبين أنها العربة المطهمة التى أعطيتها لسيلين . إذن فقد كانت عائدة ! وبالطبع خفق قلبى نافد الصبر وأنا خلف القضبان الحديدية التى أعتمد عليها . وتوقفت العربة كما كنت أتوقع عند باب الفندق ، ثم هبطت شعلتى — وهو الاسم الذى يلائم حبيبتى راقصة الأوبرا — وعلى الرغم من أنها كانت تختفى تحت معطفها ، وهو حمل باهظ لم تكن له ضرورة فى أمسية حارة كهذه من أمسيات شهر يونية ، فقد عرفتها فى الحال من قدمها الصغيرة التى أطلت من أهداب ثوبها وهى تضعها على سلم العربة . وانحنيت على الشرفة لأغمغم : (يا ملاكى !) ، بصوت لا تسمعه سوى أذن الحب وحده ، وعندئذ وثب شخص خلفها من العربة وقد تدثر هو الآخر بمعطف ، وجلجل كعبه المهموز على الإفريز ، ثم مر بصحبته تحت قوس باب الفندق .

« هل شعرت بالغيرة مرة فى حياتك يامس إير ؟ كلا بالطبع ! ولا حاجة بى إلى سؤالك لأنك لم تشعرى بالحب قط ، ولكنك سوف تجربين الاثنين فيما بعد .. إن روحك تغط فى النوم ، ولكنك لن تلبثى أن تتلقى الصدمة التى توقظها ..! أفحسبت أن الوجود كله يمضى فى مجرى هادىء كالمجرى الذى يسير فيه شبابك ؟!. فطالما ظللت طافية بعينين مغلقتين وأذنين مصمومتين ، فلن ترى الصخور القائمة غير

بعيد عنك فى المجرى ، ولن تسمعى الأمواج وهى ترغى وتزبد عند سفوحها ، ولكنى أقول لك — وأصغى إلى ما أقول — إنك ستصلين إلى مضيق صخرى سوف يتقطع عنده استرسال مجرى الحياة كله ، ليتحول إلى دوامة وصخب وزبد وضوضاء ، وعندئذ إما أن تتفتتى إلى ذرات فوق الصخور ، أو ترفعك إحدى الموجات وتحملك إلى تيار أهدأ كما هو الحال معى الآن ! » .

« إننى أحب يومى هذا .. وأحب هذه السماء الصلبة وأحب من الدنيا عبوسها وهدوءها تحت هذا الصقيع .. وأحب قصر (ثورنفيلد) بآثاره العتيقة وعزلته الموحشة ، وأشجاره القديمة المليئة بالأشواك ، وبواجهته الحالكة ، ونوافذه المظلمة التى تعكس غيوم السماء .. ومع ذلك فكم كرهت — زمناً طويلا — مجرد التفكير فيه ، وفررت منه فرارى من منزل موبوء بالطاعون ؟ وكم مازلت أمقت .. » .

وصرف على أسنانه ، ثم أخلد إلى الصمت . وتوقف عن السير ليضرب الأرض بقدميه ، كما لو كانت قد استبدت به فكرة بغيضة فقيدته إلى مكانه بحيث لم يقو على الحراك خطوة أخرى . وكان توقفه هذا — ونحن نرق الطريق — أمام القصر ، فرفع عينيه إلى شرفاته العالية ورمقها بنظرة لم أر مثيلا لها من قبل .. نظرة زاخرة بالألم ، والخزى ، والحنق ، ونفاد الصبر ، والتقزز ، والكراهية التى كانت تصطرع فى إنسان عينه الكبير المنبسط تحت حاجبه الغزير . وكان الاصطراع رهيباً بالغاً ، ولكن شعوراً آخر ما لبث أن تولد وتغلب ... شعوراً كان ينم عن صلابة وحزم وإرادة ، فاستقر باله وهدأت نفسه الثائرة ،

وتبدلت أسارير وجهه ، ثم استرسل يقول : « إنما لذت بالصمت فى تلك اللحظة لأننى كنت أسوى أمورى مع مصيرى .. فقد تراءى لى هناك طيف ، كإحدى تلك الجنيات الساحرة اللاتى ظهرن لماكبث فى مروج (فوريس) ، وقالت وهى ترفع إصبعها : « أتحب ثورنفليد» ؟ ثم كتبت فى الهواء على واجهة القصر ، بين صفى النوافذ الأعلى والأدنى ، بخط هيروغليفى : « أحببها إذا استطعت ! أحببها إذا جرؤت ! » ، فقلت : « سأحبها ، وإنى لأجرؤ على حبها ! » .. ولسوف أبر بوعدى ، فأحطم العقبات التى تعترض سبيلى إلى السعادة والخير .. أجل ، الخير !.. لأننى أود أن أكون خيراً مما كنت ومما أنا عليه الآن .. سأفعل ما فعله حوت (أيوب) إذ حطم الحربة والنبلة والمزراق .. كل هذه الأسلحة التى يعتبرها الآخرون حديداً ونحاساً ، سأعتبرها قشاً وخشباً بالياً منخوراً »(1).

وأقبلت إذ ذاك (أديل) تجرى أمامه بلعبتها ، فصاح فى خشونة : « ابتعدى !.. اجرى بعيداً أيتها الطفلة ، أو اذهبى إلى صوفى فى داخل القصر » .. ثم استأنف سيره فى صمت . وما لبثت أن تجاسرت على أن أذكره بالنقطة التى انقطع الحديث عندها فجأة ، إذ قلت : « وهل غادرت الشرفة يا سيدى عندما دخلت الآنسة فارنس ؟ » :

(1) جاء فى التوراة وصف للوياثان – أو حوت أيوب – بأن :: « فى عنقه تبيت القوة ، وقلبه صلب كالحجر وقاس كالرحى ، عند نهوضه تفزع الأقوياء .. سيف الذى لايلحقه لايقوم ولا رمح ولا مزراق ولا درع ! (أى أنه أقوى من كل هذه الأسلحة !) » :

وكنت أتوقع منه أن يصدم شعورى بعد هذا السؤال الذى كان لا يناسب الموقف فى تلك اللحظة ، ولكنه – على العكس – انتبه من ذهوله العابس ، واتجه نحوى بعينيه ، ثم قال : « آه !. لقد نسيت سيلين ::. حسناً سأستأنف الحديث : عندما وجدت فاتنتى تدخل الفندق ، وفى رفقتها ذلك الفارس ، خيل إلىّ أننى أسمع فحيحاً ، ثم رأيت حية الغيرة الخضراء على ضوء القمر وقد رفعت رأسها فى الشرفة ، ثم تسللت تحت سترتى ، وبادرت تنهش سويداء قلبى . يا للعجب ! » .

وقطع الحديث مبدياً تعجبه ، ثم عاد يستأنف موضوعه قائلا : « يا للعجب !.. كيف اخترتك من دون الناس جميعاً لأفضى إليك بكل هذه الأسرار ؟.. وأعجب من هذا أن تصغى إلىّ فى هدوء ، وكأنه أمر عادى لديك أن يروى رجل مثلى قصص ممثلات الأوبرا لفتاة غريبة عديمة التجاريب مثلك ! ولكن الغرابة الأخيرة تفسر الأولى ، فإنك – كما قلت لك من قبل – إنما خلقت بهذه الجاذبية والرصانة والحذر لتكونى مستمعة للأسرار . هذا فضلا عن أننى أعرف أى نوع من العقول أربطه بعقلى ، إنه نوع لايمكن أن تنتقل إليه العدوى لأنه شاذ فريد فى نوعه ، كما أننى – لحسن الحظ – لا أرمى إلى إيذائه .. بل إننى لو فعلت فلن يصيبه منى الأذى . ومن ثم فكلما تحدثت كان ذلك أفضل ، إذ سيكون فى وسعك أن تسرى عنى ، ما دمت لا أملك لك ضرآ » .

وعاد يستأنف الموضوع الأصلى ، بعد أن حاد عنه ، فقال : « بقيت فى الشرفة حتى يدخلا مخدعهما كما حدست . وفكرت فى أن أكمن لهما ، ومن ثم مددت يدى من النافذة المفتوحة ، فجذبت الستارة

عليها تاركاً فتحة أستطيع المراقبة منها ؛ ثم أغلقت النافذة كلها ، عدا ثغرة تتسع لأن تنفذ منها وعود العاشقين وعهودهما الحماسية : ثم عدت متسللاً إلى مقعدى فى الشرفة ، وإذا بالاثنين يدخلان المخدع : وسرعان ما كانت عيناى على الفتحة . ودخلت وصيفة سيلين فأشعلت المصباح ووضعته على المنضدة ، ثم انسحبت .. ورأيت العاشقين أمامى بوضوح وقد أخذ كل منهما يخلع معطفه . وظهرت سيلين متألقة فى ثوبها الحريرى اللامع ومجوهراتها التى كانت من هداياى بالطبع ، كما ظهر رفيقها فى بزة ضابط ، فعرفت فيه (فيكونت) شاباً ، طائشاً ، فاسداً ، كنت ألتقى به أحياناً فى المجتمعات .. ولم أفكر قط فى أن أكرهه ، لأننى احتقرته احتقاراً بالغاً . فما أن تبينت شخصيته حتى تكسرت أنياب الغيرة ، لأن نار حبى لسيلين انطفأت فى الحال ، إذ أن المرأة التى أقدمت على خيانتى من أجل منافس كهذا ، لم تكن أهلاً لأى نضال فى سبيلها ، ولم تكن تستحق سوى الاحتقار ، لا سيما من رجل مثلى ، كان غريراً سهل الانخداع !

« وأخذا يتحادثان ، فخفف حديثهما من انفعالى وتوترى إلى حد كبير ، لأنه كان حديثاً طائشاً ، مصطنعاً ، جامداً ، مجرداً من العواطف ، يبعث الملل فى السامع أكثر مما يثير حنقه . وكانت على المنضدة بطاقة باسمى ، فلما وقع نظرهما عليها تحول حديثهما إلىّ ، فجعلا يسبانى بأفحش ما فى وسعهما ، على طريقتهما الرخيصة ، لا سيما سيلين التى راحت تعدد عيوبى الخاصة ، أو (عاهاتى) كما أسمتها ؟!.. مع أنها كانت – عادة – تتحدث بحماسة شديدة عن تسميه (رجلها

الجميل) .. أنا ! وهى فى هذا تختلف كل الاختلاف عنك أنت التى صارحتنى فى المقابلة الثانية بأنك لا ترينى جميلاً . ولقد أذهلنى الفارق وقتذاك و ... » .

* * *

● وجاءت أديل تجرى مرة أخرى لتقول : « لقد جاء جون يا سيدى ليخبرك بأن وكيلك قدم ويرغب فى مقابلتك » ؛

– آه .. فى هذه الحالة ، يجب أن أوجز : فتحت الباب ودهمتهما وحررت (سيلين) من رعايتى وحمايتى ، ثم أنذرتها بمغادرة الفندق ، وقدمت لها كيساً مليئاً بالنقود لنفقاتها العاجلة ، غير حافل بعويلها ، ونوباتها الهستيرية ، وتوسلاتها واحتجاجاتها وانتفاضاتها .. ثم حددت مع (الفيكونت) موعداً فى غابة (بولونيا) . وفى الصباح التالى حظيت بمنازلته ، ثم غادرته برصاصة فى إحدى ذراعيه القاصرتين الضعيفتين ضعف جناح الفرّوج (الكتكوت) عند فقسه ، ظاناً أننى قد انتهيت من الاثنين . ولكن .. شد ما كان أسفى ، إذ كانت سيلين قد جاءتنى بهذه الصغيرة (أديل) قبل الحادث بستة أشهر ، مؤكدة أنها ابنتى .. ولعلها كذلك ، وإن كنت لا أجد على محياها أية قرينة تنم عن أبوتى لها .. بل إن كلبى (بايلوت) يشبهنى أكثر منها !!.. وبعد انقضاء سنوات على انقطاع صلتى بالأم ، هجرت المرأة طفلتها وهربت إلى إيطاليا مع موسيقى أو مطرب . ولم أكن أعترف بأى حق طبيعى لأديل يلزمنى بالإنفاق عليها ، لأننى لست والدها ، بيد أننى سمعت بأن الطفلة مهملة إهمالاً تاماً ، فانتشلتها من أوحال باريس ، ونقلتها إلى هنا

لتترعرع نظيفة فى تربة حديقة إنجليزية بالريف . وقد احتلت إليك مسز فيرفاكس لتعلميها . ومن المحتمل بعد أن عرفت الآن أنها ابنة غير شرعية لراقصة فرنسية ، أن ترى رأياً آخر فى وظيفتك والطفلة التى تحت رعايتك . وقد تجيئين يوماً ما لتنذريني بأنك وجدت مكاناً آخر وتطلبي إلىّ أن أبحث عن معلمة أخرى .. أليس كذلك ؟

— كلا .. إن أديل غير مسئولة عن أخطاء أمها أو أخطائك ، وأنا أعزها .. بل إنى بعد أن عرفت الآن أنها عديمة الأبوين ، منبوذة من أمها ، وغير معترف بها منك يا سيدى ، سأزداد تشبثاً بها عن ذى قبل . وكيف يمكن أن أفضل فتاة مدللة من أسرة غنية قد تكره معلمتها كراهيتها لشىء مزعج مقلق للراحة ، على يتيمة صغيرة وحيدة يمكن الاطمئنان إلى صداقتها ؟!

— أهذا هو الضوء الذى تنظرين فيه إلى الأمر ؟! حسن ، يجب أن أذهب الآن ، وأنت أيضاً ، لأن الظلام يهبط .

ولكننى مكثت بضع دقائق أخرى مع (أديل) و (بايلوت) ، وجريت مع الصبية تتسابق ، ثم لعبنا بالكرة والمضرب . ولما دخلنا، خلعت عنها قبعتها ومعطفها ، ثم أجلستها على ركبتى ، وتركتها ساعة تثرثر كما شاءت ، دون أن أحاول ردعها ، بل دون أن أفكر فى تأنيبها على بعض الهفوات التافهة التى كانت ترتكبها عندما تشعر بأن ثمة من يحصى عليها تصرفاتها ، والتى كانت تكشف عن سطحية فى سلوكها ، لعلها ورثتها عن أمها .. فلقد كانت لها — برغم ذلك — فضائل ، وكنت ميالة إلى أن أقدر فيها كل ما هو طيب إلى أقصى

حد . ورحت أتفرس فى محياها وملامحها ، بحثاً عن شبه يقربها من مستر روشستر ، ولكننى لم أفز بطائل ، إذ لم أجد ما يؤكد الصلة بينهما ، ومن ثم أسفت للفتاة التى كانت خليقة بأن تلقى منه مزيداً من العناية لو ثبت أى شبه بينها وبينه !

* * *

● ولم يتح لى استعراض القصة التى رواها لى مستر روشستر إلا حين أويت إلى غرفتى الخاصة فى الليل . وكما قال هو ، كان من المحتمل أن مادة القصة لم تحو — فى حد ذاتها — شيئاً غير عادى : فإن هيام رجل إنجليزى موسر براقصة فرنسية ، وخيانتها له ، كانا مما يحدث فى المجتمع كل يوم ولا ريب . بيد أنه كان ثمة شىء عجيب — بكل تأكيد — فى نوبة الانفعال التى تملكته وهو يعبر عن رضائه الحالى بطباعه ، وعن سروره المتجدد حديثاً بالقصر القديم وما حوله . ومضيت أتأمل طويلا هذه الحال ، ولكننى أقلعت تدريجاً عن التفكير فيها ، بعد أن وجدتنى لا أستطيع فهمها فى الوقت الحاضر . ثم تحولت إلى التفكير فى مسلكه الشخصى معى .. فى الثقة التى وجدنى أهلا لأن يضعها فىّ ، تقديراً منه لحصافتى وفطنتى ، والتى تقبلتها — من ناحيتى — على هذا الاعتبار !

كان مسلكه نحوى منذ أسابيع ، أكثر اتساقاً من ذى قبل . ولم أكن أحاول أن أعترض طريقه قط ، ولكنه كان إذا لقينى مصادفة يرحب بى ويتبادل معى بعض العبارات . وكان أحياناً يبتسم لى . وإذا دعانى رسمياً إلى حضرته ، كان يؤثرنى باستقبال ودى يبعث فى نفسى الشعور بأن لى القوة حقاً على تسليته ، وأنه إنما كان ينشد هذه الأحاديث

المسائية لإدخال السرور على نفسه ، كما كنت أنا أنشدها لأفيد منها !
فقد كنت — فى الحقيقة — أقل من حديثى نسياً لأنصت إليه ، وهو
يتحدث كيفما يشاء . وكان بطبيعته محدثاً لبقاً ، محباً لأن يفتح أذهان من
يجهلون العالم لتلق ومضات من مناظره وطرائفه .. ولست أعنى مناظره
الفاسدة وطرائفه الخبيثة ، وإنما أقصد تلك التى تشتق طرافتها من
جدتها وذيوعها . وكنت شديدة الاغتباط باستقبال الآراء الجديدة
التى كان يقدمها ، وبتخيل الصور الجديدة التى يرسمها ، وبتتبعه إلى
المناطق الجديدة التى يكشف عنها الستار دون أن يروعنى أو يزعجنى
بإطاعة تضايقنى أو تؤذى مشاعرى !.. ولقد حررتنى بساطة أخلاقه
من قيود التحفظ الأليم ، كما جذبتنى إليه صراحته الودود ، المستقيمة
المخلصة ، التى أخذ يعاملنى بها ، حتى كان يخيل إلىّ أحياناً أنه قريبى
أكثر منه مخدومى !.. على أنه ظل برغم ذلك يستبد فى بعض الأحيان
برأيه فى لهجة آمرة ، ولكنى لم أكن أهتم لذلك ، إذ أدركت طباعه
وطريقته . ولقد بلغ من شعورى بالسعادة والامتنان بهذا اللون الجديد
من ألوان الاهتمام فى حياتى ، أن كففت عن الحنين إلى أن يكون لى
أقارب ، وبدا لى أن مصيرى الذى كان كالهلال الصغير أخذ يكبر
وينمو ، وأن الثغرات التى كانت فى كيانى قد امتلأت ، وأن صحتى
تحسنت ، وأننى ازددت قوة وبدانة !

أترانى كنت بعد ذلك أرى مستر روشستر دميماً ؟ كلا أيها
القارئ ، فإن الاعتراف بالجميل وبالعديد من خصاله — وكلها كانت
تبعث على السرور والإيناس — جعل وجهه أحب شىء أرغب فى

رؤيته ، كما كان لوجوده فى أى غرفة إشراق يفوق أكثر النيران
تألقاً !.. ولكننى — فى الواقع — لم أنس أخطاءه ، ولم يكن فى وسعى
نسيانها ، لأنه كان يذكرها دائماً أمامى . إذ كان متعالياً ، ساخراً ،
قاسياً على من هم دونه ، وكنت أعرف فى طوايا نفسى أن عطفه علىّ
تقابله شدة جائرة على كثيرين آخرين . ثم إنه كان دائب الهم والاكتئاب
إلى درجة كبيرة .. وكم كنت أجده — عندما يرسل فى طلبى لأقرأ له —
جالساً فى مكتبته بمفرده ، ورأسه معتمد على ذراعيه المعقودتين . فإذا
رفع رأسه ، رأيت عبوساً مكتئباً ، بل خبيثاً ، يظلم أساريره ! ولكنى
كنت أعتقد أن همه وصرامته وذنوبه الخلقية السابقة — وأقول السابقة
إذ يبدو أنه أصلح من شأنها — إنما نشأت من إحدى صدمات القدر
القاسية .. وكنت أعتقد أنه بسليقته رجل ذو ميول طيبة ، ومبادئ
سامية ، وأذواق صافية ، تفوق ما نمته فى نفسه الظروف ، وما بثه
فيه التعليم ، وشجعه عليه القدر .. بل كنت أعتقد كذلك أن فيه
خامات طيبة وإن بدت إذ ذاك مضطربة معقدة . ولا سبيل إلى أن
أنكر أننى كنت أحزن لما يحزنه مهما يكن ، ولا أضن بالكثير من
أجل التخفيف عنه !

* * *

● وبالرغم من أننى أطفأت الشمعة ورقدت فى الفراش ، إلا أننى
لم أستطع النوم ، إذ رحت أفكر فى نظرته عندما توقف فى الطريق ،
وأخبرنى كيف تمثل له مصيره شبحاً منتصباً وأغراه على أن يكون
سعيداً فى (ثورنفيلد) . وتساءلت :

— لم لا ؟! ما الذى يبعده عن المنزل ؟.. وهل سيغادره مرة أخرى عن قريب ؟.. لقد أخبرتنى مسز فيرفاكس أنه قلّ أن أقام هنا أكثر من أسبوعين كاملين ، وها هو ذا الآن قد مكث ثمانية أسابيع ، فلو رحل لكان هذا التحول باعثاً على الحزن والغم !.. ولنفرض أنه تغيب طوال الربيع والصيف والخريف ، فكم ستبدو أشعة الشمس مقبضة والأيام فارغة ، إذ ذاك ؟

ولست أدرى هل استسلمت للنوم ، أو أننى ظللت مستيقظة بعد هذه الخواطر .. وإنما الذى أدريه هو أننى انتبهت مفزوعة على صوت همهمة غامضة ، شاذة ، كئيبة — خلتها تنبعث من الحجرة التى تقع فوق حجرتى مباشرة — فتمنيت لو أننى كنت قد تركت الشمعة موقدة لأن الليلة كانت رهيبة الظلام ، ولأن روحى المعنوية كانت مثقلة . واستويت جالسة فى فراشى ، أرهف السمع ، ولكن الصوت كان قد سكت . وحاولت أن أنام من جديد ، ولكن قلبى راح يخفق قلقاً.. كانت طمأنينتى قد تبددت . ودقت الساعة التى فى الطرف الأقصى من البهو معلنة الثانية .. وفى تلك اللحظة ، خيل إلىّ أن شيئاً مسّ باب غرفتى ، وكأن أصابع قد احتكت بألواحه وهى تتحسس طريقها فى الردهة المظلمة .. وقلت : « من هناك ؟ » .: ولكننى لم أتلق رداً ، فسرت فى كيانى برودة الخوف .. ثم تذكرت فى الحال أن الذى مر بغرفتى ربما كان (بايلوت) الذى كان كثيراً ما يتخذ سبيله إلى عتبة غرفة مستر روشستر ، إذا قدر لباب المطبخ أن يترك مفتوحاً ، وقد رأيته بنفسى راقداً هناك فى أكثر من صباح !.. وهدأت نفسى هذا

الخاطر هوناً ما ، فرقدت من جديد . وأخذ الصمت يهدئ أعصابى ، ولما كان السكون الشامل يغشى البيت كله ، فقد بدأت أشعر بالنعاس يعاودنى . بيد أنه لم يكن مقدوراً لى أن أنام فى تلك الليلة ، فما كاد أحد الأحلام يراودنى ، حتى ولى مذعوراً وقد أفزعه حادث جمد له النخاع فى عظامى !

وكان الحادث فى هذه المرة ضحكة شيطانية خافتة ، مكبوتة ، عميقة ، خيل إلىّ أنها انبعثت فى ثقب مفتاح باب غرفتى بالذات .. وكان رأس سريرى قريباً من الباب ، فخيل إلىّ فى أول الأمر أن الضحكة الشيطانية قد وقفت بجانب سريرى ، أو بالأحرى ربضت عند وسادتى ، فنهضت وجعلت أتلفت حولى ، ولكنى لم أر شيئاً . وفيما كنت أحلق ، عادت الضحكة غير الطبيعية ، وأدركت أنها جاءت من خلف الألواح الزجاجية . وكان أول ما فكرت فيه أن أنهض وأحكم رتاج الباب ، ولكن الخاطر الثانى أهاب بى أن أصيح: « من هناك ؟ » .

... كان هنالك شىء يخور ويئن !.. وبعد قليل سمعت خطوات تبتعد فى الردهة إلى سلم الطابق الثالث . وكان قد أقيم أخيراً باب يمنع الوصول إلى ذلك السلم ، فسمعت هذا الباب يفتح ويغلق ، ثم ران السكون .. فقلت فى نفسى : « أكانت هذه جريس بول ؟ وهل يتملكها الشيطان ؟ » .. وصار من المستحيل أن أظل منفردة بنفسى بعد هذا ، بل يجب أن أذهب إلى مسز فيرفاكس ، فبادرت أرتدى معطفى وشالى ، ثم سحبت المزلاج وفتحت الباب بيد ترتعد . وكانت

بالبهو شمعة تشتعل ، خارج الباب مباشرة ، وعلى البساط ، فدهشت للأمر . ولكن دهشتى كانت أشد عندما رأيت الجو ملبداً وكأنه امتلأ بالدخان !.. وفيما كنت أتطلع إلى اليمين وإلى اليسار ، لأتبين مصدر هذه الجدائل الزرقاء من الدخان ، فطنت إلى رائحة احتراق قوية .

ثم سمعت صوت صريف ينبعث من باب موارب .. هو باب حجرة مستر روشستر .. وتبينت أن الدخان كان يندفع منه أشبه بسحابة كثيفة ، فلم أعد أفكر فى مسز فيرفاكس أو فى جريس بول أو فى الضحكة . وفى لحظة واحدة كنت بداخل الغرفة ، فإذا بألسنة اللهب تندلع حول الفراش ، والستائر تشتعل .. وفى وسط اللهب والدخان ، كان مستر روشستر مستغرقاً فى النوم لا يتحرك ولا يريم! فصحت وأنا أهزه : « أفق !.. استيقظ ! » .. لكنه لم يفعل أكثر من أن تقلب وغمغم ، فقد ذهب الدخان بوعيه وسلبه رشده .. ولم تكن هناك لحظة يمكن إضاعتها ، إذ أن أغطية السرير نفسه كانت قد اشتعلت . فاندفعت إلى الحوض والإبريق .. ولحسن الحظ كان أحدهما واسعاً والآخر عميقاً ، كما كان كلاهما مملوءاً بالماء ، فحملتهما عالياً وأغرقت الفراش ومن فيه . ثم أسرعت إلى حجرتى فجئت بإبريق وأغرقت الفراش من جديد . ووفقت بعون الله إلى إخماد النار التى كانت تلتهمه .

وأخيراً ، أفاق مستر روشستر على أزيز النار وهى تنطفىء بفعل الماء ، وعلى صوت تحطيم الإبريق الذى طوحته من يدى بعد أن أفرغته ، وعلى رذاذ الماء الذى صببته عليه متعمدة ، قبل كل شىء ::

ولم تكن هناك لحظة يمكن اضاعتها ، اذ ان اغطية السرير نفسه كانت قد اشتعلت

وأدركت برغم الظلام أنه قد استيقظ ، لأنني سمعته يهذر بألوان عجيبة من اللعنات ، عندما وجد نفسه راقداً في بركة من المياه . ثم صاح : « هل ثمة فيضان ؟ » .. فأجبته : « كلا يا سيدي ، ولكن كان ثمة حريق . قم فقد غرقت وسآتيك بشمعة » :

— بحق شياطين البلاد المسيحية كلها ، هل هذه (جين اير) ؟ ماذا فعلت بي أيتها الساحرة العرافة ؟! من بالحجرة غيرك ؟ هل تآمرت على إغراقي ؟

— سآتيك بشمعة يا سيدي ، فأستحلفك بالله أن تقوم إذ دبر لك بعضهم شيئاً ، وليس في وسعك أن تكشف في الحال عمن هو المدبر وما الذي دبره !

— ها قد قمت الآن ، ولكنك تخاطرين بإحضار الشمعة . انتظري دقيقتين حتى أجد ثياباً جافة إذا كان قد بقي شيء جاف .. أجل ، ها هو ذا ثوب الغرفة (الروب دي شامبر) .. اجري إذن !

وهرعت وجئت بالشمعة التي كانت ما تزال في الردهة ، فتناولها من يدي ثم راح يتأمل الفراش الذي اسود واحترق ، وإلى الملاءات المبتلة ، والبساط السابح في المياه .. وسألني : « ما هذا ؟ ومن فعله ؟ » .: فرويت له في إيجاز ما جرى : الضحكة العجيبة التي سمعتها في البهو .: وقع الأقدام الصاعدة إلى الطابق الثالث .: الدخان ورائحة النار التي قادتني إلى حجرته .. أية حالة كانت الأمور عليها هنالك وكيف أغرقته بكل ما وقع بين يدي من مياه .: وكان يصغي إليّ في اهتمام ورزانة ، وكلما أوغلت في حديثي تجلى على وجهه من آيات القلق فوق ما كان

عليه من أمارات الدهش . ولم يتكلم على الفور بمجرد أن انتهيت من روايتي . فسألته : « هل أستدعي مسز فيرفاكس ؟ » .

— مسز فيرفاكس ؟ كلا .. لماذا بالله تستدعينها ؟ ما الذي في وسعها أن تفعله ؟ .. لا تعكري صفو نومها !

— إذن سأجيء بالخادمة (لياه) وأوقظ جون وزوجته .

— كلا مطلقاً .. بل التزمي الهدوء !.. أراك تتلفعين بشال ، فإذا كان لا يدفئك جيداً فخذي عباءتي التي هناك وتدثري بها ثم اجلسي على المقعد ذي المسندين . والآن ضعي قدميك على الكرسي الصغير لتبعديهما عن البلل . سوف أتركك بضع دقائق ، وسآخذ معي الشمعة ، فابقي حيث أنت إلى أن أعود ، والتزمي سكون الفئران ، إذ لابد لي من أن أزور الطابق الثالث .. وتذكري أن عليك ألا تتحركي أو تستدعي أحداً !

وذهب ، فظللت أرقب النور وهو يتصعد معه . واجتاز الردهة في خطى خفيفة للغاية ، ثم فتح باب السلم بأدنى جلبة مستطاعة وأغلقه خلفه قبل أن تختفي آخر أشعة الشمعة .. وهكذا تركني في ظلام دامس . وأرهفت السمع فلم تتناه إلى أذني أية ضوضاء . وانقضى وقت طويل .. وما لبث السأم أن تملكني ، وشعرت بالبرد برغم العباءة .. وأخيراً ، لم أجد أية فائدة في الانتظار ما دمت لن أوقظ أحداً من أهل المنزل . وهممت بأن أتعرض لغضب مستر روشستر — إذ يعود فيجدني قد عصيت أوامره — ولكنني ما لبثت أن سمعت قدميه تدوسان بساط الردهة ، فقلت في نفسي : « أرجو أن يكون هو ، وليس شيئاً

أسوأ ؟ » .. وأقبل هو — فعلا — شاحب الوجه ، بادى الاكتئاب ، ثم قال بعد أن وضع الشمعة على منضدة الاغتسال : « لقد اكتشفت كل شيء ووجدته كما قدرت ! » .

— كيف يا سيدى ؟

فلم يحر جواباً ، بل وقف ويداه معقودتان ، ورأسه مطرق إلى الأرض . وبعد دقائق سأل فى صوت يغلب عليه الشذوذ : « لقد نسيت ما قلت لى .. هل قلت إنك شاهدت شيئاً عندما فتحت باب مخدعك ؟ » .

— كلا يا سيدى .. كانت الشمعة على الأرض فقط .

— ولكن ، ألم تسمعى ضحكة عجيبة ؟.. وما أرى إلا أنك سمعت هذه الضحكة من قبل ، أو شيئاً من هذا القبيل !

— نعم يا سيدى .. فهناك امرأة تتولى الحياكة — وتدعى (جريس بول) — تضحك بتلك الطريقة .. إنها مخلوقة عجيبة !

— تماماً ، جريس بول !.. لقد أصاب حدسك !.. إنها كما تقولين عجيبة .. جداً ! حسناً سأفكر فى الأمر ، وفى الوقت نفسه يسرنى أنك الشخص الوحيد — ما عداى — الذى يلم بالتفاصيل الدقيقة لحادث الليلة . أنت لست ثرثارة حمقاء فلا تتحدثى بشىء عن ذلك لأحد !

ثم أشار إلى الفراش وعاد يقول : « والآن عودى إلى حجرتك وسأرتاح كل الراحة بقية الليل على أريكة بحجرة المكتبة .. لقد قاربت الساعة الرابعة وسوف يستيقظ الخدم بعد ساعتين » .

— طابت ليلتك إذن يا سيدى !

ثم هممت بالرحيل ، فتظاهر بدهشة تناقض غاية التناقض ما طلبه

من مبادرة بالعودة إلى حجرتى وصاح : « ماذا ! هل تغادريننى فى الحال ، وبهذه الطريقة ؟ » .

— ألم تقل إن فى وسعى العودة !

— ولكن ، ليس دون أن تستأذنى .. ليس دون كلمة أو اثنتين أعبر بهما عن تقديرى وعرفانى .. وبالاختصار ، ليس بهذه الطريقة المبتسرة الجافة . إنك أنقذت حياتى ، بل إنك انتزعتنى انتزاعاً من أنياب ميتة مروعة ، أليمة . فكيف تفارقيننى كما لو كنا غريبين لا يعرف أحدنا الآخر ؟! صافحينى على الأقل !

وبسط يده ، فناولته يدى . وإذ ذاك أمسك بها أولا فى إحدى يديه ، ثم أطبق عليها راحتيه وقال : « لقد أنقذت حياتى ، ويسرنى أن أدين لك بهذا الدين الضخم ، وليس فى مقدورى أن أقول أكثر من هذا .. بل إننى ما كنت لأحتمل أن أدين لمخلوق على قيد الوجود بمثل هذا الالتزام . بيد أن الأمر يختلف معك ، فلست أشعر بأن فضلك هذا عبء يثقل علىّ ياجين » .. وتوقف عن الكلام ، وأخذ يفرس فىّ ، والكلمات تضطرب على شفتيه ، ولكنه حبسها ، فقلت : « طابت ليلتك مرة أخرى يا سيدى ، وليس فى الأمر دين أو فضل أو التزام ! » .

— كنت أعرف أنه سينالنى خير على يديك بطريقة ما ، وفى وقت ما .. قرأت ذلك فى عينيك يوم شاهدتك لأول مرة ، ولم تكن عبثاً نظرتك وابتسامتك اللتان أدخلتا البهجة على نفسى : إن الناس يتحدثون عن العواطف الطبيعية ، كما سمعتهم يتحدثون عن وجود (الملاك الطيب) ، وقد آمنت الآن بأن فى الخرافات — مهما تشطط فى الخيال —

بذوراً من الحقيقة .. طابت ليلتك يا حافظتى العزيزة !

وكانت فى صوته حيوية عجيبة ، وفى نظرته نار غريبة . فقلت : « يسعدنى يا سيدى أننى كنت ما أزال متيقظة ، بالمصادفة ! » .. ثم هممت بالانصراف فقال : « ماذا !.. هل ستنصرفين ؟ » .

— إننى أشعر ببرد يا سيدى .

— ببرد ؟.. أجل .. بل إنك تقفين فى بركة ماء ! اذهبى إذن ياجين !

ولكنه ظل ممسكاً بيدى ، فلم أستطع تخليصها . وفكرت فى حيلة أتذرع بها ، فقلت : « أظننى سمعت مسز فيرفاكس تتحرك ياسيدى » .. فأرخى أصابعه وقال : « حسناً ، فارقينى » !.. وانصرفت ، فعدت إلى فراشى ، ولكنى لم أفكر فى النوم إطلاقاً ، بل ظللت — إلى أن لاحت تباشير الفجر — كمن يطوح بها بحر يهيج ويمور ، ولكنه ليس هادىء الصفو وإنما تنساب تحت أمواج مباهجه تيارات العناء والمتاعب. وكان يخيل إلىّ أحياناً أننى أرى خلف مياهه العنيفة شاطئاً جميلاً ، ثم لا يلبث الأمل بين حين وآخر أن يوقظ زوبعة منعشة تحمل روحى ظافرة إلى هدف .. إلى ذلك الشاطئ الجميل ، ولكننى لم أستطع بلوغه حتى فى الخيال ، لأن عاصفة مضادة كانت تجرفنى إلى الخلف ، أى أننى كنت بين عاملين : كان العقل يقاوم الهذيان ، والتمييز يحذر من الهوى .. واستحال علىّ أن أستريح وأنا محمومة هكذا ، فنهضت بمجرد أن طلع فجر اليوم !

* * *

الفصل السادس عشر

• كنت أتمنى — بقدر ما كنت أخشى — أن أقابل مستر روشستر فى اليوم التالى لتلك الليلة الليلاء الساهدة .. كنت أصبو إلى أن أسمع صوته مرة أخرى . ومع ذلك كنت أرجف من أن تلتقى عيناى بعينيه . وكنت طوال الهزيع الباكر من الصباح أتوقع ظهوره بين لحظة وأخرى .. ومع أنه لم يعتد أن يدخل إلى حجرة الدراسة ، إلا أنه كان يعرج عليها فى بعض الأحيان ، ولذلك كان بى هاتف يؤكد لى أنه سيزور الحجرة فى ذلك اليوم .. غير أن الصباح انقضى كالعادة ، دون أن يقع ما يعوق سير الدرس . على أننى لم أكد أنتهى من تناول الإفطار ، حتى سمعت لغطاً بجوار مخدع مستر روشستر ، وكان مزيجاً من أصوات مسز فيرفاكس و (لياه) والطاهية .. بل وصوت زوجها (جون) بلهجته الغليظة ، وتناهت إلى أذنى — خلال اللغط — صيحات متعددة : « من رحمة الله أن السيد لم يحترق فى فراشه ! » .. « من الخطر دائماً أن تظل إحدى الشموع موقدة فى الليل » .. « من عناية الله أن أوتى من حضور الذهن ما جعله يتذكر إبريق الماء » .. « من عجب أنه لم يوقظ أحداً ! » .. « عسى ألا يصاب ببرد بعد نومته على أريكة المكتبة » .. إلخ .

ودار لغط كثير ، أعقبته أصوات مسح الحجرة وتنظيفها ، وترتيب محتوياتها .. وعندما مررت بتلك الحجرة فى طريقى لتناول الغداء بالطابق الأسفل ، شاهدت من خلال الباب المفتوح أن كل شىء قد استعاد نظامه التام ، فيما عدا الفراش الذى كان مجرداً من ستائره . وكانت (لياه) منتصبة فوق قاعدة النافذة ، تمسح ألواحها الزجاجية التى جعلها

الدخان معتمة . وهممت بأن أخاطبها رغبة فى معرفة السبب الذى يعزى
إليه ذلك الحادث ، ولكننى ما إن تقدمت حتى شاهدت شخصاً آخر
فى الحجرة : امرأة تجلس على مقعد بجوار الفراش ، وتخيط دوائر
أستار جديدة .. ولم تكن تلك المرأة سوى (جريس بول) !

هنالك تجلس رابطة الجأش ، مخلدة إلى الوجوم كالعادة ، بثوبها
البنى الفضفاض ، ومرولتها — ذات المربعات — ومنديلها وقلنسوتها
الناصعى البياض . وكانت منهمكة فى عملها الذى بدا أنها استغرقت فيه
بكل أفكارها دون أن يتراءى على جبينها الجامد ، أو على أساريرها
المألوفة شىء من الامتقاع أو القنوط الذى يتوقع المرء أن يراه على
أسارير امرأة شرعت فى ارتكاب جريمة قتل فى الليلة السالفة ، فإذا
بالضحية المقصودة تتبعها إلى عرينها ، وتتهمها — كما اعتقدت — بالجريمة
التى أرادت تنفيذها .. لذلك تولتنى الدهشة وتملكتنى الحيرة .. وفيما
كنت أتفرس فيها ، رفعت عينيها دون أن ترتاع أو يتضرج وجهها بحمرة
أو شحوب ينم عن انفعال فى النفس أو شعور بالإثم أو خوف من
اكتشاف أمرها . بل إنها قالت بلهجتها الفاترة المقتضبة : « صباح الخير
يا آنسة » ، ثم تناولت دائرة أخرى وشريطاً آخر ، واسترسلت فى خياطتها
فقلت أحدث نفسى : « سوف أجرى عليها بعض الاختبار ، فإن
مثل هذا التكتم المطلق يفوق كل تصور وإدراك ! » .. ثم قلت لها :
« صباح الخير يا جريس . هل حدث شىء هنا ؟ .. لقد خيل إلىّ أننى
سمعت جميع الخدم يتبادلون الحديث منذ هنيهة ! » .

— كل ما هنالك أن السيد كان يقرأ فى فراشه ليلة أمس ، فاستغرق

فى النوم والشمعة موقدة ، فشبت النيران فى الستائر .. ولكنه لحسن الحظ
تيقظ قبل أن يمتد اللهب إلى مفارش السرير وإلى النوافذ والأبواب ،
فتمكن من إخماد الحريق بماء الإبريق .

فقلت بصوت خافت : « ياله من أمر عجيب ! » .. ثم سددت
إليها نظراتى وقلت : « هل أيقظ مستر روشستر أحداً ؟ .. ألم يسمعه
أحد يتحرك ؟ » .. فرفعت عينيها إلىّ مرة أخرى ، وكان فيهما فى هذه
المرة ما يعبر عن الشعور بالجرم . وبدا لى أنها تتفحصنى بحذر شديد ،
ثم أجابتنى قائلة : « إن الخدم ينامون بعيداً جداً كما تعلمين يا آنسة ،
فمن المحتمل أنهم لم يسمعوا شيئاً .. أما حجرة مسز فيرفاكس وحجرتك
فأقرب الحجرات إلى غرفة السيد ، ولكن مسز فيرفاكس قررت أنها
لم تسمع شيئاً على الإطلاق لأن من يطعنون فى السن يثقل نومهم » .

ثم توقفت قليلاً قبل أن تستطرد ، وهى تتظاهر بعدم المبالاة ، برغم
ما كان فى لهجتها من دلالة ومغزى : « ولكنك شابة يا آنسة ، بل أنت
أخف نوماً ، فلعلك سمعت ضجة ما ؟ » .. فقلت وأنا أخافت من صوتى
حتى لا تقوى على سماعه (لياه) التى كانت ما تزال تصقل ألواح النوافذ
الزجاجية : « لقد سمعت فعلاً .. وظننت فى أول الأمر أنها من بايلوت ،
ولكن بايلوت لا يستطيع الضحك . وأنا واثقة من أننى سمعت ضحكة ..
ضحكة عجيبة ! » .. فتناولت خيطاً جديداً شمعته بعناية ، ثم أدخلته
فى ثقب الإبرة بيد ثابتة ، وقالت برباطة جأش تامة : « ليس من المحتمل
— فيما أعتقد — أن يضحك السيد وهو فى مثل هذا الخطر .. فلا شك
أنك كنت تحلمين يا آنسة ! » .

فقلت بشيء من الانفعال بعد أن أثارتني ببرودها السليط : « بل إنني لم أكن أحلم ! » .. فتطلعت إليّ مرة أخرى بنفس العين المتفحصة الواعية ، ثم سألتني : « هل أخبرت السيد بأنك سمعت ضحكة ؟ » .

— لم أجد فرصة للتحدث إليه في هذا الصباح .

فعادت تسألني : « ألم تفكري في فتح بابك والتطلع إلى الردهة ؟ » .. وبدا أنها تستجوبني وتحاول أن تنتزع أخباري دون أن أفطن . وخطر لي أنها إذا اكتشفت أنني أعرف أو أرتاب في جرمها ، فقد تحاول أن تأتي معي بعض ألاعيبها الخبيثة . لذلك رأيت من الحكمة أن أكون على حذر ، فقلت : « بل على العكس .. أغلقت بابي بالمزلاج ! » .

— إذن فليس من عادتك أن تغلقيه بالمزلاج في كل ليلة قبل أن تأوي إلى فراشك ؟

يا للشيطانة ! .. إنها تود أن تعرف عاداتي لترسم خططها على هذا الأساس ! .. وتغلب الحنق على حكمتي فأجبتها بحدة : « كنت — قبل الآن — كثيراً ما أغفل إغلاقه بالمزلاج ، لأنني لم أكن أجد ضرورة لذلك ولا كنت أعلم بوجود خطر يتهددني أو كنز أخشاه في قصر (ثورنفيلد) .. أما في المستقبل (وضغطت على مخارج الكلمات التالية) فسوف أبذل اهتماماً بالغاً لاتخاذ كل حيطة وضمان قبل أن أجرؤ على الاستلقاء على فراشي ! » .. فكان جوابها : « من الحكمة أن تفعلي ذلك ، فإن منطقتنا هذه هادئة — فيما أعلم — ولم أسمع في حياتي قط أن اللصوص حاولوا السطو على القصر منذ اتخذ سكناً ، برغم ما به — كما هو معروف — من صحاف في صوان الآنية ، تساوي مئات الجنيهات ، وبرغم أن عدد

الخدم هنا قليل جداً بالنسبة إلى قصر كبير كهذا ، نظراً لأن السيد لا يقيم هنا طويلا ، فإذا جاء — وهو أعزب — لم يحتج إلى خدمة كثيرة . ولذلك فإنني أرى دائماً أن من الأفضل اتخاذ الحيطة ، بإرصاد الباب بمجرد ولوج المرء مخدعه ، كما يحسن وضع المزلاج ليحول بين الإنسان وبين أي شر قد يحوم حوله . إن كثيراً من الناس يا آنسة يكلون كل شيء للعناية الإلهية ، ولكني أؤكد لك أن العناية الإلهية لا تمنع من اتخاذ الحيطة ، وأن الله يبارك هذه الوسائل إذا ما استعملت بحذر وفطنة ! » .

وعندئذ انتهت من إلقاء خطبتها .. وكانت خطبة طويلة بالنسبة لصمتها المألوف ، وقد ألقتها برزانة المختالات الدجالات ، بينما ظللت أنا واقفة جد مبهوتة أمام ما بدا لعيني من رباطة جأشها النادرة ، ورياءها العويص ، ثم ما لبثت الطاهية أن دخلت لتقول لها : « إن غداء الخدم يامسز بول سيعدّ على التو ، فهل تتفضلين بالنزول ؟ » .

— كلا .. فقط ضعي شرابي وبعض العصيدة على صينية ، وسوف أحملها إلى الطابق العلوي .

— ألا ترغبين في قليل من اللحم ؟

— قطعة صغيرة منه ، وقطعة من الجبن .. فقط !

— والساغو ؟ (نشاء من جمار النخل) .

— لا داعي له الآن ، سأنزل قبل موعد تناول الشاي وأصنعه بنفسي .

* * *

● وعندئذ التفتت الطاهية نحوي لتخبرني بأن مسز فيرفاكس في انتظاري فانصرفت إذ ذاك . ولكني لم أكد أسمع شيئاً من حديث مسز فيرفاكس

عن حريق الستائر ، لأنى كنت – أثناء تناول الطعام – مستغرقة بكل أفكارى الحائرة فى أطوار (جريس بول) التى بدت لى لغزاً غامضاً ، كما كنت أشد استغراقاً فى محاولة إدراك مركزها فى (ثورنفيلد) ، وفى التساؤل : لماذا لم يلق بها فى غيابة السجن فى ذلك الصباح ، أو – على الأقل – لماذا لم تطرد من خدمة سيدها ؟ .. لقد أعلن فى الليلة الماضية جرمها فيما يشبه الجزم والتأكيد ، فأى سبب خفى منعه من إعلان اتهامه لها ؟ ولماذا طلب منى كذلك أن أخفى الأمر وأكتمه ؟ .. كان من العجيب أن يبدو هذا السيد الجسور المنتقم ، المتعالى ، تحت رحمة خادمة من أحط خدمه بحيث لا يجرؤ – بعد أن رفعت يدها للقضاء عليه – على أن يتهمها علانية ، على الأقل ، بمحاولة اغتياله ، إن لم يسع إلى عقابها على جرمها !.

ولو أن (جريس) كانت شابة وجميلة ، لوجدت ما يحملنى على الظن بأن ثمة عواطف وإحساسات أرق من التبصر والخوف ، هى التى ألانت قلب مستر روشستر نحوها ، أما وهى على ما كانت عليه من دمامة وكهولة ، فإن هذا الظن لم يكن مستساغاً .. ورحت أقول لنفسى : « ولكنها كانت شابة فى يوم من الأيام ، وكان شبابها معاصراً لشباب سيدها – فقد أخبرتنى مسز فيرفاكس أنها تقيم هنا منذ سنوات عديدة – ولا أحسب أنها كانت حسناء ، ولكن لعلها كانت تنعم بأصالة فى الرأى وقوة فى الأخلاق عوضاها عما كان ينقصها من الميزات الشخصية . إن مستر روشستر من هواة الخلق الحازم والأطوار الغريبة . وجريس غريبة الأطوار على الأقل ، فماذا لو أن نزوة من نزواته السابقة – وهى فلتة تجوز جداً بالنسبة لطبيعة رجل مثله على جانب كبير من سرعة

الانفعال وصلابة الرأى – أسلمته إلى رحمتها ، فكنها نتيجة لعدم تبصره من أن تفرض على أعماله سلطة خفية لايقوى على الإفلات منها ، ولايجرؤ على إغفالها ؟! .. ولكن ما إن بلغت هذه النقطة من الحدس والتخمين ، حتى تمثلت لخيالى جريس – أو مسز بول – بقامتها الربعة الخالية من الرونق ، وبوجهها الدميم الجاف .. بل الغليظ ، فقلت لنفسى : « كلا : مستحيل ! إن افتراضى لا يمكن أن يكون صحيحاً .. ومع ذلك – وهنا هتف بى الصوت الخفى الذى ينبعث عادة من قلوبنا – فأنت كذلك لست جميلة ، ومن المحتمل أن مستر روشستر يستلطفك ، أو على أية حال هذا ما طالما أحسست به .. وفى ليلة أمس .. تذكرى كلماته .. تذكرى نظراته .. تذكرى صوته ! » :

وتذكرت كل ذلك بجلاء .. تجددت بوضوح ذكرى لهجته ، ونظرته ، ولغته .. وكنت إذ ذاك فى حجرة الدرس وأديل ترسم ، فملت عليها وأمسكت قلمها الرصاص أوجهه ، فنظرت إلىّ وكأنها روعت ثم قالت بالفرنسية : « ماذا بك يا آنسة ؟ .. إن أصابعك ترتعد كورقة من أوراق الشجر ، ووجنتيك متوردتان .. فى حمرة الكريز ! » .

– إنى أشعر بالحر بسبب اختناقى !

فعادت إلى رسمها ، وعدت إلى تفكيرى : بادرت أقصى من رأسى تلك الفكرة البغيضة التى استبدت بى بشأن جريس .. تلك الفكرة التى جعلتنى أشمئز .. ولقد قارنت نفسى بها فوجدت أننا نقيضان .. ألم تقل بسى ليفن – المربية السابقة بقصر جيتسهيد – حين زارتنى فى (لو وود) إنى سيدة بكل مافى الكلمة من معنى ؟ .. لقد كان ما قالته حقاً ، بل إنى

أصبحت أبدو خيراً مما كنت عندما رأتني بيسي ، إذ ازداد لوني توردا ، وجسمي امتلاء .. وغدوت أكثر حيوية ونشاطاً بعد أن ازدهرت آمالي وتضاعفت أسباب هنائي .

وتطلعت ناحية النافذة وأنا أقول : « إن المساء يقترب وقد انقضى النهار دون أن أسمع صوتاً لمستر روشستر أو وقعاً لقدميه في المنزل ، ولكنني سأراه بكل تأكيد قبل أن يحل الليل ! » .. وبقدر ما كنت أخشى لقاءه في الصباح أخذت أتلهف عليه الآن ، لأن طول الارتقاب أعياني ، حتى غدوت نافدة الصبر لا أقوى على مزيد من الاحتمال .. وعندما أسدل الغسق أستاره بالفعل ، وغادرتني أديل تمضي وتلعب مع مربيتها الفرنسية (صوفي) في غرفة الأطفال ، اشتدت بي اللهفة ، فرحت أترقب رنين الجرس عسى أن يدوي في الطابق الأسفل ، كما رحت أتصنت لعل (لياه) تصعد برسالة لي . وكان يخيل إليّ أحياناً أنني أسمع وقع قدمي مستر روشستر ، فكنت أستدير إلى الباب متوقعة أن يفتح ليدخل السيد عندي .. ولكن الباب ظل مغلقاً ، ولم تدخل سوى الظلمة التي أقبلت خلال النافذة .. بيد أن الوقت لم يكن قد تأخر كثيراً .. فقد اعتاد أن يرسل في طلبي في السابعة أو الثامنة . ولم تكن الساعة قد بلغت السادسة بعد ، ولا شك أن آمالي لن تخيب تماماً في هذه الليلة لأن لدي أشياء كثيرة أريد أن أفضي بها إليه .. لسوف أتناول مرة أخرى موضوع جريس بول لأسمع رده .. سأسأله ببساطة : هل يعتقد حقيقة أنها هي التي أقدمت في الليلة الماضية على تلك المحاولة البغيضة ؟! .. وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا يحتفظ بشرها سراً مكتوماً ؟ .. ولن أحفل إذا أثاره فضولي

وأغضبه ، فقد أصبحت أعرف كيف أغضبه ثم أرضيه ، على التوالي .. بل إنني لأجد في ذلك متعة كبيرة ! ولكن غريزة أمينة كانت تمنعني من التغالي إلى أبعد من حدود الإثارة . وعند هذه النهاية ، كان يلذ لي أن أجرب مهارتي ، وأنا محتفظة بكل آيات الاحترام ، وبكل ما يليق بمركزي ، فأجادله بلا خوف أو انفعال مما يليق بي وبه على السواء .

وأخيراً ، دوى وقع أقدام على السلم ثم ظهرت (لياه) .. على أنها لم تأت إلا لتخبرني بأن الشاي معد في غرفة مسز فيرفاكس ، فتأهبت على الفور مغتبطة بنزولي ، لأن ذلك يقربني — على الأقل وكما توهمت — من مستر روشستر . فلما اجتمعت بالسيدة في حجرتها قالت : « لاشك في أنك بحاجة إلى فنجان من الشاي .. لقد أكلت قليلا جداً في الغداء ، وأخشى ألا تكوني اليوم بصحة جيدة ، لأنني أراك متوهجة الوجه محمومة ! » .

— أوه .. أنا بخير ، بل أحسن حالا من أي وقت مضى .

— إذن وجب أن تبرهني على ذلك بما تبدين من شهوة للطعام .. هل تسمحين بملء وعاء الشاي إلى أن انتزع هذه الإبرة من الخيوط ؟!

وبعد أن أنجزت مهمتها قامت تسدل ستار النافذة ، بعد أن كانت قد رفعته لتنعم فيما أعتقد بأكبر قسط من ضياء النهار ، بعد أن ادلهم الغسق ، واشتدت الظلمة .. وعادت تقول : « الجو معتدل هذا المساء ، ولو أن السماء ليست صافية الأديم ولا تكشف عن نجومها . وعلى كل فلا شك أن مستر روشستر قد نعم بيوم يناسب رحلته » .

— رحلته ؟ هل رحل مستر روشستر إلى مكان ما ؟ .. لم أكن أعرف أنه رحل .

— أوه !.. لقد خرج فور تناوله طعام الإفطار .. ذهب إلى قصر مستر إيشتون فى (لياس) ، على مسافة عشرة أميال من الجانب الآخر لقرية (ميلكوت) . وأغلب الظن أن هناك جماعة ستلتقى هناك : اللورد انجرام ، والسير جورج لين ، والكولونيل دنت ، وغيرهم .

— وهل تتوقعين عودته الليلة ؟

— كلا ، ولا غداً .. بل أظن من المحتمل جداً أن يمكث أسبوعاً أو أكثر ، فإن هؤلاء القوم الظرفاء ، العصريين ، إذا اجتمعوا ، أحاطت بهم الأناقة والرشاقة وأسباب البهجة والانشراح ، وتوفرت لهم من أسباب اللهو والتسلية مالا يجدون معه داعياً إلى سرعة تفرق الشمل . وفى هذه المناسبات — بوجه خاص — يكون الرجال مبتغين ، منشودين ؛ وإن لمستر روشستر فى المجتمعات من مواهبه العديدة وخفة روحه ما يجعله محبوباً لدى الجميع .. إن السيدات يشغفن به ، وإن لم تصدق أن شكله يرشحه لأن يروق فى أنظارهن بالذات .. ولكنى أعتقد أن له من مؤهلاته ومواهبه ، وربما من ثروته وكرم محتده ، مايعوض أى عيب فى مظهره !

— وهل توجد فى (لياس) سيدات ؟

— هناك مسز إيشتون وبناتها الثلاث — سيدات شابات فى غاية من الأناقة فى الحقيقة — كما أن هناك النبيلة بلانش ، والنبيلة مارى انجرام ، وهما من أجمل النساء فيما أعتقد . والواقع أنى شاهدت بلانش منذ ست أو سبع سنوات عندما كانت فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها إذ قدمت لتشهد حفلة راقصة أقامها مستر روشستر فى عيد الميلاد ؛ وياليتك رأيت حجرة الطعام فى ذلك اليوم ، وكيف كانت مزدانة بأغلى

زينة ، ومضاءة بالأنوار المشرقة . كما أعتقد أن الحاضرين بلغوا خمسين من السيدات والسادة ، كلهم من أكبر الأسرات فى المقاطعة . وكانت مس بلانش انجرام أجمل الموجودات فى ذلك المساء !

— تقولين إنك رأيتها يامسز فيرفاكس ، فما شكلها ؟

— نعم رأيتها ، لأن أبواب حجرة الطعام كانت مفتوحة على مصاريعها ، ولمناسبة عيد الميلاد سمح للخدم بأن يجتمعوا فى القاعة ليستمعوا إلى بعض السيدات وهن يغنين ويعزفن . ودعانى مستر روشستر للدخول ، فجلست فى ركن هادئ أراقب وأشاهد ، فلم أر فى حياتى مثل ذلك المشهد الرائع ، وكانت السيدات ترتدين أفخر الثياب .. معظمهن أو الشابات على الأقل .. فتجلى جمالهن ، ولكن مس انجرام كانت ملكتهن بكل تأكيد !

— ماذا كان شكلها ؟

— فارعة القامة ، جميلة الصدر ، منحدرة الكتفين ، ذات نحر طويل رشيق ، ومحيا أسمر صاف فى لون الزيتون ، وقسمات نبيلة ، وعينين كعينى مستر روشستر : سوداوين كبيرتين لهما وميض الجوهرات. هذا إلى شعر جميل حالك السواد ، تفننت فى تسويته وعقصته من الخلف على هيئة تاج من الضفائر ، وأسدلته من الأمام خصلات لم أر فى حياتى ما يفوقها طولا ونعومة واتساقاً .. وكانت ترتدى ثوباً ناصع البياض ، وتضع على كتفها وصدرها وشاحاً بلون الكهرمان ، عقدته على جانب من خصرها وأرخت أهدابه الطويلة المزركشة إلى ما تحت ركبتيها ..

وكذلك كانت تضع فى شعرها زهرة بلون الكهرمان ، تناقض لون جدائلها القاتمة :

— لقد كانت بالطبع موضع إعجاب شديد ؟

— نعم فى الحقيقة، لا لجمالها فحسب، وإنما لمآثرها ومحاسنها الأخرى، فقد كانت واحدة ممن غنين بمصاحبة سيد عزف على البيانو ، كما غنت مع مستر روشستر :

— مستر روشستر ؟ لم أكن أعرف أنه يحسن الغناء !

— أوه .. إن له صوتاً عميقاً جميلا ، وذوقاً موسيقياً مرهفاً .

— ومس انجرام .. كيف ترين صوتها ؟

— صوت غنى وقوى جداً . وكانت تغنى بادية الابتهاج والمرح ، وقد نعمنا بالإصغاء إليها .. ثم عزفت فيما بعد ، ولست ممن يستطيعون الحكم على الموسيقى ، ولكن مستر روشستر يستطيع ذلك وقد سمعته يقول إن أداءها على جانب ملحوظ من المهارة .

— وهذه السيدة الحسناء ذات المواهب .. ألم تتزوج بعد ؟

— لا يبدو ذلك ، فلست أظنها وأختها تملكان ثروة كبيرة ، لأن معظم أملاك اللورد انجرام العجوز كانت موقوفة على وريث معين ، ولذلك استولى ابنه الأكبر على كل شىء تقريباً !

— ولكنى أتساءل : لماذا لم يمل إليها أحد من النبلاء الأثرياء أو السادة .. مستر روشستر مثلا .. إنه غنى ، أليس كذلك ؟

— بلى ، ولكن الفرق بين عمريهما كبير كما ترين ، فإن مستر روشستر فى حوالى الأربعين من عمره بينما هى فى الخامسة والعشرين :

— وماذا فى هذا ؟.. إن كثيراً من الزيجات غير المتعادلة تعقد فى كل يوم .

— هذا صحيح ، ولكنى لا أتصور أن لدى مستر روشستر أية فكرة فى هذا الصدد .. إنك لم تأكلى قط ، بل إنك لم تذوقى شيئاً تقريباً منذ بدأت فى تناول الشاى !

— كلا .. إنى شديدة العطش، بحيث لا أقوى على أكل شىء ما، فهل تسمحين لى بقدح آخر ؟

وكنت أهم بالعودة مرة أخرى إلى احتمال زواج مستر روشستر بـ (بلانش) الحسناء ، لولا أن أديل دخلت إذ ذاك ، فاتخذ الحديث مجرى آخر !.. وعندما خلوت مرة ثانية إلى نفسى ، رحت أستعرض المعلومات التى حصلت عليها ، وجعلت أتطلع إلى قلبى لأسبر غور أفكاره ومشاعره ، وأحاول أن أعيد ما جمح منها فى بيداء الخيال الشاسعة إلى حظيرة العقل والإدراك . وأقمت محكمة من نفسى ، استدعيت إليها الذاكرة شاهدة على الأمانى والرغبات والمشاعر التى خالجتنى منذ ليلة أمس ، وشاهدة على حالتى العقلية العامة التى انغمست فيها منذ أسبوعين تقريباً ، ثم تقدم العقل فروى بطريقته الهادئة قصة واضحة غير منمقة، أظهر فيها كيف رفضت ما هو حقيقى ، والتهمت بسرعة ما هو مثالى خيالى .. ثم نطقت بالحكم التالى :

لم يتنسم نسيم الحياة قط من هو أحق من (جين إير) .. بل ليس ثمة من يبزها بلاهة وتعلقاً بالخيال وهى تتخم نفسها بالأكاذيب المعسولة وتبتلع السم كأنه رحيق الحياة !

وقلت أحدث نفسى : « أأنت ... أثيرة عند مستر روشستر ؟ هل أوتيت القدرة والقوة على مرضاته ؟ هل أنت من الأهمية بمكان عنده ؟ إليك عنى فإن حماقتك تسئمنى ! لقد استقيت السرور والابتهاج من عبارات عابرة تدل على الإيثار .. عبارات ذات معنيين يمليها سيد كريم المحتد ، ورجل خبير بالعالم ، نحو مرءوسة غريرة ؟ كيف تجرئين أيتها الغرة المسكينة الحمقاء ؟.. ألم يقو حبك لذاتك ومصلحتك الخاصة على جعلك أحكم وأعقل من ذلك ؟.. ألم تعيدى لنفسك فى هذا الصباح المشهد القصير الذى وقع فى الليلة الماضية ؟.. ألا غطى وجهك واخجلى !.. لقد قال شيئاً فى امتداح عينيك ، أليس كذلك أيتها الدمية العمياء ؟.. ألا فافتحى جفونهما الذابلة ، وتبيني تفاهتك اللعينة !.. ليس يجدى امرأة أن يغازلها من هو أرفع منها ، ولا يمكن أن يعتزم الزواج منها .. بل إنه لجنون من النساء جميعاً أن يدعن الحب ينفذ فى قلوبهن ، لأنه إذا لم يقابل بمثله ، أو إذا لم يدركه أحد ، فسوف يلتهم الحياة التى تغذيه .. وحتى إذا اكتشف أمر هذا الحب ولقى من يستجيب له ، فلابد من أن يؤدى إلى سراب خادع .. إلى قفار موحلة لا خلاص منها ولا نجاة .

« ألا اصغى إذن يا جين إير إلى الحكم الصادر عليك : غداً ضعى المرآة أمامك ، وارسمى بالطباشير صورتك بكل أمانة ونزاهة دون أن تقللى من شأن أى عيب أو نقص فيك ، ودون أن تحذف أى سطر من سطور التجاعيد الخشنة ، أو تخفى أى شذوذ لا يعجبك ، ثم اكتبى تحتها : (صورة معلمة عديمة الأهل ، عديمة المال ، عديمة الجمال) ..

وخذى بعد ذلك قطعة من العاج الناعم — ولديك قطعة معدة فى صندوق الرسم — ثم اخرجى لوحة الألوان ، وامزجى أحدثها وأجملها وأزهاها واختارى أرق الأقلام المصنوعة من شعر الجمل ، ثم ارسمى أجمل وجه يمكن أن تتصوريه بأخف الظلال ، وأبدع الألوان ، طبقاً للوصف الذى سمعته من مسز فيرفاكس عن بلانش انجرام ؛ ولا تنسى حلقات شعرها الأسود كجناح الغراب أو عينيها الشرقيتين .. ماذا ! إنك ترتدين بخيالك إلى مستر روشستر ، لتتخذى منه نموذجك !.. النظام! لا تدعى أنفك يسيل ، ولا مجال للعواطف أو الأسى ، ولن أحتمل منك سوى التعقل والحزم ! تذكرى الأسارير الجليلة المهيبة ، ولكنها مع ذلك منسجمة متناسقة .. وتذكرى الجيد والنحر الإغريقيين .. ووضحى للعين الذراع الملفوفة التى تبهر الأنظار ، وكذلك اليد البضة الرقيقة . وإياك أن تحذفى الخاتم الماسى ، والسوار الذهب ، وارسمى الثوب بأمانة بما فيه من دنتللا غالية ، ودمقس يأتلق .. وكذا الوشاح الجميل والوردة الذهبية ... ثم سمى ذلك (بلانش .. سيدة مهذبة عريقة الأصل) .. وكلما خيل إليك فى المستقبل أن مستر روشستر يحسن بك الظن ، أخرجى هاتين الصورتين ، وقارنى بينهما ، وقولى: « من المحتمل أن يظفر مستر روشستر بحب هذه السيدة النبيلة إذا هو آثر النضال من أجل هذا الحب، ولكن هل يحتمل أن يعير فكرة جدية لهذه العامية المعدمة الحقيرة ؟ » .

وقلت فى حزم : « سوف أفعل ذلك » .. وإذ وطدت نفسى على ذلك العزم ، هدأت ثم استغرقت فى النوم .

وبررت بوعدى .. وكفتنى ساعة أو اثنتان لكى أرسم صورتى
رسماً تخطيطياً بالقلم . وفى أقل من أسبوعين أتممت صورة مصغرة فى
لون العاج من بلانش انجرام كما تخيلتها ، فبدت بوجهها الجميل الذى
ما أن قارنته برأسى الذى رسمته بالطباشير ، حتى ظهر الفارق شاسعاً
يضطرنى إلى مزيد من ضبط النفس .. ولقد أفدت من هذه المهمة ،
لأنها شغلت رأسى ويدى ، كما عززت وثبتت الانطباعات الجديدة
التى وددت ألا تمحى من قلبى .. وقبل أن ينقضى زمن طويل ، كنت
محقة فى أن أهنئ نفسى على النظام الناجع الذى أرغمت مشاعرى على
الإذعان له ، إذ أننى استطعت بفضله أن أواجه الأحداث التالية بهدوء
يليق بى ، ولولا هذا التأهب لمواجهة الأحداث ، لما أصبحت قادرة
على الاحتفاظ بهدوئى — ولو ظاهرياً — أمامها !

* * *

الفصل السابع عشر

● انقضى أسبوع ولما تصل أنباء جديدة عن مستر روشستر .
واكتملت عشرة أيام دون أن يعود . وقالت مسز فيرفاكس إنها لن
تدهش إذا هو غادر (لياس) فاتجه مباشرة إلى لندن ، ومنها إلى
أوربا ، فلا يرى أحد وجهه فى (ثورنفيلد) قبل مضى عام .. فلقد
طالما غادرها من قبل فى هدوء .. بغتة ، وعلى غير توقع !.. وبدأت
— عندما سمعت هذا منها — أشعر ببرودة عجيبة تتملك قلبى . كنت
أسلم نفسى — فى الواقع — لإحساس بخيبة الأمل، يجعلنى عليلة سقيمة..
بيد أننى سرعان ما تمالكت زمام رشدى ، واستجمعت مبادئى ،

فما لبثت أن هيمنت على مشاعرى ، وتغلبت بقدرة عجيبة على الخطل
الذى كنت أتخبط فيه إذ ذاك ، وأخذت أستبين مدى الخطأ الذى
أوحى إلىّ بأن لحركات مستر روشستر أهمية حيوية بالنسبة لى . ولست
أعنى أننى حقرت من شأن نفسى بالتفكير الذليل فى أننى دونه شأناً
ومكانة ، بل إننى — على العكس — رحت أقول لنفسى : « ليس لك
بسيد (ثورنفيلد) شأن ، فيما عدا أنك تتناولين المرتب الذى يمنحك
إياه فى مقابل تعليم الفتاة التى يكفلها ، فخليق بك أن تحمدى له فضله
إذا هو أولاك المعاملة المحترمة الكريمة التى يجوز لك أن تتوقعيها عندما
تؤدين واجبك .. وثقى أن هذه هى الرابطة الوحيدة التى يجوز قيامها بينك
وبينه ، فلا تتخذيه محوراً لمشاعرك المرهفة ، من اغتباطات ، إلى شجون ،
إلى غير ذلك .. إنه ليس من طبقتك ، فالزمى مقامك ، واحترمى نفسك ،
ولا تغدقى كل مافى قلبك وروحك وقواك من حب مشبوب على شخص
لا ينشده ، وحيث لا يقابل مثل هذا الحب بغير الازدراء ! » .

ومضيت أؤدى عملى اليومى فى هدوء . ولكن أفكاراً مبهمة ظلت
تراود رأسى بين الفينة والأخرى عن أسباب تبرر لى مبارحة (ثورنفيلد).
وظللت — على الرغم منى — أصوغ فى ذهنى إعلانات ، وأؤلف
تكهنات بشأن المراكز الجديدة التى قد أحصل عليها إذا أنا بارحت
مركزى الراهن .. ولم أر داعياً لكبح هذه الأفكار عسى أن تنبت
وتؤتى ما وسعها من ثمرات :

وبعد أن انقضى على غياب مستر روشستر زهاء أسبوعين ، جاء
البريد بخطاب إلى مسز فيرفاكس . فالتفتت ناحيتى وقالت : « إنه من

مستر روشستر ، وأظننا سنعلم الآن ما إذا كانت عودته متوقعة أو غير مرتقبة ! » :

وفيما كانت تفض الخاتم الشمع وتتصفح الخطاب ، استرسلت في تناول قهوتي ، إذ كنا على مائدة الفطور . وكانت القهوة ساخنة ، فعزوت إليها ذلك الوميض المتقد الذي تورد به وجهي فجأة .. أما لماذا ارتجفت يدي ؟ ولماذا انسكب برغمي في الطبق نصف ما كان في الفنجان ؟ فأمور لم أشأ أن أفكر فيها .

وقالت مسز فيرفاكس وهي ما زالت تمسك بالخطاب أمام منظارها : « حسن .. إنني أفكر أحياناً في أننا نعيش في سكون مفرط ، ولكن ها هي الفرصة قد سنحت للانهماك في العمل ، لفترة وجيزة على الأقل ! » .. وقبل أن أسمح لنفسي بأن أسألها إيضاحاً ، ربطت شريطاً في مرولة أديل صادف أن انفك ، كما قدمت لها قطعة من الفطائر ، ثم أعدت ملء كوبها باللبن .. وأخيراً قلت في غير اكتراث : « أظن من غير المحتمل أن يعود مستر روشستر في القريب العاجل ؟ » .

— بل إنه سيعود بكل تأكيد .. بعد ثلاثة أيام كما يقول ؛ أي في يوم الخميس القادم . ولن يكون بمفرده ، وإن كنت لا أدري كم من سادة (ليس) سيأتون معه ، فقد أرسل يوصي بإعداد خير حجرات النوم ، وبتنظيف المكتبة وحجرات الاستقبال . وسوف أستعين بفندق جورج — في ميلكوت — وبأي مكان آخر ، على تزويد المطبخ بالأيدي العاملة .. فضلاً عن أن السيدات سيصطحبن وصيفاتهن ، وسيأتي السادة بخدمهم ، ومن ثم فسوف يمتلئ البيت !

ثم التهمت مسز فيرفاكس فطورها ، وهرعت لتبدأ في القيام بواجباتها . ولقد ازدحمت الأيام الثلاثة بالعمل كما توقعت ، وكنت أحسب أن جميع حجرات (ثورنفيلد) نظيفة ومرتبة أحسن ترتيب ، ولكنني تبينت أنني كنت مخطئة مما دعا إلى الاستعانة بثلاث نسوة ؛ ولم أر في حياتي من قبل أو منذ ذلك الحين ما شاهدته من كنس ومسح ومن غسل الأبواب والنوافذ ، ونفض الأبسطة ، وإزال الصور ثم إعادتها إلى أماكنها ، وصقل المرايا والثريات ، وإشعال النار في مدفآت المخادع ، وتهوية أغطية الأسرة وحشياتها . وكانت أديل تتواثب بين هذا كله ، وكأنما استخفها الطرب لمشاهدة الاستعدادات التي كانت تتخذ لاستقبال الجماعة ، والأمل المرتقب في وصولهم . وكانت تدعو صوفي للعناية بزينتها وملابسها وإعداد ما كان بحاجة منها إلى الكي ، وتهوية الجديد منها ، ثم ترتيبها !.. ولم يكن لها من شاغل سوى أن تحوم في الحجرات الأمامية ، وتثب فوق الأسرة ، وتستلق على الحشيات والوسائد المتراكمة أمام المدفآت التي كانت النار تتلظى فيها وتئز خلال مداخنها . أما الواجبات الدراسية ، فقد أعفيت أديل منها ، لأن مسز فيرفاكس حملتني على معاونتها ، فكنت أقضي النهار في مخزن الأطعمة ، أعاونها والطاهية ، أو بالأحرى أعوقهما !.. وتعلمت كيف أصنع حلوى (الكسترد) ، والكعك المحشو بالجبن ، والفطائر الفرنسية ، وكيف أنظف الطيور من ريشها ، وأزين صحاف الحلوى :

* * *

● وكان من المرتقب أن تصل الجماعة بعد ظهر يوم الخميس ، وأن يعد العشاء فى الساعة السادسة . ولم يعد لدى — فى تلك الفترة — وقت للاستغراق فى أفكارى الواهمة ، بل أعتقد أننى كنت كغيرى ، بادية النشاط والاغتباط . على أننى كنت أصاب — بين فترة وأخرى — بصدمة يفتر معها سرورى ، فأجدنى قد انتقلت على الرغم منى إلى عالم من الشكوك والهواجس والتخمينات الكئيبة .. وذلك عندما كانت عيناى تقعان مصادفة على الباب القائم على السلم المفضى إلى الطابق الثالث. وكان قد ظل مغلقاً بصفة مستمرة فى الفترة الأخيرة . وكنت أراه من حين لآخر يفتح ببطء ، ثم تتفلت خلاله جريس بول بقلنسوتها النظيفة ومريلتها البيضاء ، ووشاحها الناصع .. وكنت أطير سروراً عندما كنت أراها تنساب إلى خارج الباب ، وتتسلل فى الردهة بخطاها الهادئة المكتومة — وهى تنتعل خفيها الرقيقين — وعندما كنت أشاهدها تتطلع إلى مخادع النوم المليئة بالهرج والمرج ، ثم تلقى لإحدى الخادمات ، من اللائى استؤجرن مؤقتاً ، بنصيحة عن خير وسيلة لصقل المدفأة ، أو تنظيف رفها الرخامى ، أو إزالة البقع عن الجدران المكسوة بالورق ثم تهبط إلى المطبخ — وكان من عادتها أن تذهب إليه مرة فى اليوم — فتتناول غداءها ، أو تدخن غليوناً ، ثم لا تلبث أن ترجع — حاملة عشاءها — إلى صومعتها .. إلى الحجرة المعتمة التى أفردت لها فى الطابق العلوى . ولم تكن تقضى مع زميلاتها سوى ساعة واحدة من كل يوم، أما بقية وقتها ، فكانت تقضيه فى إحدى الحجرات المنخفضة السقف، والمبنية بخشب البلوط ، فى الطابق الثالث ، حيث تجلس منهمكة فى

الحياكة ، دون ما أنيس أو رفيق ، وكأنها سجينة فى (زنزانة) !

وكان أغرب الأمور كلها ، أن أحداً من أهل القصر لم يكن يرقبها أو يعجب لعاداتها ، أو يتحرى عن مركزها وعملها ، أو يرثى لوحدتها وعزلتها ، سواى .. وإن كنت قد تسمعت مرة إلى جزء من حديث دار بين (لياه) وإحدى الأجيرات ، وكانت (جريس) محوره .. وكانت لياه قد قالت شيئاً لم أسمعه ، فأجابتها الخادمة : « ولعلها تحصل على أجر طيب ؟ » .. فقالت لياه : « نعم . ليتنى أتناول مثل أجرها . لا أعنى بذلك أننى أتذمر من ضآلة أجرى ، « إذ لا بخل ولا تقتير فى ثورنفيلد» ولكنه لا يعدل خمس ما تتناوله جريس ، وهى خاملة بلا عمل سوى أن تذهب إلى المصرف فى (ميلكوت) كل ثلاثة شهور ، فلا عجب إذا ادخرت ما يكفى لأن تعول نفسها لو أنها شاءت أن ترحل !.. بيد أنها — فيما أعتقد — قد ألفت الحياة فى القصر ، كما أنها لم تتجاوز بعد الأربعين من عمرها ، وما زالت قوية قادرة على أى شىء ، فلم يؤن بعد أن تعتزل العمل » .

فقالت الخادمة : « أظنها تجيد العمل ؟ » .. فقالت لياه بلهجة لها مغزاها : « آه .. إنها تفهم ما يجب عليها عمله . وليس كل إنسان يستطيع ملء مكانها ، ولو أعطى الأجر الذى تتناوله ! » .

— ليس الأمر كذلك ! إننى لأتساءل هل السيد ..؟

وكانت تهم بالاسترسال فى حديثها ، لولا أن حانت من (لياه) التفاتة فشاهدتنى .. وإذ ذاك وكزت رفيقتها بمرفقها .. وسمعت المرأة تهمس : « أهى لا تدرى ؟ » .. فهزت لياه رأسها ، وانقطع الحديث

بطبيعة الحال ، وكل ما أدركته هو أنه يوجد فى (ثورنفيلد) سر وأننى أقصى عمداً عن الإلمام بهذا السر .

* * *

● وقدم يوم الخميس .. وكان كل شيء قد أعد تماماً فى الليلة السابقة .. فازدانت الأسرّة بستائر وشيت بالزهور ، وبأغطية مشرقة ناصعة البياض ، وبمناضد للزينة منسقة ، وأثاث مصقول ، وزهور انتظمت فى أوان .. وبدت الحجرات والقاعات فى أبهى ما يمكن أن تصنعه أيدى البشر .. كما كان البهو لامعاً ، وقد صقلت الساعة الكبيرة ودرجات السلم وسياجه ، حتى بدت برّاقة كالزجاج .. وفى حجرة المائدة ، كان الصوان يأتلق بما ضم من صحاف ، بينما انتثرت فى قاعة الاستقبال ومخدع النوم الرئيسى أوان حفلت بأينع الزهور .

وإذ حان الأصيل ، ارتدت مسز فيرفاكس ثوباً من (الساتان) الأسود — كان خير ما لديها من ثياب — وقفازاً ، وساعة من الذهب . فقد كان منوطاً بها أن تستقبل السيدات وترافقهن إلى الحجرات المعدة لهن ، وغير ذلك . أما أديل ، فلم تكن أمامها — كما اعتقدت — فرصة لاستقبال المدعوين فى ذلك اليوم ، فأمرت مربيتها بأن تلبسها ثوباً قصيراً من الحرير ، إرضاء لها .. وأما أنا ، فلم تكن بى حاجة إلى تغيير ملابسى ، لأننى لن أدعى لمغادرة حجرة الدراسة التى غدت « ملاذاً أرتاح إليه فى أويقات الضيق » !

وكان اليوم من أيام الربيع الصافية ، المعتدلة ، التى تكثر فى أواخر مارس وأوائل أبريل ، فتفيض على الأرض بهاء وكأنها تبشر بوفود

الصيف . وبدأ النهار يعتكر ، ولكن المساء كان حاراً ، فجلست فى غرفة الدراسة أشتغل ، وقد تركت النافذة مفتوحة .. ودخلت مسز فيرفاكس ترفل فى ثوبها ثم قالت : « لقد تأخر الوقت ، ولكنى سعيدة لأننى أمرت بإعداد الطعام بعد الموعد الذى ذكره مستر روشستر بساعة .. فهاهى ذى الساعة قد بلغت السادسة ولم يحضروا . وقد أرسلت جون ليراقب الطريق ، إذ لا سبيل إلى التطلع إلى مسافة بعيدة فى اتجاه ميلكوت » .. ثم مضت إلى النافذة وقالت : « هاهو ذا ! » . وأطلت من النافذة تسأل : « هل من أنباء يا جون ؟ » .. فكان جوابه : « إنهم قادمون يا سيدتى ، وسيصلون بعد عشر دقائق ! » .

وجرت أديل إلى النافذة ، فتبعتها متوخية أن أقف جانباً خلف الستائر ، بحيث أستطيع أن أرى دون أن يرانى أحد .. وبدت الدقائق العشر التى ذكرها (جون) طويلة جداً ، ولكننى سمعت أخيراً جلبة العجلات ، ثم تقدم أربعة فرسان تتبعهم عربتان مفتوحتان تمتلئان بأوشحة ترفرف وريش يتماوج .. وكان بين الفرسان سيدان فى زهرة الشباب ، تتجلى عليهما الجرأة والجسارة ، بينما كان الثالث مستر روشستر نفسه ، على جواده الأسود — الذى كان يسميه (مسرور) — وقد أخذ (بايلوت) يتواثب أمامه .. وإلى جانبه كانت تركب سيدة ، على جواد آخر .. وكان الاثنان فى طليعة الجماعة ... وكانت بزة ركوب السيدة طويلة ، تكاد تكنس الأرض ، بينما راح وشاحها الشفاف يتلاعب مع النسيم ، ويختلط بجدائل شعرها الفاحم . وصاحت مسز فيرفاكس : « مس انجرام ! » .

وهرولت هابطة إلى حيث كان ينبغي أن تقف، وما لبث الركب أن استدار حول أحد أركان القصر، ثم اختفى عن الأنظار. وتوسلت أديل إذ ذاك أن أدعها تنزل بدورها، ولكنني أخذتها على ركبتي، وأقنعتها بأن من الواجب ألا تظهر أمام السيدات، سواء الآن أو فيما بعد، إلا إذا أرسل في طلبها، حتى لا يغضب مستر روشستر. وكان من الطبيعي أن تذرف بعض الدموع عندما أبلغتها ذلك، ولكن ما إن أظهرت لها منتهى الحزم، حتى رضيت أخيراً بتجفيف دموعها.

ودوت في البهو أصوات الابتهاج.. خليطاً متناسقاً من أصوات الرجال العميقة، ونبرات السيدات التي تشبه رنين الأجراس الفضية، يعلوها صوت سيد (ثورنفيلد) الرنان وهو يحيي ضيفاته الحسناوات وضيوفه الظرفاء النازلين تحت سقفه. ثم سمعت خطوات خفيفة على الدرج، أعقبها وقع أقدام في الردهة، وضحكات ناعمة رقيقة، وضجيج فتح الأبواب وإغلاقها.. وما لبث السكون أن ران لحظة، فقالت أديل التي كانت تتابع كل حركة بانتباه: «إنهن يغيرن ملابسهن!».. ثم تنهدت وقالت بالفرنسية: «عندما كانت ماما تستضيف في بيتها أناساً، كنت أتبعها أينما ذهبت، سواء في الصالون أو في مخادعهن. وكثيراً ما كنت أتفرج على النساء وهن يسرحن شعورهن أو يرتدين ملابسهن.. كان ذلك شائقاً جداً.. وبهذه الطريقة يتعلم الإنسان!».

— ألا تشعرين بجوع يا أديل؟

— نعم يا آنسة، فقد مضى علينا أكثر من خمس أو ست ساعات دون أن نأكل شيئاً.

— حسناً.. الآن والسيدات في غرفهن، سأجترئ على النزول لآتيك بشيء تأكلينه.

وغادرت (مأواي) في حذر، فهبطت سلماً خلفياً إلى المطبخ، الذي وجدته زاخراً بالخدم الذين جاءوا برفقة أسيادهم.. ولكني تمكنت من الحصول على ما أريد من طعام ثم عدت مسرعة.. على أنني ما كدت أبلغ الردهة، حتى سمعت طنيناً نبهني إلى أن السيدات يوشكن على مغادرة حجراتهن.. ولم يكن في وسعي أن أتقدم نحو حجرة الدراسة، دون أن أمر ببعض تلك الأبواب. ولكي أتفادى أن أفاجأ بما كنت أحمل من أطعمة، تسمرت في مكاني الذي كان مظلماً — في العادة — لخلوه من النوافذ، وقد اشتدت ظلمته إذ ذاك لغروب الشمس وتجمع الغسق.

وسرعان ما أخرجت الحجرات ساكناتها الجميلات: الواحدة تلو الأخرى، وقد ارتدت كل منهن ثوباً قشيباً يلتمع في الأصيل: ووقفن لحظة في طرف الردهة من الناحية الأخرى، فتحدثن قليلاً، ثم هبطن الدرج في سكون، وبلا ضوضاء، وكأنهن سحابة مؤتلقة تنحدر من فوق أحد التلال.. ولقد ترك هذا المنظر الجماعي في نفسي أثراً لأناقة علية القوم لم أعهده من قبل.. ووجدت أديل تسترق النظر من فرجة باب حجرة الدراسة، بعد أن تركته موارباً، ثم صاحت بالإنجليزية: «أوه. بودي لو أذهب إليهن.. أتظنين أن مستر روشستر سوف يرسل في طلبنا بمجرد انتهاء العشاء؟».

— كلا.. الواقع أنني لا أظن ذلك، فإن لدى مستر روشستر

أموراً أخرى تشغل تفكيره . دعى السيدات وشأنهن الليلة ، فلعلك تشاهدينهن غداً .. هاك طعام العشاء .

وكانت فى الواقع جوعانة ، ومن ثم شغل لحم الدجاج والفطائر تفكيرها فترة . ولقد أحسنت صنعاً حين أحضرت هذا الطعام ، وإلا لتعرضت أنا والفتاة وصوفى – التى أعطيتها قسطاً – لحرمان من العشاء ، إذ كان كل إنسان فى الطابق الأسفل مشغولا عنا ، وقد استغرق العشاء وقتاً طويلا ، فلم تقدم الحلوى إلا بعد أن جاوزت الساعة التاسعة ، ثم أخذ الخدم يهرولون بصينيات القهوة . وظلت أديل ساهرة إلى مابعد موعد نومها ، إذ صارحتنى بأن النوم لن يواتيها طالما ظلت الأبواب – فى الطابق الأرضى – تفتح وتغلق ، والناس فى هرج ومرج .. هذا إلى أنها كانت تخشى أن تأتى دعوة من مستر روشستر بعد أن تكون قد خلعت ثيابها ، وعندئذ «أية خسارة تكون !» .. لهذا انصرفت إلى تسليتها بالقصص ، حتى زهدت فى الإصغاء فصحبتها إلى الردهة .. وكان البهو – فى الطابق الأرضى – مضاء ، فوجدت الفتاة تسلية فى مشاهدة الخدم وهم يروحون ويغدون ، حتى إذا انقضى شطر كبير من الليل ، انبعثت من حجرة الاستقبال موسيقى من البيانو الذى نقل إليها ؛ فجلست وأديل على رأس الدرج نصغى . وسرعان ما ارتفع مع صوت البيانو صوت غنى النبرات .. صوت سيدة كانت تغنى بأعذب الألحان . ثم شاركها فى الغناء رجل ، فلما انتهى ذلك الثنائى تعالت الضحكات والمحادثات . ولكننى وقد أرهفت السمع طويلا ، اكتشفت فجأة أن أذنى أخذتا تحللان الأصوات التى اختلطت وامتزجت ، وتحاولان

تمييز صوت مستر روشستر خلالها : وعلى الرغم من أننى وفقت إلى ذلك ، فإننى وجدت أمامى مهمة أخرى ، هى محاولة استيعاب ماكان يقول !

ودقت الساعة الحادية عشرة . فتطلعت إلى أديل التى كانت تتكئ إلى كتفى ، فإذا بعينيها مغلقتان بالنوم ، فحملتها إلى فراشها . أما السادة والسيدات ، فلم يأووا إلى حجراتهم إلا فى نحو الساعة الواحدة صباحاً !

وكان اليوم التالى فى جمال سابقه .. كرسته الجماعة لرحلة إلى مكان قريب . فانطلقوا قبيل الظهر ، بعضهم على ظهور الجياد ، والبعض الآخر فى العربات . وشهدت الذهاب والإياب ، فوجدت أن مس انجرام ظلت – كما كانت من قبل – قبلة الأنظار .. وكان مستر روشستر يسير بجانبها على جواده – كما كان يفعل عند قدومهما – على مبعدة من الآخرين . وأبديت تلك الملحوظة إلى مسز فيرفاكس – التى كانت واقفة معى خلف النافذة – قائلة : «لقد قلت إنه ليس محتملا أن يفكرا فى الزواج . ولكن انظرى كيف يبدو واضحاً أن مستر روشستر يفضلها على غيرها من السيدات !» .. فأجابت : «نعم .. إنى أجرؤ الآن على القول بأنه معجب بها دون شك !» .

– وهى معجبة به .. انظرى كيف تميل برأسها نحوه ، وكأنها تهمس إليه بسر خاص .. كم أود أن أرى وجهها ، فإننى لم ألمحه حتى الآن !

– سوف تشاهدينها هذا المساء ، فقد ألمحت إلى مستر روشستر بأن أديل تهفو إلى أن يقدمها للسيدات . فقال «أوه . دعيها تدخل إلى حجرة

الاستقبال بعد العشاء ، واطلبي إلى مس إير أن ترافقها ؟..

— نعم .. قال ذلك تأدباً منه فقط .. ولا حاجة بي إلى الذهاب .

— لقد أخبرته بأنك لم تعودى الاختلاط بالناس ، وأننى لا أظنك ترتاحين للظهور أمام جماعة مرحة — أكثرها من الغرباء — ولكنه أجاب بلهجته السريعة : « هراء .. إذا عارضت فأخبريها بأن هذه رغبتى الخاصة ، فإذا أصرت على الاعتراض فقولى لها إننى سأذهب وأجىء بها .. فى حالة عدم الامتثال ! » .

— سأغنيه عن هذا العناء . سأذهب إذا كان لا مهرب أمامى ، ولكنى سأفعل ذلك كارهة .. هل ستكونين هناك يامسز فيرفاكس ؟

— كلا ، فقد توسلت إليه أن يعفينى ، فقبل توسلاتى : والآن سأخبرك كيف تتفادين الاضطراب الذى يلازم المرء حين يلج مكاناً يضطر فيه إلى تكلف الرسميات ، فإن الدخول هو أبغض ما فى المهمة : ينبغى أن تذهبى إلى غرفة الاستقبال وهى خالية — قبل أن تغادر السيدات حجرة المائدة — واختارى لك ركناً هادئاً ، اتخذى فيه مقعدك ، ولاحاجة تدعوك إلى البقاء طويلا بعد دخول السادة ، إلا إذا راق لك ذلك :. فقط دعى مستر روشستر يراك هناك ، ثم تسللى دون أن يراك أحد !

— هل تعتقدين أن أولئك القوم سيمكثون طويلا ؟

— ربما أسبوعين أو ثلاثة .. لا أكثر ، لأن السير جورج لين الذى انتخب أخيراً عن مقاطعة (ميلكوت) سيضطر إلى السفر إلى (لندن) بعد عيد الفصح ليتبوأ مقعده ، كما أعتقد أن مستر روشستر

سوف يرافقه ؛ وإنه ليدهشنى أن طالت إقامته فى (ثورنفيلد) حتى الآن ؛

● ● ●

● ورحت أرقب — بشىء من الارتياع والفزع — اقتراب موعد الذهاب إلى حجرة الاستقبال ، ومعى أمانتى (أديل) التى استخفها الفرح طوال اليوم ، بعد أن سمعت بأنها سوف تقدم فى المساء للمدعوات ولم تهدأ لها ثائرة إلا عندما تولت صوفى إلباسها ثيابها ، ثم سكنت سكوناً تاماً عندما بدأت عملية تسوية جدائل شعرها ، فبدت فى رزانة القاضى !.. ولم تكن بى حاجة بعد أن ارتدت ثيابها إلى أن أنبهها إلى المحافظة على هندامها ، إذ جلست فى مقعدها الصغير رصينة ، بعد أن رفعت أهداب ثوبها ، حتى لا تتسخ ، ثم وعدتنى بألا تتحرك من مكانها حتى أستعد بدورى .. وسرعان ما فعلت ذلك ، بأن ارتديت أفخر ثوب لدى — وهو الذى اشتريته لى مس تمبل فى يوم زفافها ، وقد ظل محتفظاً بجدته — ولم ألبث كذلك أن سويت شعرى ، وازينت بحليتى الوحيدة : الدبوس اللؤلؤى ، ثم هبطنا الدرج ؛

ولحسن الحظ ، كان لغرفة الاستقبال مدخل آخر غير المدخل المفضى إليها من حجرة المائدة ، فوجدناها خالية ، والنيران تشتعل فى مدفأتها ، والشموع تضىء جنباتها ؛ وكانت أديل ما تزال تحت تأثير التهيب الذى استبد بها ، فجلست صامتة لا تنبس بحرف ، على المقعد الصغير الذى أرشدتها إليه ، ثم جلست أنا بجانب قاعدة إحدى النوافذ ، وتناولت كتاباً حاولت أن أقرأ فيه .. وجاءت أديل بمقعدها عند قدمى ،

وسرعان ما لمست ركبتى فسألتها : « ماذا بك يا أديل ؟ » .

— هل أستطيع اقتطاف زهرة واحدة من هذه الزهور الفاخرة يا آنسة لأتمم بها زينتى ؟

— إنك تبالغين فى التفكير فى زينتك يا أديل ، ولكن فى وسعك أن تأخذى زهرة ؛

ثم تناولت بيدى زهرة من إحدى الزهريات ، ثبتها فى وشاحها ، فتنهدت الصعداء ، وكأنما كأس سعادتها قد أترعت ؛ وعندئذ أدرت وجهى لأخفى ابتسامة لم أقو على كبتها ؛ إذ كان فى اهتمام الباريسية الصغيرة البالغ بثيابها ما يدعو إلى الضحك بقدر ما كان يدعو إلى الألم .. وما لبثت أن ارتفعت الأصوات الخافتة ، عندما تحركت الستارة التى تفصل بين الغرفتين ، فظهرت حجرة المائدة وقد انسكبت من ثرياها الأضواء على طاقم محلوى من الفضة والزجاج يشغل مائدة مستطيلة . وكانت بعض السيدات يقفن عند المدخل ، فما أن دخلن قاعة الجلوس حتى انسدلت الستار خلفهن ؛ ولم تكن السيدات يزدن على ثمان ولكنى خلتهن أكثر ، عندما تزاحمن على الدخول . وكانت بعضهن ممشوقات ، وأكثرهن يرتدين ثياباً بيضاء ، فلما دخلن وقفت أحيين فى دماثة ، فردت واحدة أو اثنتان منهن تحيتى بإحناء الرأس ، بينما حملقت فى وجهى الباقيات . ثم انتثرن فى الحجرة ، يذكرننى بخطوهن الرشيق بسرب من الطيور البيضاء ؛ واضطجع بعضهن فوق الأرائك والمتكآت ، والتف البعض الآخر حول المنضدة ، وانحنين على الزهريات ، ثم أحطن بالموقد وهن يتحدثن بأصوات خافتة ولكنها واضحة النبرات ،



وجاءت (أديل) بمقعدها عند قدمى ، وسرعان ما لمست ركبتى ، فسألتها : ماذا بك يا أديل ؟

مما أوحى لى بأنها عادة فيهن .. ولم أعرف أسماءهن إلا فيما بعد ، ولكن فى وسعى أن أذكرها الآن : فأولا ، كانت هناك مسز إيشتون وابنتاها .. وكانت السيدة ذات حسن وجمال فى صباها — ولا ريب — وقد ظلت محتفظة بهما . أما ابنتاها ، فكانت كبراهما — وهى آمى — صغيرة الجسم ، متوثبة الحركات ، تبدو كالطفلة فى وجهها وتصرفاتها ، فى حين كانت الثانية — لويزا — أطول قامة ، وأكثر أناقة ، ذات وجه غاية فى الجمال .. أى كانت الشقيقتان فى بهاء الزنبق .

أما الليدى لين ، فكانت شخصية قوية ، بدينة ، فى حوالى الأربعين من عمرها ، منتصبة القامة ، بادية الكبرياء ، ترتدى ثياباً غالية ، ويلتمع شعرها القاتم تحت ريشة أزوردية اللون ، وبين طوق من المجوهرات .. وكانت مسز كولونيل دنت أقل أبهة فى المظهر ولكنها كانت فى صفاء النهار : ذات قامة ناحلة ، ووجه ممتقع رقيق ، وشعر جميل : وكانت فى ثوبها الأسود الساتان ووشاحها الدنتلا تعجبنى أكثر من السيدة السابقة التى كانت تسبح فى قوس قزح من الأضواء :

أما الثلاث الممتازات — ولعل الفضل الأول فى ذلك راجع إلى طولهن المفرط — فكن الليدى انجرام — أرملة اللورد انجرام — وابنتيها بلانش ومارى .. كن ثلاثتهن من أشمخ الموجودات قامة .: وكانت الأرملة فيما بين الأربعين والخمسين من عمرها ، تحتفظ بجمال قدها ، وقد ظل شعرها فاحم السواد ، كما بدا تحت ضياء الثريا على الأقل ، وكذلك ظلت أسنانها كاملة : وكان معظم الناس يعتبرونها من أجمل السيدات بالنسبة لسنها ، ولكن هيئتها وأساريرها كانت تنم عن كبرياء

لا يحتمل ، وكانت تقاطيع وجهها رومانية ، بينما كانت عيناها تومضان بالقسوة والعنف مما ذكرنى بعينى مسز (ريد) .. أرملة خالى ! .: وكانت ابنتاها — بلانش ومارى — متعادلتين فى تكوين البنية ، وإن كانت مارى أرفع جسماً بالنسبة إلى طولها ، بينما كانت بلانش ممتلئة أشبه بديانا (ربة الصيد) ! .. ولقد أخذت — بطبيعة الحال — أوليها اهتماماً خاصاً ، أولا لكى أرى إلى أى مدى كانت تتفق مع ما وصفتها به مسز فيرفاكس ، وثانياً لأرى كم كانت تشبه الصورة المصغرة التى رسمتها لها ، وثالثاً — وهو الأهم — لكى أرى إلى أى مدى كانت تتفق فى رأيى مع ذوق مستر روشستر . وأخيراً تبينت أنها تتفق فى كل شىء مع الصورة التى رسمتها ، والأوصاف التى عددتها مسز فيرفاكس : رأس نبيل ، وكتفان منحدرتان ، ونحر جميل ، وعينان سوداوان تحيط بهما هالات سوداء .. أما وجهها فكان يشبه وجه والدتها تماماً ، ويزيد عنه شباباً ، كما كان لها نفس الجبين المنخفض والقسمات المتعالية ، ونفس الكبرياء ، ولكنها كانت تضحك باستمرار .. وإن كانت ضحكتها تضج بالتهكم والسخرية ، تماماً كذلك التعبير الذى كان يرتسم على شفتيها المقوسة فى زهو وعجرفة .

ويقال إن العبقرية هى الاعتداد بالنفس .. وإذا لم أستطع أن أقول إن بلانش كانت عبقرية ، فلست أنكر أنها كانت شديدة الاعتداد بنفسها : فقد خاضت فى الكلام عن علم النبات مع مسز دنت . ويبدو أن هذه لم تكن قد درست هذا العلم ، وإن قالت إنها تحب الزهور ولا سيما البرية منها .. أما مس انجرام — بلانش — فكانت على إلمام تام بهذا العلم ، فأخذت

تكشف عن معلوماتها فى زهو وافتخار ، ثم لاحظت أنها إنما كانت تعبث بالسيدة وتتلاعب بجهلها !.. وإن دل هذا على شىء من المهارة ، إلا أنه ليس دليلا على طيبة النفس . وكانت تعزف بمهارة ، وتغنى بصوت رخيم ، وتتحدث الفرنسية بطلاقة . أما (مارى) ، فكانت أرق وألطف من بلانش ، كما كانت أكثر إشراقاً ، وأدق قسمات ، وقد أوتيت بشرة أنصع من بشرة أختها التى كانت فى سمرة الأسبانيات .. وإنما كان ينقص مارى الشعور بنشوة الحياة .. كان وجهها يفتقر إلى التعبير وإن كانت عيناها تلتمعان ، ولم يكن لديها ما تقوله ، ولذلك جلست فى مقعدها مخلدة إلى الصمت ، مسمرة فى مكانها ، أشبه بتمثال فى محرابه.. وكانت الشقيقتان ترتديان أنصع الثياب .

أفكان لى بعد ذلك أن أعتقد أن بلانش انجرام من النوع الذى يحتمل أن يقع عليه اختيار مستر روشستر ؟.. لم أستطع أن أجزم بذلك لأننى لم أكن أعلم بذوقه فى دنيا الجمال النسوى ، ولو أنه كان يميل إلى العظمة لوجد فيها النموذج للعظمة ، فضلا عن أنها كانت مهذبة وعلى جانب كبير من الرشاقة . ولذلك أعتقد أن معظم السادة كانوا يعجبون بها ، وأنه هو بالذات كان معجباً بها فعلا . وبدا لى أننى عثرت على الدليل ، ولكى أبدد آخر سحائب الشك ، تريثت لأشاهدهما معاً .

ولا تحسب – أيها القارىء – أن أديل ظلت طوال الوقت جالسة لا تتحرك ولا تريم فى مقعدها عند قدمى . كلا .. فإنها عندما دخلت السيدات ، نهضت ثم تقدمت للقائهن بوقار واحترام ثم قالت لهن فى رزانة : « يوم سعيد ياسيداتى ! » .. فنظرت إليها مس انجرام ساخرة

وصاحت : « أوه .. يالها من دمية صغيرة ! » .. وقالت الليدى انجرام : « أظنها الفتاة التى يتولى مستر روشستر الوصاية عليها .. الفتاة الفرنسية الصغيرة التى كان يتحدث عنها » .. أما مسز دنت فقد تناولت يدها فى رفق وطبعت عليها قبلة ، بينما صاحت آمى ولويزا إيشتون فى صوت واحد : « يالها من طفلة جميلة ! » .. ثم دعتاها إلى أريكة جلست عليها ، وكادت تختفى بينهما ، ثم راحت تتحدث تارة بالفرنسية ، وتارة أخرى بانجليزية ركيكة . ولم تسترع الصغيرة انتباه الشابات وحدهن ، بل اجتذبت انتباه مسز إيشتون والليدى لين ، ونعمت بتدليل الجميع .

* * *

● وأخيراً ، جىء بالقهوة ودعى السادة للدخول . وظللت جالسة فى ظل الستارة التى كادت تحجبنى عن العيون .. ودخل الرجال بعد أن أزيحت الستارة التى كانت تفصل بين الحجرتين جانباً للمرة الثانية ..، وكان دخولهم الجماعى كدخول السيدات فى روعته : كانوا جميعاً يرتدون الملابس السوداء ، ومعظمهم طوال القامة ، وبعضهم فى زهرة الشباب ؛ والواقع أن هنرى وفردريك لين كانا شعلة من نار ، بينما كان الكولونيل دنت رجلا عسكرياً جميلا . أما مستر إيشتون – قاضى المقاطعة – فكان سيداً فى مظهره ، ناصع الشعر ، بينما كانت حاجباه وسوالفه تحتفظ بسوادها ، مما جعله يبدو كالوالد النبيل الذى يظهر على المسرح .. فى حين كان اللورد انجرام الصغير كشقيقتيه فى طول القامة وجمال المحيا ، وإن كان يشاطر مارى نظرتها الفاترة ، سواء فى

العاطفة أو الهمة : ويبدو أنه كان ينعم بطول الأطراف أكثر مما كان ينعم بنشاط الدم ونشاط الذهن :

وأين مستر روشستر ؟.. إنه لم يلبث أن أقبل فى النهاية .. ولم أكن أنظر إلى القبو – الذى يفصل بين حجرتى المائدة والاستقبال – ولكنى مع ذلك رأيته يدخل ، وسرعان ما حاولت أن أركز انتباهى فى تلك الإبر التى كنت أجدل بها كيسى الشبكى ، وألا أشغل تفكيرى بغير العمل الذى كان بين يدى ، وأن أقصر نظراتى على الخرز الفضى والخيوط الحريرية التى كانت فى حجرى .. على أننى رأيت شخصه بغريزتى ؛ فلم أجد مناصاً من تذكر اللحظة التى شاهدته فيها آخر مرة – عقب أن أديت له ما اعتبره خدمة جليلة – فأمسك بيدى ، ثم جعل يتأمل وجهى بعينين تكشفان عن قلب مترع ، يتلهف على الإفضاء بعواطف لى فيها نصيب .. ما كان أقربنى إليه فى تلك اللحظة ! .. فماذا حدث بعد ذلك وغير موقفه بالنسبة لى ؟ لكم غدونا – رغم ذلك – متباعدين غريبين إلى حد لم أكن أتوقع معه أن يجىء ويحدثنى ، ولذلك لم أعجب عندما اتخذ لنفسه مقعداً فى الجانب الآخر من الحجرة ، ثم مضى يتحدث مع بعض السيدات ، دون أن يلتفت نحوى .. وما أن وجدت أن انتباهه قد تركز عليهن ، وأن فى وسعى أن أرنو إليه دون أن يلحظنى ، حتى تحولت عيناى بالرغم منى إلى وجهه دون أن أقوى على السيطرة على جفونهما التى كانت ترتفع لتحدق مقلتاى فيه . ورحت أشخص إليه ، وأستشعر فى التطلع إليه سروراً شديداً .: سروراً غالياً ولكنه حاد أليم .. غالياً كالذهب الإبريز ، ولكن له طرفاً كالصلب يحز ويبعث على الألم ..

سروراً كالذى يشعر به رجل أوشك أن يقضى عليه الظمأ ، فلما عثر على بئر واستطاع أن يزحف إليها ، وجدها مسممة ، ولكنه مع ذلك لم يتوان فى الانحناء عليها ، لينهل من مائها وكأنه جرعات قدسية مباركة !

ما أصدق القائل بأن الجمال فى عين الرائى : كان وجه سيدى الشاحب الزيتونى اللون ، وجبينه الضخم ، وحاجباه البارزان الفاحمان ، وعيناه العميقتان ، وأساريره القوية ، وفمه الحازم المتجهم .. كانت كل هذه الملامح تنم عن النشاط والعزم والحزم ، ولكنها لم تكن تكن جميلة حسب قواعد الجمال ! :. بيد أنها كانت عندى أكثر من جميلة .. كانت زاخرة بمعان وسلطان ملكا على كل نفسى واستلبا مشاعرى فأسلماها إليه ليقيدها ، ويفرض عليها سطوته .. إننى لم أكن أود أن أحبه ، وإن القارئ ليعلم كم جاهدت لأنتزع من نفسى ما عثرت عليه من بذور الحب .. ولكن هذه البذور بعثت من جديد – عندما رأيته لأول مرة بعد فراقنا – ونمت وترعرعت واستوت على سوقها .. كان يحملنى على حبه دون أن ينظر إلى !

ورحت أقارنه بضيوفه ، فاستصغرت شأن ما أوتيه آل (لين) من رشاقة وكياسة ، وما كان عليه اللورد انجرام من أناقة يشوبها تمم :؛ بل ماقيمة وجاهة الكولونيل دنت العسكرية ، بجانب ما كان يتبدى على مستر روشستر من روح ذاتية طبيعية وقوة خالصة غير مجلوبة ؟!:؛ لم أشعر بميل أو انعطاف نحو مظهرهم وأساليبهم ، وإن خيل إلى أن معظم من يرونهم لا يملكون سوى أن يصفوهم بالجاذبية ، بينما يصمون مستر

روشستر على التوّ بلمامة الخلقة واكتئاب المنظر !.: ورأيت السادة يبتسمون ويضحكون فلم يجتذبني شيء من هذا ، بل خيل إليّ أن لضوء الشموع روحاً تبزّ ما في ابتسامهم ، وإن في رنين الجرس مغزى يفوق ما في ضحكهم .. ورأيت مستر روشستر يبتسم ، فإذا بأساريره الكالحة تلين ، وإذا بعينيه تزدادان إشراقاً ورقة ، وإذا بأشعتهما حلوة نافذة !.: وكان في تلك اللحظة يتحدث إلى لويزا وآمي إيشتون ، فعجبت لهما إذ كانتا تصمدان محتفظتين بهدوئهما أمام تلك النظرة التي بدت لي جد نفاذة .: كنت أتوقع أن ترخيا عيونهما وأن تتضرج وجناتهما ! .: على أنني اغتبطت لعدم تأثرهما بأية حال ، وقلت في نفسي : « إنه ليس بالنسبة لهما كما هو بالنسبة لي . إنه ليس على شاكلتهما ولكنه — فيما أعتقد — على شاكلتي .. بل أنا واثقة أنه كذلك ، حتى ليخيل إليّ أنه من أقاربي ، لأنني أفهم لغة وجهه وحركاته .: ولئن باعدت بيننا المراتب والثروة كل التباعد ، فإن في ذهني وقلبي ودمي وأعصابي ما يربطني عقلياً به !.: فهل كان حقاً أنني قلت منذ أيام قلائل أن لا شأن لي به سوى أنني أتناول مرتبي من يديه ؟ ألم أحرم على نفسي التفكير فيه إلا على ضوء أنه صراف المرتب ؟.. ياله من تجديف في حق الطبيعة !.. لقد أحببته بكل شعور طيب خالص قوي ، بدافع من نفسي ، ولكن يجب أن أخنق عواطفي وأن أخنق أملي وأن أتذكر أنه لا يستطيع أن يحفل بي كثيراً ! وإذا قلت إنني على شاكلته فليس معنى هذا أنني أوتيت من القوة ما يؤثر فيه كما يؤثر هو فيّ ، أو أنني أوتيت سحره الجذاب ، وإنما أعني فقط أنني أشاركه في بعض الأذواق والأحاسيس ، والملك يجب — وأكرر

ذلك دائماً — أن نظل بعيدين منفصلين إلى الأبد ، ورغم ذلك .. فلا بد لي من أن أحبه ما ظل بي نفس يتردد ورأس يفكر .

وقدمت القهوة .. وكانت الحيوية قد شاعت في قلوب السيدات ، فغدون كالقنابر — بعد دخول الرجال — واستحالت الأحاديث رشيقة طروبة . وراح الكولونيل دنت ومستر إيشتون يتجادلان في أمور السياسة ، في حين مضت زوجتاهما تصغيان ، بينما أخذت الأرملتان النبيلتان — ليدي لين وليدي انجرام — تتسامران معاً . أما السير جورج — الذي نسيت أن أصفه — فكان سيداً ضخم البناء ريفي الهيئة بادي النشاط ، وكان واقفاً أمام أريكتيهما وقدح القهوة في يده ، وهو يفوه بكلمة بين الفينة والأخرى . وكان مستر فردريك قد اتخذ له مقعداً بجانب ماري انجرام ليطلعها على نقوش مجلد فاخر ، وهي ترنو وتبتسم من حين إلى آخر دون أن تكثر من الكلام على ما يظهر . بينما اتكأ اللورد انجرام الفارع ، الفاتر ، بذراعيه المعقودتين على ظهر المقعد الذي جلست فيه إيمي إيشتون الصغيرة الحسناء ، التي كانت ترفع إليه عينيها وتتحدث معه وكأنها عصفور صغير — فقد كانت تحبه أكثر مما تحب مستر روشستر ! — على حين جلس هنري لين على متكأ عند قدمي لويزا ، تشاركه أديل التي راح يحاول أن يكلمها بالفرنسية بينما كانت لويزا **تضحك من أخطائه .**

فمع من كانت بلانش انجرام تسمر إذن ؟.. كانت واقفة بمفردها أمام المنضدة ، وقد انحنت في رشاقة على (ألبوم) للصور وكأنها تنتظر أن يسعى إليها أحد ، ولكنها لم تنتظر طويلاً ، بل اختارت بنفسها زميلا

لها .. إذ كان مستر روشستر قد غادر لويزا وإيمى إشتون ووقف بمفرده أمام المنضدة من الناحية الأخرى ، فتقدمت بلانش ووقفت بجانب المدفأة ، ثم قالت : « كنت أظنك غير مغرم بالأطفال يامستر روشستر ؟ ».

– لست مغرماً بهم :

– إذن ما الذى أغراك على أن تتعهد دمية صغيرة كهذه ؟ (ثم أشارت إلى أديل واستطردت تقول) : من أين التقطتها ؟

– لم ألتقطها ولكنها تركت بين يدى .

– كان يجب أن ترسلها إلى المدرسة .

– لم يكن ذلك فى وسعى ، لأن نفقات المدارس باهظة .

– ولكنك فيما أعتقد جئتها بمعلمة ، فقد شاهدت شخصاً معها منذ قليل .. أتراها خرجت ؟ .. آه ، كلا .. ها هى ذى ما تزال خلف ستارة النافذة .. إنك تستأجرها بالطبع .. وأعتقد أنهما تكلفاك الكثير .. بل الكثير جداً ، لأنك تؤويهما الاثنين !

وقد خفت – بل بالأحرى تمنيت – أن تدفعه تلك الإشارة من السيدة إلى أن يحول نظره ناحيتى . ووجدتنى – على رغمى – أزداد انكماشاً فى الظلال ، ولكنه لم يلفت عينيه ، بل قال فى غير اكتراث وهو يتطلع أمامه مباشرة : « لم أفكر فى الموضوع بعد ! » :

– كلا .. إنكم يا معشر الرجال لا تهتمون بالاقتصاد والتدبير . ويجدر أن تسمع رأى (ماما) فى المعلمات ، فقد تولى تعليمى وتعليم مارى – فيما أعتقد – لا يقل عن اثنتى عشرة معلمة فى صغرنا ، فكان نصفهن كريهات بغيضات ، والنصف الآخر سخيفات ، وكلهن هراء .. أليس كذلك ياماما ؟

– هل تكلميننى يا روحى ؟

وأوضحت الشابة لأمها الموضوع فقالت : « لا تذكرى ياعزيزتى المعلمات ، فإن مجرد ذكرهن يثير أعصابى . لقد قاسيت من قصورهن وشذوذ طباعهن ما لم يقاسه الشهداء . وأنا أشكر السماء التى خلصتنى الآن منهن ! » .

وانحنت مسز دنت على السيدة (الطيبة !) ، وهمست شيئاً فى أذنها . وتبينت من الرد أنها كانت تنبهها إلى وجود واحدة من هذا الجنس اللعين ، إذ قالت الميدى : « فليكن ! .. ولعلها تفيد من ذلك ! » .. ثم استطردت بصوت خافت ولكنه ما زال عالياً بحيث أسمعه :

– لقد لاحظتها ، وأنا ماهرة فى علم الفراسة وأرى فيها كل عيوب طائفتها ! » .. فسألها مستر روشستر بصوت عال : « وما هى هذه العيوب يا سيدتى ؟ » ، فأجابت وهى تهز قلنسوتها ثلاث هزات وكأنها تنذره بخطورة ما لديها : « سأهمس بها فى أذنك ! » .

– ولكن حب الاستطلاع سوف يفتر أمام شهوتى للطعام ، فإن نفسى تهفو الآن للعشاء(١) .

– سل بلانش فإنها أقرب إليك منى !

– لا تحيليه علىّ ياماما ! .. ليس لدى غير كلمة واحدة عن تلك

---

(١) يتناول علية القوم فى بعض المجتمعات وجبتين فى المساء ، أولاهما فى بداية السهرة ، والثانية عندما يكتهل المساء قليلا .

الفصيلة كلها : إنهن أذى ! ولا أعنى أننى قاسيت منهن كثيراً ، لأننى كنت أعكس عليهن الأمر ، فكم دبرت مع (تيودور) مكائد ضد معلماتنا مس ويلسن ومسز جريز ومدام جوبير ... أما مارى فكانت أكسل من أن تشترك فى مكائدنا بتحمس . وكان أبدع مزاحنا مع مدام جوبير ، أما مس ويلسن فكانت مخلوقة مسكينة ، بدينة ، مريعة البكاء ، كسيرة الخاطر ، وقصارى القول أنها لم تكن أهلا لأن نتجشم عناء محاولة التغلب عليها . بينما كانت مسز جريز فظة عديمة الإحساس .. لا تتأثر بأية لطمة ، ولكن مدام جوبير كانت مسكينة ، ومازلت أذكرها وهى هائجة مائجة عندما أخرجناها عن طورها فأرقنا شاينا وفتتنا خبزنا وزبدنا ، ثم طوحت بكتبنا إلى السقف ، وأثارت شوشرة بالمسطرة والدرج وحاجز الموقد وأسياخ النار .. أتذكر يا تيودور تلك الأيام المرحة ؟

فأجابها اللورد انجرام متشدقاً : « نعم . أذكرها بكل تأكيد . وكانت (العصا) المسكينة العجوز — كما كنا نسمى مدرستنا النحيلة — تصرخ : « يا لكم من أطفال أشقياء ! » .. وعندئذ كنا نعظها ألا تحاول تعليم صغار أذكياء مثلنا ، مادامت هى نفسها جاهلة ! » .

— كنا نفعل ذلك حقاً . وهل تعلم يا تيودور أننى كنت أساعدك على تعليب واضطهاد معلمك الممتقع الوجه مستر فاينتج الذى أباح لنفسه أن يتبادل الحب مع مس ويلسن ، وقد رأيتهما يتبادلان النظرات والتنهدات ثم انفضح أمرهما ، فطردتهما ماما لسوء سلوكهما !.. أليس كذلك يا والدتى الليدى ؟

— بلا شك وقد أحسنت صنعاً . واعلمى أن هناك ألف سبب يدعو إلى عدم احتمال أية علاقة بين المعلمين والمعلمات فى منزل تراعى فيه النظم . وأول هذه الأسباب ...

— أوه يا أمى الحسناء . وفرى علينا عناء تعداد هذه الأسباب فكلنا نعرفها : خطر القدوة السيئة للأطفال الأبرياء ، وتشتيت الأفكار ، وما ينجم عن ذلك من إهمال الواجب ، وما يلازم ذلك من قحة وعصيان وتهريج عام .. هل أنا مصيبة يا بارونة انجرام ؟

— أنت يازنبقتى مصيبة الآن .. وعلى الدوام !

— إذن فلا حاجة إلى مزيد من القول ولنغير الموضوع .

ولكن إيمى لم تسمع هذه الإشارة أو لم تكترث بها فقالت بصوت ناعم كصوت الأطفال : « لقد اعتدت ولويزا أن نتهكم على معلمتنا كذلك ، ولكنها كانت مخلوقة طيبة ، تحتمل كل شىء ولا يثيرها شىء فلم تغضب منا قط . أليس كذلك يالويزا ؟ » .

— بلى يا إيمى .. كنا نفعل ما يروق لنا : نسطو على درجها وصندوق أشغالها ، ونقلب محتويات كل الأدراج ، ولكنها كانت طيبة القلب ، لا تبخل ولا تضن علينا بكل ما كنا نطلبه .

وقالت مس انجرام وهى تلوى شفتيها فى سخرية وتهكم : « أظننا الآن قد أخذنا فكرة موجزة عن جميع المعلمات الموجودات ، ولكى نتفادى أى جزاء ، أرى أن نتحول إلى موضوع آخر ، فهل تقرنى على هذا الرأى يا مستر روشستر ؟

— أنا أؤيدك يا سيدتى فى هذا الرأى كما أؤيدك فى غيره .

— إذن سآخذ على عاتقي فتح الموضوع الآخر ؟ هل تميل الليلة للغناء ؟

— إذا أمرت يا دونا بيانكا !!

— إن إرادتنا الملكية تقضي بأن تهيء رئتيك وغيرها من أعضائك الصوتية ياسنيور لتكون في خدمة جلالتي !

— من ذا الذي لايود أن يغني بمصاحبة عازفة قدسية مثلك !

فصاحت بلانش :

« لست أحفل بالمغني .. إنني أعتقد أن عازف الكمان (دافيد) شخص موهوب ولابد ، على أنني أحب بوثويل الأسود ، ففي رأيي أن لا قيمة للرجل مالم يبث فيه الشيطان بعض القلقل !.. وليقل التاريخ ما يقول عن جيمس هيبورن – مثلا – فإني أراه عين البطل المتوحش ، القاسي ، قاطع الطريق ، الذي لا أتردد في أن أقبله زوجاً ! » .. فصاح روشستر : « أتسمعون ياسادة ؟.. من منكم إذن يشبه بوثويل ؟ » . فأجاب الكولونيل دنت : « أظن الاختيار قد وقع عليك بالذات ! » .

— أشكرك كثيراً .

* * *

● وفي بهاء وجلال ، جلست مس إنجرام إلى البيانو ، ونشرت ثوبها الناصع الفضفاض حولها كأنها ملكة ، ثم أخذت توقع مقدمة رائعة ، وهي تتحدث في الوقت نفسه !. وكانت – في تلك الليلة – تبدو شديدة الاعتداد وترى من وراء كلماتها وحركاتها إلى أن تثير المستمعين ، لا أن تثير إعجابهم فحسب !.. كان جلياً أنها تعمد إلى التظاهر بالإقدام

والجرأة في الرأي ، لتذهلهم . فقد صاحت وهي ما تزال تعزف على البيانو : « أوه . لقد سئمت شبان اليوم !!. إنهم مخلوقات مسكينة .. لا يصلحون لأن يخطو الواحد منهم خطوة واحدة ، أبعد من حديقة (بابا) ، ولا حتى أن يبلغ باب هذه الحديقة إلا بإذن من (ماما) وتحت رعايتها !.. إنهم مخلوقات تافهة !.. يستغرقهم الاهتمام بوجوههم الجميلة ، وأيديهم البضة ، وأقدامهم الصغيرة ، كما لو كان للرجل شأن بالجمال !.. وكأنما الرشاقة ليست امتيازاً مقصوراً على المرأة ، وحقاً مشروعاً من حقوقها ، وميراثاً موقوفاً عليها !.. إنني أعتبر المرأة الدميمة وصمة في جبين الخليقة الجميل .. أما الرجال فيجب ألا يشغل خواطرهم سوى أن يكونوا أقوياء وشجعان ، وليكن شعارهم : « الصيد والقنص والقتال » ! أما ماعدا ذلك فلا يساوي قلامة ظفر . هذا هو نهجي لو أنني كنت رجلا ! » .. وتوقفت عن حديثها لحظة ، لم يقاطعها فيها أحد : ثم استرسلت تقول : « إنني مصممة على ألا يكون زوجي – إذا ما تزوجت – منافساً لي ، وإنما يجب أن يكون سيفاً مشحوذاً ، فلست أطيق أن يزاحمني على عرشي ، ولا أن يقسم عواطفه بيني وبين الصورة التي تطالعه في المرآة . والآن ، غنّ يا روشستر ، وسأعزف لك » :: فكان جوابه : « كل طاعة ! » :

— ها هي أغنية قرصانية ، ولتعلم أنني مشغولة بالقراصنة .

— إن أوامر تلقيها شفتا مس إنجرام كفيلة بأن تبعث روحاً وحياة في وعاء من اللبن والماء .

— حذار إذن من ألا يروق لى غناؤك فأخجلك بأن أريك كيف تغنى هذه الأغنية !

— إنما هذا إغراء بالعجز ، ولذلك سأحاول ألا أوفق !

— اجعل بالك إلى أنك لو أخطأت عامداً متعمداً ، فسوف أبتكر عقوبة مناسبة !

— على مس إنجرام أن تكون حليمة ، لأن فى وسعها أن تتوقع عقوبة لا يحتملها بشر .

— ها .. أوضح .. فسر !

— معذرة يا آنسة .. لا حاجة إلى شرح ، إذ ينبغى على إحساسك المرهف أن يخبرك بأن تقطيبة واحدة ، تغنى عن عقوبة الإعدام .

فصاحت : « غنّ ! » .. ثم لمست البيانو مرة أخرى ، وراحت تصاحبه وهو يغنى بإيقاع زاخر بالحياة .. وقلت فى نفسى : « حان أن أتسلل إلى الخارج ! » .. ولكن الصوت الذى تخلل اللحن سمرنى فى مكانى. لقد أخبرتنى مسز فيرفاكس أن مستر روشستر عذب الصوت ، والواقع أنه غنى بصوت رخيم قوى عميق ، ألقى فيه شعوره وقوته فنفذا من الأذن إلى القلب ، حيث أيقظا الأحاسيس بصورة عجيبة .. وانتظرت حتى انتهت آخر النبرات العميقة الزاخرة ، وعاد الحديث يتدفق من جديد بعد أن كان قد توقف لحظات . وعندئذ بارحت الركن الذى كنت ألوذ به ، وخرجت من الباب الجانبى الذى كان لحسن الحظ على مقربة منى ، ثم أفضى بى ممر ضيق إلى البهو . وفيما كنت أجتازه تبين لى أن صندلى مفكوك ، فتوقفت لأربطه ، وركعت من

أجل ذلك على بساط عند أول الدرج . وسمعت باب قاعة المائدة يفتح ، ليخرج منه أحد السادة . وعندما نهضت على عجل ، وجدتنى وجهاً لوجه معه .. مع مستر روشستر ، الذى سألنى : « كيف حالك ؟ » .

— بخير يا سيدى .

— لماذا لم تأتى وتحدثينى فى قاعة الاستقبال ؟

وفكرت فى أن ألقى عليه نفس السؤال ، ولكنى لم أشأ أن أمنح نفسى تلك الحرية فأجبت : « لم أشأ أن أضايقك ، لأنك كنت مشغولا يا سيدى » .

— ماذا كنت تفعلين أثناء غيابى ؟

— لاشىء بالذات .. كنت أعلم أديل كالمعتاد .

— وكنت تزدادين شحوباً عما كنت عندما رأيتك لأول مرة !.. ماذا جرى ؟

— لاشىء مطلقاً ياسيدى .

— هل أصابك برد فى تلك الليلة ، عندما كدت تغرقيننى ؟

— كلا إطلاقاً .

— عودى إلى قاعة الاستقبال ، فإنك غادرتها مبكرة جداً .

— أنا متعبة ياسيدى .

فتأملنى لحظة ثم قال : « ومكتئبة هوناً ما .. لماذا ؟ أخبرينى ! » .

— لاشىء .. لاشىء ياسيدى . لست مكتئبة .

— ولكنى أؤكد لك أنك كذلك .. مكتئبة جداً بحيث تكفى بضع كلمات أخرى لأن تملأ عينيك بالدموع .. بل إنها تملؤها الآن فى الواقع ،

وتلمع فيهما وتسيح ، وهاهي ذي دمعة تسلك خلال الأهداب وسقطت على الأرض . ولو كان لدى متسع من الوقت ولا أخشى أن يمر بنا خادم ثرثار ، غرّ ، لعرفت ماذا يعنى كل هذا ! .. حسناً ، سألتمس لك العذر الليلة ، ولكن اعلمى أن عليك أن تظهرى بحجرة الاستقبال كل مساء . هذه رغبتى فلا تهمليها . والآن اذهبى وأرسلى صوفى إلى أديل . طابت ليلتك يا ...

ثم توقف عن الكلام ، وعض شفته وغادرنى فجأة !

* * *

الفصل الثامن عشر

● كانت هذه الأيام فى قصر (ثورنفيلد) مرحة طروباً ، بقدر ما كانت زاخرة بالعمل والنشاط .. وكم كانت تختلف كل الاختلاف عن الشهور الثلاثة الأولى التى قضيتها تحت سقف ذلك القصر فى سكون وتواتر رتيب ممل ، وعزلة موحشة . وخيل إلىّ أن جميع المشاعر الحزينة قد أقصيت بإقصاء عن القصر ، وأن كل الإحساسات الكئيبة قد انجابت وتنوسيت ، لتحل محلها الحياة النابضة فى كل مكان ، ولتشيع الحركة طوال كل يوم .. ولم يعد فى وسعك الآن أن تجتاز الردهة التى كانت فيما مضى ساكنة هادئة ، أو تدخل الحجرات الأمامية ، التى كانت يوماً ما خالية من الناس ، دون أن تلق وصيفة رشيقة لإحدى السيدات ، أو وصيفاً غندوراً لأحد السادة .. وكذلك كان المطبخ ومخزن الساقى وقاعة الخدم والبهو الأمامى ، كلها زاخرة بالحياة . ولم تكن غرفات الاستقبال لتخلو وتهجع إلا عندما ينطلق سكانها إلى الخلاء بدعوة من

السماء الزرقاء والشمس الهادئة فى ذلك الربيع البهيج ؛ وحتى عندما كان الطقس يعتكر ، وعندما كانت السماء تمطر أياماً بلا انقطاع ، لم تكن أية رطوبة تقوى على أن تصد المدعوين عن الاستمتاع بإقامتهم ، إذ سرعان ما كانت تتضاعف ضروب التسلية المنزلية وحدها وتتباين ، بسبب توقف أسباب اللهو فى الخارج ؛

ولقد تساءلت عما كانوا موشكين أن يفعلوا فى أول مساء رؤى فيه تغيير ما اعتادوا من أسباب التسلية ، فإذا بهم يتحدثون عن التلهو بالألغاز والأحاجى . غير أنى لجهلى لم أفهم ما كانوا يقصدون .. وسرعان ما استدعى الخدم ، ونقلت موائد حجرة الطعام ، ونظمت الأنوار تنظيماً جديداً ، ووضعت المقاعد على هيئة نصف دائرة فى مواجهة القبو الذى كان يفصل بين الحجرتين .. وبينما كان مستر روشستر وسائر السادة يشرفون على هذه التغييرات ، هرعت السيدات يذرعن الدرج صاعدات نازلات ، وهن ينادين وصيفاتهن ، كما استدعيت مسز فيرفاكس لتدلى بمعلوماتها عما فى القصر من أوشحة وملابس وأقمشة من كل نوع ، وفتحت صوانين (خزانات) خاصة فى الطابق الثالث ، ثم أخرجت محتوياتها من (جونيلات) موشاة مستديرة كالأطواق ، وأزياء سوداء وغلالات حريرية ، وثياب ذات أهداب مزركشة بالدانتلا .. إلى غير ذلك من أشياء أرسلت إلى الطابق الأرضى مع الخادمات ، فاختيرت منها مجموعة أرسلت إلى مقصورة تتصل بحجرة الاستقبال .. فى تلك الأثناء ، عاد مستر روشستر يستدعى السيدات ليلتففن حوله ، وشرع يختار من بينهن عدداً تتألف منه فرقته ، وهو

يقول : « ستكون مس انجرام من زمرتى بطبيعة الحال ! » .. ثم اختار أخريات هن آمى إشتون وشقيقتها لويزا ومسز دنت ، وبعد ذلك التفت إلىّ – وكنت بالمصادفة قريبة منه أثبت لمسز دنت مشبك سوارها الذى كان قد انفك – فسألنى : « هل تلعبين ؟ » .. وهززت رأسى رافضة ، فلم يلح . وكنت أخشى أن يفعل ، ولكنه تركنى أعود فى هدوء إلى مقعدى المعتاد ، ثم انسحب مع زميلاته خلف الستار ، بينما جلست الزمرة التى يرأسها الكولونيل دنت على المقاعد التى صفت على شكل هلال . ولمحنى مستر إشتون ، فاقترح – على ما بدا – اشتراكى معهم ، ولكن الليدى انجرام رفضت الاقتراح على الفور ، إذ سمعتها تقول : « كلا .. إنها تبدو من الغباء بحيث لا تستطيع الاشتراك فى لعب من أى نوع » .

وقبل أن تنقضى فترة طويلة ، دق الجرس وارتفعت الستار . ومن خلال القبو ، شوهد السير جورج لين – الذى كان مستر روشستر قد اختاره ضمن فريقه – وقد التف بملاءة بيضاء ، وانفتح أمامه على إحدى المناضد كتاب ضخم ، ووقفت بجانبه آمى إشتون تتدثر بعباءة مستر روشستر ، وتمسك فى يدها كتاباً آخر .. وقرع الجرس فى مرح شخص لم نره ، وإذا بالصغيرة أديل – وقد أصرت على أن تكون من فريق الوصى عليها – تثب إلى الأمام ، فتنثر حولها الزهور من سلة كانت تحملها على ذراعها ، ثم ظهرت مس انجرام بقامتها البديعة ، وقد ارتدت حلة بيضاء واتشح رأسها بوشاح طويل والتف حول جبينها إكليل من الورود ، وإلى جانبها كان يسير مستر روشستر ، ثم اقتربا معاً وركعا

أمام المنضدة ، بينما اتخذت مسز دنت ولويزا إشتون مكانيهما خلفهما ، وقد ارتدتا ملابس بيضاء . وتلا ذلك احتفال صامت كان من السهل أن تتبين فيه حفلة زواج ما أن انتهت حتى تشاور الكولونيل مع أفراد زمرته متهامسين ثم صاح الكولونيل : (عروس !) .. وإذ ذاك انحنى مستر روشستر ، وهبطت الستار ، إذ عرف فريق المخمنين الكلمة التى أريد بالمنظر أن يرمز إليها !

* * *

● وانقضت فترة غير وجيزة ، قبل أن ترتفع الستار مرة أخرى . وكشف ارتفاعها فى هذه المرة عن منظر أكثر تنسيقاً من سابقه ، إذ لاحظت أن حجرة الاستقبال قد رفعت درجتين عن مستوى غرفة الطعام ووضع على قمة الدرجة العليا حوض كبير من الرخام عرفت فيه أحد الأحواض التى تزين البيت الزجاجى فى الحديقة ، ولابد أنهم تكبدوا عناء فى نقله ، لكبر حجمه وثقله !.. وبجانب هذا الحوض ، شوهد مستر روشستر جالساً على البساط ، وقد ارتدى أوشحة ، ووضع على رأسه عمامة ! .. وكانت عيناه الحالكتان ولونه الأسمر وأساريره الشرقية ، تلائم ثيابه كل الملاءمة ، فبدا نموذجاً رائعاً لأمير شرقى . وسرعان ما ظهرت مس انجرام وقد ارتدت بدورها ثوباً شرقياً ولفت حول خصرها وشاحاً قرمزى اللون وعقدت حول رأسها منديلا موشى ورفعت إحدى ذراعيها البضتين تسند بها جرة وضعتها برشاقة على رأسها ، فكانت أشبه بأميرة يهودية فى العهود القديمة ، بقوامها ومعارف

وجهها ولون بشرتها وشكلها العام .. وكان ذلك هو الدور الذى تود بلا ريب أن تمثله .

واقتربت من الحوض وانحنت عليه وكأنها تتأهب لتملأ جرتها ، ثم رفعت رأسها مرة أخرى ، فتظاهر الجالس إذ ذاك على حافة البئر بأنه يخاطبها ويلتمس منها شيئاً ، فبادرت تنزل جرتها على يدها وتقدمها له ليشرب ، وعندئذ أخرج من صدر ثوبه علبة فتحها وانتزع منها أساور وقرطين ، فتظاهرت بالدهش والإعجاب ، ثم ركعت فوضع الحلى الغالية عند قدميها ، وثبت الأساور حول ذراعيها ، والقرطين فى أذنيها .. تماماً كالمشهد الذى ورد فى قصة (عازر) و (رفقه) — فى التوراة — لا تنقصه سوى الإبل !

ومرة أخرى تلاصقت رؤوس ثلة المتكهنين .. وكان جلياً أنهم لم يتفقوا على الكلمة أو العبارة التى يصورها ذلك المشهد ، وأخيراً تساءل الكولونيل دنت : « لوحة الكل ؟ » ، وإذ ذاك نزلت الستار مرة أخرى .. وعندما ارتفعت لثالث مرة لم يظهر من غرفة الاستقبال سوى جزء منها ، وحجبت الباقى ستار من قماش داكن خشن .. وكان الحوض قد نقل لتوضع فى مكانه منضدة من خشب أبيض ومقعد من مقاعد المطبخ ، يكشفهما للأنظار نور خافت ينبعث من مصباح ذى غطاء من (الباغة) ، بعد أن أطفئت جميع الشموع . ووسط هذا المنظر المتواضع ، جلس رجل وقد اتكأ على ركبتيه بيدين مقبوضتين ، مطرقاً إلى الأرض ، فعرفت فيه مستر روشستر على الرغم من وجهه الملوث وملابسه المشعثة — إذ كان معطفه يتدلى عند إحدى ذراعيه كما لو كان قد تمزق ظهره فى عراك —

وعلى الرغم من أساريره اليائسة المتجهمة ، وشعره الكث المنفوش ، مما كاد يمحى معالمه .. وفيما كان يتحرك سمعنا صليل سلسلة تكبل قدميه ومعصميه . وصاح الكولونيل : « إصلاحية ! » .. وبهذا انحل اللغز .

ثم انقضت فترة كافية لأن يستعيد الممثلون ثيابهم العادية ورجعوا إلى حجرة الطعام ، ودخل مستر روشستر يقود مس انجرام التى كانت تطرى براعته فى التمثيل قائلة : « أتعلم أننى لم أحبك بقدر ما أحببتك فى شخصيتك الثالثة ؟ .. أى قاطع طريق شهم مغوار كان يحتمل أن تصبح لو أنك كنت فى سن تصغر عن سنك ببضع سنوات ؟ » .

فسألها وهو يحول وجهه نحوها : « هل زال كل السناج عن وجهى ؟ » .

— نعم للأسف . فمما يرثى له أن لا شىء يتناسب مع أديم وجهك مثل هذا الطلاء الذى ينم عن إجرام !

— إذن فأنت تتمنين بطلا يكون من قطاع الطرق ؟

— إن بطلا إنجليزياً من قطاع الطرق يلى فى الأهمية عندى قاطع طريق إيطالى ، ولا يبزهما سوى قرصان من الشرق .

— حسناً . مهما أكن فلا تنسى أننى زوجك ، بعد أن عقد قراننا منذ ساعة أمام جميع هؤلاء الشهود !

فقهقهت عالياً وقد تضرجت وجنتاها . واسترسل مستر روشستر يقول : « والآن جاء دورك يادنت ! » .. وما أن انسحبت الثلة الأخرى حتى احتل روشستر وفرقته الأماكن الشاغرة . فجلست مس انجرام على يمين زعيمها ، بينما ملأ المتكهنون الآخرون سائر المقاعد على جانبيهما. ولم أعد إذ ذاك أرقب الممثلين ، ولا عدت أنتظر رفع الستار فى لهفة

وشوق ، وإنما استأثر المتفرجون بكل انتباهي .. وأخذت عيناي تنجذبان على الرغم مني – ودون أن أملك مقاومة – نحو المقاعد المصطفة في نصف الدائرة ، بعد أن كانتا عالقتين بالقبو الذي يفصل بين القاعتين .. بل إنني لم أعد أفقه أي مشهد كان الكولونيل وفريقه يمثلونه ، ولا أية كلمة وقع عليها اختيارهم ، ولا كيف انطلقوا بعد ذلك .. ولكني مازلت أسمع المشاورة التي كانت تعقب كل مشهد ، وأرى مستر روشستر وهو يستدير إلى مس انجرام ، وأراها وهي تستدير له ، كما شاهدتها وهي تميل برأسها حتى تمس كتفه بجدائلها الفاحمة وتترك خصلاتها تتموج على وجنته ! .. والحق أنني ما زلت أذكر حتى الآن بعض ما شعرت به في تلك اللحظة إزاء ذلك المنظر .

ولقد أخبرتك – أيها القارئ – أنني تعلمت أن أحب مستر روشستر : لم يكن في وسعي ألا أمضي في حبه لمجرد أنني وجدته يكف عن الاهتمام بي ، أو لأنني كنت أقضي ساعات في حضرته فلا يحول عينيه نحوي مرة واحدة ، أو لأنني رأيت كل اهتمامه قد استحوذت عليه سيدة عظيمة تربأ أن يمس طرف ثوبها أثناء مرورها ، وتبادر فتشيح بعينيها السوداوين عن وجهي إن اتفق أن وقعتا علي وكأنها كانت تحولها عن شيء أحقر من أن يستأهل أية ملاحظة أو اهتمام ! .. نعم ، لم أقو على أن أكف عن حبه لمجرد أنني تأكدت من أنه لن يلبث أن يتزوج من هذه السيدة بالذات ، ولا لأنني كنت أقرأ يومياً نواياه نحوها فيما كان يبدو عليها من اطمئنان متعجرف ، ولا لأنني كنت أشهد منه نحوها في كل ساعة ضرباً من التودد ، يبدو فاتراً ، ويرى

إلى حملها على أن تجري هي وراءه ، إلا أنه كان في فتوره آسراً ، وفي عجرفته جارفاً لا سبيل إلى مقاومته !

* * *

● لم يكن في هذه الظروف ما يخفف من وقدة الحب أو يقصيه ، بل كان فيها ما يدعو لليأس والقنوط . ولعل القارئ يرى في كثير من هذه الظروف ما يثير الغيرة ، إذا كان في وسع امرأة في مكاني أن تغار من امرأة في مكان مس انجرام ، ولكني لم أكن غيوراً أو أنني لم أشعر بالغيرة إلا فيما ندر ، لأن طبيعة الألم الذي كنت أقاسيه لا تنطوي على شيء من معنى هذه الكلمة .. لقد كانت مس انجرام تحت مستوى الغيرة ، أي أضأل من أن تثير هذا الشعور ، ومعذرة لهذا القول الذي يبدو متناقضاً في ظاهره ، فإنني أعني أن أقول : إنها كانت رائعة في مظهرها ، ولكنه لم يكن مظهراً أصيلاً غير مجاوب . وكانت حسناء ذات معلومات عديدة مشرقة ، ولكن عقلها كان خاوياً بقدر ما كان قلبها مجدباً بطبيعته ، لا تتفتح في تربته زهرة من تلقاء نفسها ، ولا تينع ثمرة إلا عنوة واصطناعاً .. أجل ، لم تكن طيبة النفس ، ولا صادقة في مظهرها ، ولقد كانت تردد ما تقرؤه في الكتب من عبارات طنانة ، دون أن تعرض رأياً أو تكون لها فكرة خاصة ، كما كانت تتظاهر بالإحساسات المرهفة دون أن تعرف كيف تعطف وتترفق لأنها مجردة من الصدق والحنان . ولطالما كشفت عن هذه الحقيقة بما كانت تنفس به – دون داع – من كراهية حقود للصغيرة أديل ، فكانت تدفعها بغلظة واحتقار إذا اقتربت منها مصادفة ،

بل إنها كانت تطردها أحياناً من الحجرة وتعاملها على الدوام ببرود وخشونة . وكانت عيون أخرى غير عيني ترقب هذه الظواهر الخلقية عن كثب وباهتمام ودقة .. ثم كان مستر روشستر – عريس المستقبل بالذات – يفرض رقابة مستمرة على العروس المزمعة ؛ ومن هذه الفطنة ، وهذا الحذر ، وهذا الوعي منه لعيوب حسنائه ، كان ينبع الألم الذي راح يضنيني !.. فقد رأيت أنه سوف يتزوجها لاعتبارات عائلية ، وربما لأسباب سياسية ؛ لأن مركزها وعلاقاتها كانت تلائمه ، وشعرت بأنه لم يمنحها قلبه ، لأن مؤهلاتها لم تكن جديرة بأن تفوز بهذا الكنز منه . وكانت هذه هي النقطة !.. النقطة التي مست الأعصاب وأثارتها .. النقطة التي أكدت الحمى وغذتها ، أي أنها لم تستطع أن تخلب لبه وتستهوي قلبه !

ولو أنها وفقت إلى الظفر في الحال ، فخضع واستسلم لها ووضع قلبه عند قدميها ، لغطيت وجهي واستدرت إلى الجدار ، ولآثرت الموت – على سبيل المجاز – من أجلهما .. ولو أن مس انجرام كانت امرأة طيبة نبيلة ، وهبت القوة والحماسة والحنان والعقل ، لوجدتني في نضال مع نمرين : الغيرة والقنوط !.. كنت إذ ذاك لا أملك إلا أن أعجب بها – ولو تمزق قلبي وتبدد – اعترافاً بتفوقها ، ولقضيت بقية أيامي في هدوء وسكينة .. وكلما زاد تفوقها المطلق ، تضاعف إعجابي بها وميلي لحياة المسالمة . أما وقد كانت الأمور على ما ذكرت ، فإن مشاهدة جهود مس انجرام لفتن مستر روشستر ، ومشاهدة ما كانت تمنى به من فشل .. فشل لم تكن تفطن إليه ، وإنما كانت تخال أن كل

رمية كانت تصيب المرمى ، فكانت تزدهي مغترة بأنها نجحت ، في حين أن كبرياءها واعتدادها بنفسها كانا يقصيان عنها الرجل الذي شاءت أن تقتنصه وتستهويه .. كانت مشاهدة هذا كله ، تسلمني إلى انفعال لا ينقطع ، وإلى كبت لا يرحم !.. ذلك لأنني كنت أرى – عندما فشلت هي – كيف كان في وسعها أن تنجح ، فإن السهام التي كانت ترتطم بصدر مستر روشستر ثم تسقط عند قدميه دون أن تنال منه ، كانت خليقة بأن تهز قلبه المتكبر ، وأن تبعث الحب في نظراته العابسة ، وأن تلين من وجهه الساخر ، لو أن اليدين اللتين أطلقتاها كانتا أبرع وأكثر ثباتاً من يدي مس انجرام .. وأكثر من هذا ، أن غزو قلب مستر روشستر كان ميسوراً دون ما أسلحة !

ورحت أسائل نفسي : « لماذا لا تقوى على أن تكون أكثر تأثيراً عليه ، وقد تسنى لها أن تقترب منه إلى هذا الحد ؟.. إنها ولا شك لا تستطيع أن تحبه حباً صادقاً ، ولا تستطيع أن توليه قلباً زاخراً بالحب ، وإذن فلا حاجة بها إلى رسم الابتسامات على شفتيها بهذا الإسراف ، ولا إلى بذل نظراتها دون ما حساب ، ولا إلى اصطناع هذه المظاهر البالغة الإتقان ، وهذه الرشاقة المتعددة الألوان .. وإنما يخيل إلي أنها تغدو أقرب إلى فؤاده ، لو أنها جلست ساكنة بجانبه ، واقتصدت في كلماتها ونظراتها .. ولقد شاهدت في وجهه آيات جد مختلفة عن هذا التجهم الذي يعلوه الآن ، وذلك عندما كانت تخاطبه في مرح منبعث دون ما تكلف أو افتعال ، وصادر عن غير اصطناع وتزويق ومناورات مرسومة ! إنها لن تتكلف أكثر من تقبل المواقف

على علاتها .. فتجيب – عندما يسألها – فى غير تظاهر ، وتخاطبه ، عندما تدعو الحاجة، دون اصطناع الابتسام .. فمثل هذا المسلك لا يلبث أن ينمو ، ويزداد رقة ، ويملأ فؤاد المرء دفئاً وإشعاعاً ! .. ترى كيف سيتسنى لها أن ترضيه إذا ما أصبحا زوجين ؟.. ما أظنهما سيوفقان فى ذلك .. ولكن ، لابد من التوفيق .. إن فى وسع المرأة التى تتزوج منه أن تغدو أسعد الزوجات فى الدنيا ! » .

* * *

● إننى لم أذكر حتى الآن أى شىء ينم عن استنكار لاعتزام مستر روشستر الزواج من أجل المصلحة وروابط النسب .. والحق أننى دهشت عندما اكتشفت أن تلك كانت نيته ، لأننى كنت أظنه رجلا لا يتأثر بمثل هذه العوامل المستهجنة فى اختيار زوجته . على أننى كنت كلما أمعنت التفكير فى مركزيهما وتعليمهما وما إلى ذلك ، أزداد شعوراً بأننى غير محقة فى الحكم عليه أو على مس انجرام ولومهما على إقدامهما على التصرف وفقاً لآراء ومبادئ غرست – ولابد – فى نفسيهما منذ الطفولة .. كانت كل طبقتهما تدين بهذه المبادئ، وأعتقد أنها تتشبث بها لأسباب من نوع لا أملك أن أتصوره .. وخيل إلىّ أننى لو كنت سيداً مثله ، ما ضممت إلى صدرى سوى امرأة أستطيع أن أحبها . ولكن وضوح الميزات التى يجد فيها الزوج سعادته الشخصية من وراء هذا الرأى أقنعنى بأنه لابد هناك من حجج وبراهين أجهلها، تصد عن الأخذ به ، وإلا لعمل الناس بمثل ما أريد . على أننى ما لبثت أن بدأت أزداد تسامحاً مع مخدومى فى نقاط أخرى ، كما فعلت فى هذه

النقطة ، فتناسيت العيوب التى كنت أحصيها عليه . فقد كنت – من قبل – أحاول أن أدرس أخلاقه من كل النواحى – الطيبة والخبيثة – لأزنها وأصدر عليها حكماً عادلا ، ولكنى الآن لم أعد أجد فيها ما هو خبيث على الإطلاق . وغدت روح التهكم التى كانت تنفرنى ، وروح الجفاء التى كانت يوماً ما تروعنى ، أشبه فقط بتوابل حريفة فى طبق شهى ، وجودها لاذع ولكن غيابها يجعل الطبق (ماسخاً) غير مستساغ ! .؟
أما ذلك الشىء المبهم الذى لم أكن أدرى أكان يعبر عن شر أم عن أسى ، وعن عزم أم عن قنوط ، والذى لم يكن يلمحه سوى الرقيب المتفرس ، إذ كان يومض فى عينيه من وقت لآخر ثم يختفى قبل أن يسبر المرء ما يكشف عنه من أغوار .. ذلك الشىء الذى كان يجعلنى أوجس وأنكمش وكأننى أتخبط بين تلال بركانية ، وأشعر بالأرض ترتجف وتفغر أفواهها .. ذلك الشىء ، ظللت أراه من حين إلى آخر بقلب واجف ، ولكن دون أن تشل أعصابى ؛ وبدلا من أن أجفل منه أصبحت أتلهف عليه وأتكهن به ، وخلت أن مس انجرام سعيدة لأنها قد تصل يوماً إلى أعماق تلك الأغوار السحيقة – الكامنة وراء عينيه – فتكشف على مهل عن أسرارها وتحلل طبيعتها .. وفيما كنت أقصر تفكيرى عليه وعلى سيدتى وعروسه المستقبلة – لا أرى غيرهما ولا أسمع سوى حديثهما ولا أحفل بغير حركاتهما – كان بقية المدعوين منهمكين فى شئونهم الخاصة ومسراتهم ؛ فكانت السيدتان لين وانجرام مسترسلتين فى حديثهما الهادئ ، وهما تتبادلان الإيماءات بعماماتيهما ، وترفعان أيديهما الأربع عندما تعبران عن الدهش أو عن سر غامض أو فزع ،

تبعاً لما كان يتخلل الحديث ، ويجرى به الثرثرة ، وكأنهما دميتان مكبرتان !.. أما مسز دنت الوادعة فكانت تتحدث مع مسز إيشتون الطيبة القلب ، وكانتا – في بعض الأحيان – تمنحاني كلمة مجاملة أو ابتسامة ملاطفة ، بينما كان السير جورج لين والكولونيل دنت ومستر إيشتون يتناقشون في الأمور السياسية أو شئون المقاطعة أو العدالة ، في حين كان اللورد انجرام يغازل آمى إيشتون ، ولويزا تعزف وتغني مع أو لأحد ولدى السيد جورج لين .. وكانت مارى انجرام تصغى فاترة إلى حديث الابن الآخر . وكان الجميع يكفون – أحياناً – على أن يكفوا عن ألعابهم ولهوهم ليراقبوا ويصغوا إلى الممثلين الرئيسيين : على أن مستر روشستر ومس انجرام – الوثيقة الارتباط به – كانا روح الزمرة .. وكان إذا تغيب هو عن الحجرة ساعة واحدة ، جثم الوجوم على نفوس الضيوف ، فإذا عاد ، ارتدت للأحاديث نشوتها ودبت فيها الحياة .

وقد تجلت الحاجة ملحة إلى تأثيره المنعش ، عندما دعى ذات يوم إلى (ميلكوت) في بعض الأعمال ، ولم يكن من المرتقب أن يعود إلا في ساعة متأخرة .. وكان الأصيل ممطراً . وكان من المتفق عليه أن يذهب المدعوون على الأقدام للتفرج على إحدى خيام الغجر التي أقيمت حديثاً على كثب من قرية (هاى) ، فرؤى العدول عن هذا المقترح ، ومضى بعض الرجال إلى حظائر الخيل ، وصعد الشبان والشابات إلى غرفة البليارد ، وجلست الليدى انجرام تلعب الورق مع الليدى لين ، بينما رفضت بلانش انجرام كل محاولة بذلتها مسز دنت

ومسز إيشتون لتحملاها على مبادلتهما الحديث ، ثم عزفت على البيانو بعض ألحان عاطفية ، ولكنها ما لبثت أن جاءت من المكتبة برواية ، وألقت بنفسها على أريكة لعل سحر القصة يلهيها عن السأم الذي استشعرته في غياب زميلها . وكانت الغرفة والقصر يرزحان تحت وطأة السكون ، فيما عدا أصوات طروب تنبعث من حين إلى آخر من غرفة البليارد .

* * *

● وتهادى الغسق ، ودقت الساعة تنبه إلى أن الوقت قد حان لارتداء ثياب العشاء ، وإذا بأديل تصيح فجأة وهي جاثية بجانبي على قاعدة النافذة بحجرة الاستقبال : « ها هو ذا مستر روشستر قد عاد ! » .

فاستدرت ، واندفعت مس انجرام من أريكتها . واشرأبت كذلك أعناق الآخرين من حيث كانوا يجلسون ، عندما سمعت جلجلة عجلات ووقع حوافر جياد على الطريق المغمورة بالمياه .. ثم اقتربت عربة البريد ، فقالت مس انجرام : « ماذا جعله يعود بهذه الوسيلة ؟!.. لقد كان يركب جواده الأسود (مسرور) عندما رحل . أليس كذلك ؟ وكان معه بايلوت .. فماذا فعل بالحيوانين ؟ » .

وتقدمت – وهي تقول ذلك – نحو النافذة بقامتها الفارعة وثيابها الطويلة ، مما اضطرني إلى الانحناء حتى كاد ظهرى أن ينقصم . وكانت شدة لهفتها قد حالت دون أن تراني ، فلما أحست وجودى زمت شفتيها واتجهت إلى نافذة أخرى . وتوقفت عربة البريد ودق السائق جرس الباب ثم هبط سيد يرتدى بزة السفر ولكنه لم يكن مستر روشستر وإنما كان رجلا غريباً طويل القامة متأنقاً ، فصاحت مس انجرام في



وتقدمت ـ وهي تقول ذلك ـ نحو النافذة بقامتها الفارعة وثيابها الطويلة ، مما اضطرني الى الانحناء حتى كاد ظهري أن ينقصم

وجه أديل : « كم تغيظيني أيتها القردة المتعبة ! من حملك إلى النافذة لتعطي أنباء كاذبة ؟ » .. ثم ألقت عليّ نظرة غاضبة ، كما لو كانت الغلطة غلطتي .

وسمع حديث في البهو ثم ظهر القادم الجديد على الفور ، فانحنى للبدي انجرام باعتبارها أكبر السيدات الحاضرات سناً ، ثم قال : « يبدو أني جئت في وقت غير ملائم يا سيدتي ، لأن مستر روشستر متغيب عن المنزل ، ولكني وصلت من رحلة طويلة جداً ، ولي من سابق معرفتي الوطيدة به ما يجعلني أبقى هنا حتى يعود ! » .. وكان مهذباً في كلامه ، وإن بدا لي في لهجته شيء غير عادي .. لم تكن لهجة أجنبية تماماً ، ولكنها مع ذلك لم تكن إنجليزية ! .. ولعله كان في سن مستر روشستر تقريباً ـ بين الثلاثين والأربعين ـ وكانت بشرته شاحبة اللون . وفيما عدا ذلك كان جميل الوجه لا سيما عندما يقع عليه البصر لأول مرة ، ولكنك إذا أنعمت النظر إليه ، اكتشفت شيئاً في وجهه لا يروق ، أو بالأحرى يخفق في أن يروق للعين : كانت أساريره منتظمة ولكنها شديدة الارتخاء : وكانت عيناه واسعتين جميلتين ، ولكن الحياة التي كانت تلوح فيهما كانت خاملة خاوية .. أو هذا على الأقل ما خيل إليّ !

ودوى جرس ارتداء الملابس فانتثرت الجماعة .. ولم أر ذلك الضيف الجديد إلا بعد العشاء ، فبدا مطمئناً وادعاً ، بيد أنني ازددت عدم ارتياح إلى أساريره ، فقد خيل إليّ أنه في الوقت ذاته كان غير متزن ، بل كان جامداً ، خالياً من الحياة .. كانت عيناه تجولان دون

أن يبدو فى نجواها أى معنى ، مما أكسبه شكلاً غريباً لم أر له مثيلاً من قبل :. وكان مليحاً ، وليس فى مظهره ما يصد عن الميل إليه ، ولكنه أثار نفورى إلى درجة كبيرة ، إذ لم يكن فى وجهه الناعم البشرة ، ذى الشكل البيضاوى ، شىء من القوة .. ولا فى أنفه الحاد وفمه الدقيق أى حزم .. ولم يكن يبدو على شىء من أساريره — حتى جبينه المنخفض الضيق — ما ينم عن أى تفكير .. كما لم يكن فى تلك العين العسلية الخالية من التعبير ، أى مظهر لقوة الشخصية والسلطان !

وأخذت — وأنا جالسة فى ركنى — أتأمل الرجل فى ضوء الثريا الموضوعة على حافة الموقد ، وقد تسلط على وجهه ، إذ كان يشغل مقعداً كبيراً بجوار المدفأة ولا يفتأ يقترب منها بين لحظة وأخرى وكأنه كان يشعر ببرد . ثم أخذت أقارن بينه وبين مستر روشستر ، وأعتقد — مع الاحترام — أن الفارق بينهما لم يكن يعدو ما بين ذكر الوز الهزيل وبين الباز الجارح ، أو بين الخروف وبين الكلب الكث الشعر الحاد العينين الذى يحرسه !.. ولقد ذكر مستر روشستر كصديق قديم له ، ولابد أنها كانت صداقة عجيبة ، تقوم صورة حية للمثل القديم عن اجتماع النقيضين !.. وكان يجلس بالقرب منه اثنان أو ثلاثة من السادة ، فتناهت إلى أذنى — عبر الحجرة — نتف من محادثتهم ، ولم أستطع فى أول الأمر أن أتبين معنى لما كنت أسمعه ، لأن الجدال بين مارى انجرام ولويزا إيشتون — وكانتا أقرب منهم إلىّ — غطى على حديثهم .. وكانتا تتحدثان عن الضيف الجديد ، فوصفته كلتاهما بأنه « رجل جميل » ، وقالت لويزا : إنه « مخلوق محبوب » ، و « إنها

شديدة الإعجاب به » ، كما تحدثت مارى عن « فمه الصغير الجميل ، وأنفه البديع » ، وكأنه مثلها الأعلى للفتنة . وصاحت لويزا : « يا لجبينه الذى ينطق بطيبة الخلق !.. إنه أملس جداً ، خال من التجاعيد غير المنتظمة التى أمقتها كثيراً !.. ويا لنظرته الوادعة ، وابتسامته العادلة ».

وما لبث مستر هنرى أن دعاها — لارتياحى — إلى الجانب الآخر من الحجرة ، للبت فى أمر خاص بالنزهة — التى أرجئت — إلى (هاى) . وإذ ذاك استطعت أن أركز انتباهى على الرجال الجالسين بجوار الموقد ، وسرعان ما اكتشفت أن الزائر الجديد يدعى مستر (ميسون) ، وأنه قادم لتوه إلى إنجلترا من إحدى البلاد الحارة ، مما كان السبب — ولا شك — فى سمرته وجلوسه الجد قريب من المدفأة ، وارتدائه المعطف فى البيت . وما لبث ذكره لكلمات : جمايكا ، وكينجستون ، وسبانيش تاون ، أن نم عن أنه كان يقيم فى جزر الهند الغربية ، كما اكتشفت لدهشتى أنه قد التقى لأول مرة بمستر روشستر فى تلك الجزر ! وتحدث عن كراهية صديقه للحرارة الشديدة ، والعواصف والفصول الممطرة فى ذلك الإقليم .. وكنت أعلم أن مستر روشستر رحالة — كما سمعت من مسز فيرفاكس — ولكنى لم أكن أعتقد أن أسفاره قد تجاوزت أوروبا ولم أسمع حتى الآن ما يشير إلى أنه سافر إلى بلاد نائية !

***

● وفيما كنت أسرح الفكر فى هذه الأشياء ، وقع حادث لم يكن فى الحسبان قطع حبل تأملاتى .. فقد اتفق أن فتح أحد الخدم الباب ، فطلب منه مستر ميسون — وهو يرتعد — أن يجىء بمزيد من الفحم يلقيه

في النار التي كانت قد خمدت . وعندما جاء الخادم بالفحم وهم بالخروج ، توقف بالقرب من مقعد مستر إيشتون ، وأسرَّ إليه ببعض كلمات لم أسمع منها سوى (امرأة عجوز) و (متعبة جداً) . وأجابه مستر إيشتون (القاضي) : « قل لها أن ترحل وإلا أمرت بإرسالها إلى السجن ! » .. فتدخل الكولونيل دنت ، قائلا : « كلا .. قف ! .. لا تطردها يا إيشتون فقد نستفيد من الأمر .. الأفضل أن نستشير السيدات » :

ثم التفت إلينا وقال بصوت مرتفع : « لقد تحدثتن عن الذهاب إلى قرية (هاى) لزيارة خيام الغجر ، ولكن ها هو ذا (سام) يقول إن إحدى العجائز الغجريات هنا في غرفة الخدم ، وتلح في المثول أمام السادة ، لتكشف لهم عن حظهم ، فهل ترغبن في مقابلتها ؟ » .. فصاحت الليدى انجرام : « إنك بلا شك لن ترضى بتشجيع هذه المحتالة الدنيئة . اطردها في الحال بأية وسيلة ! » .. فقال الخادم : « ولكنني لا أستطيع حملها على الانصراف يا سيدي .. ولا أحد من الخدم يقدر . إن مسز فيرفاكس معها الآن ، تضرع إليها أن ترحل ، ولكنها جلست على مقعد في ركن من الغرفة ، وقالت إنه لن يستطيع شيء أن يزحزحها من مكانها ما لم يؤذن لها في الحضور إلى هنا ! » .

فسألت مسز إيشتون : « وما الذي تريده ؟ » .

— أن تنبئ السادة بحظوظهم .. وهي تقسم على أنها يجب أن تفعل ذلك ، وأنها ستفعله .

فقالت ابنتا مسز إيشتون في وقت واحد : « وما شكلها ؟ » .

— مخلوقة شمطاء ، تلحل القلب بدمامتها يا آنسة ! .. سوداء كالسناج !

فصاح فردريك لين : « إذن فهي ساحرة حقيقية ! .. دعوها تدخل بطبيعة الحال ! » .. وقال أخوه : « الحق أنه من دواعي الأسف الشديد أن نطرح عنا مثل هذه الفرصة للمزاح » .. فصاحت مسز لين : « فيم تفكران ياولدى العزيزين ! » .. وقالت ليدى انجرام تقلدها : « لا يمكن أن أقبل الإلحاح في مثل هذا العمل » . وقالت بلانش المتعالية وهي تدور بكرسيها أمام البيانو : « حقاً يا أماه .. بل أنت تستطيعين ! .. إنني أتلهف على معرفة مستقبل .. مر المرأة يا سام بالدخول » .

— تذكرى يا عزيزتي بلانش ...

— إنني أتذكر كل ما تريدين ولكن إرادتي يجب أن تنفذ : أسرع ياسام !

وعندئذ صاح الشباب من السيدات والسادة : « نعم .. نعم .. نعم ! دعها تدخل .. ستكون تسلية طريفة » .. ولكن الخادم تلكأ ثم قال : « إنها تبدو غاية في الفظاظة ! » .. فصرخت فيه مس انجرام : « اذهب ! » فمضى الرجل . واشتد مرح الجماعة على الفور ، وقد سرت فيهم حمى الفكاهة والنكات ، إلى أن عاد (سام) يقول : « إنها الآن ترفض المجيء وتقول أن ليس من مهمتها أن تظهر أمام « قطيع مبتذل » — فهذا نص تعبيرها — بل لابد من أن أدخلها منفردة إلى إحدى الحجرات ، وعلى الذين يرغبون في استشارتها أن يذهبوا إليها فرادى ! » .

فقالت الليدى انجرام : « ها قد رأيت يا ابنتي الجليلة أنها تجاوزت حدودها .. اصغي إلى نصيحتي يا (ملاكي) و .. » . فقاطعتها (ملاكها) قائلة للخادم : « أدخلها إلى المكتبة لأنني أيضاً لا أريد أن أصغي إليها

أمام « القطيع المبتذل » ، بل يجب أن أختلي بها . هل بالمكتبة مدفأة ؟ » .

— نعم يا سيدتي ولكن يبدو أنها ثرثارة !

— كفى ثرثرة أنت يا أحمق ، واصدع بأمري !

ثم اختفى سام مرة أخرى ، فعاد الغموض والانتعاش والترقب إلى الذروة .. وعاد الخادم يقول : « إنها الآن على استعداد وتريد أن تعرف من ستكون أولى زائراتها » .. فقال الكولونيل : « أرى أنه يحسن أن ألقي عليها نظرة قبل أن تذهب إليها إحدى السيدات . قل لها يا سام إنني قادم » .

فمضى سام ولكنه رجع يقول : « إنها تقول يا سيدي إنها لن تقابل أياً من السادة ، وأن لا حاجة تدعوهم إلى إزعاج أنفسهم بالاقتراب منها » . ثم أردف يقول وهو يجاهد في حبس ضحكة تكاد تنفجر : « وهي لا تريد كذلك أي سيدات ولا تقبل إلا من كانت شابة ولم تتزوج بعد ! » :

فصاح هنري لين : « والله إنها حسنة الذوق ! » .

وقامت مس انجرام في وقار ثم قالت بلهجة القائد المقبل على مخاطرة : « لسوف أكون الأولى في الذهاب » .. فصاحت أمها : « أواه يا حبيبتي !. فكري يا عزيزتي .. فكري ! » .. ولكن الفتاة مرت من أمامها في صمت شامخ واجتازت الباب الذي فتحه الكولونيل ثم سمعناها تدخل المكتبة . وأعقب ذلك سكون نسبي .. وقنعت الليدي انجرام من الأمر بدق يديها يأساً وقنوطاً ، بينما صرحت مس ماري بأنها — من ناحيتها — لا تجرؤ على

مثل هذه المغامرة ، في حين تضاحكت آمي ولويزا إيشتون في خفوت ، وإن تجلى عليهما بعض الهلع .

وانقضت الدقائق بطيئة كل البطء .. واكتملت خمس عشرة دقيقة قبل أن يفتح باب المكتبة ، وتعود إلينا مس انجرام خلال القبو .. ترى هل ستضحك ؟ .. هل ستأخذ الأمر على أنه دعابة ؟ .. واستقبلتها العيون جميعاً بنظرة فضول مشبوبة ، فقابلت الفتاة كل العيون بنظرة صدود وبرود ! ولم تكن تبدو مستاءة ، ولا مرحة .. بل مضت إلى مقعدها بخطوات ثقيلة ، ثم جلست عليه في صمت وسكون . وعندئذ سألها اللورد انجرام : « حسناً يا بلانش ؟ » .. وسألتها ماري : « ماذا قالت لك يا أختاه ؟ » .. وقالت لويزا وآمي إيشتون : « ماذا ترين ؟ بم تشعرين ؟ هل هي حقيقة عرافة ؟ » .

فأجابتهم مس انجرام : « على رسلكم يا ناس !.. لا ترهقوني بالإلحاح . من السهل أن يثور العجب والشك في نفوسكم ، بل يخيل إلي من اهتمامكم الذي تعلقونه جميعاً — بما فيكم والدتي — على هذا الأمر ، أنكم تعتقدون اعتقاداً مطلقاً بأن لدينا ساحرة حقيقية . لقد شاهدت الآن نورية من الأوغاد الرحل ، مارست علم قراءة الكف فأخبرتني بمثل ما يقوله أمثالها عادة ، وبذلك أكون قد أشبعت نزوتي . ولعله من الخير أن يرسل مستر إيشتون هذه الشمطاء إلى السجن في صباح الغد ، كما كان يتوعد » .

ثم تناولت كتاباً واضطجعت في مقعدها زاهدة في أي مزيد من الحديث . وراقبتها حوالي نصف ساعة ، فلم أرها تطوي صفحة واحدة

من الكتاب الذى كانت تحمله فى يدها ، بل رأيت وجهها يزداد اكفهراراً فى كل لحظة ، وتبدى عليه أمارات الامتعاض وخيبة الأمل ، فأدركت تماماً أنها لم تسمع كلمة موانية ، وخيل إلىّ — من طول اكتئابها وإخلادها إلى الصمت — أنها تعلق أهمية كبيرة ، لا مبرر لها ، على ماقيل لها على الرغم من تظاهرها بعدم الاكتراث .. وفى تلك الأثناء صرحت مارى انجرام وآمى ولويزا إيشتون أنهن لا يجرؤن على الذهاب منفردات رغم تلهفهن على الذهاب ، فجرت مفاوضات على يدى الوسيط (سام) . انتهت بعد عناء بأن سمحت العرافة لهن بالظهور أمامها معاً . ولم تكن زيارتهن ساكنة كزيارة مس انجرام ، إذ سمعنا ضحكاتهن الهستيرية ، وبعض صيحات تنبعث من المكتبة .. وأخيراً — بعد نحو عشرين دقيقة — فتحن الباب على مصراعيه بعنف ، وجئن يجرين عبر البهو كأنما مسهن الخبل ، كل منهن تصيح ، فى وقت واحد : « إننى واثقة من أنها ليست من البشر !.. يا للأشياء التى حدثتنا عنها !.. إنها تعرف عنا كل شىء ! » .

ثم غصن لاهثات فى المقاعد التى أسرع الرجال يقدمونها إليهن . ولما ألح الباقون عليهن فى طلب المزيد من الإيضاح صرحن بأن المرأة أخبرتهن بأمور قلنها وفعلنها وهن أطفال ، كما وصفت الكتب وأدوات الزينة التى كانت لديهن فى مخادعهن الخاصة ، ووصفت الهدايا التى قدمها إليهن الأقارب . وأكدن أنها قرأت ما كان يدور فى رءوسهن وأنها همست فى أذن كل منهن باسم الشخص الذى تميل إليه كل الميل ، وأخبرتهن بما تتوق إليه نفس كل منهن !.. وهنا تدخل الرجال متوسلين أن يزدن النقطتين الأخيرتين إيضاحاً ، ولكنهم لم يلقوا منهن سوى

تضرج الوجنات بحمرة الخفر والحياء وبعض صيحات واختلاجات وضحكات !.. وفى تلك الأثناء قدمت غير الشابات روح النوشادر والمراوح للفتيات ، دليلا على ما يساورهن من قلق ، لأن ما قدمته لهن من تحذير لم يعمل به فى الوقت المناسب !.. بينما قهقه الشيوخ من السادة وتطوع الشبان بعرض خدماتهم على الحسناوات الحائرات ، المنفعلات !

وفى غمرة ذلك الهرج والمرج ، وفيما كانت عيناى وأذناى منصرفة إلى ذلك المشهد تماماً ، سمعت نحنحة عند مرفقى ، فاستدرت ورأيت سام الذى خاطبنى قائلا : « معذرة يا آنسة فإن الغجرية تقول إنه ما تزال بالحجرة شابة غير متزوجة لم تذهب إليها بعد ، وتقسم ألا تذهب حتى تراها . وأظنها تعنيك ، إذ لم تعد هناك غيرك ، فماذا أقول لها ؟ » .

فأجبته : « أوه .. سأذهب من غير شك ! » .

وفرحت بفرصة لم أكن أتوقعها لإشباع الفضول الذى كان يضطرم فى نفسى ، فتسللت من الحجرة دون أن ترانى عين ، لأن الجميع كانوا ملتفين حول الثلاث المرتجفات العائدات لتوهن من لدى العرافة ، ثم أغلقت خلفى الباب فى هدوء . وقال سام : « إذا شئت يا سيدتى انتظرتك فى الردهة ، وإذا أفزعتك ناديتنى فأدخل على الفور » .

— كلا ياسام : عد إلى المطبخ فلست خائفة بحال !

والواقع إننى لم أكن خائفة ولكنى كنت شديدة الاغتباط واللهفة .

* * *

الفصل التاسع عشر

• بدت المكتبة تسبح فى الهدوء عندما دخلتها . وكانت العرافة – إذا كانت تلك المرأة عرافة – مضطجعة فى مقعد مريح ، عند ركن المدفأة ، وقد ارتدت عباءة حمراء وقلنسوة سوداء ، أو بالأحرى قبعة من قبعات الغجر العريضة الحافة ، شدت بمنديل مخطط إلى ما تحت ذقنها . وكانت على المنضدة شمعة مطفأة ، فانحنت العرافة فوق النار تقرأ على وهجها فى كتاب صغير أسود ككتاب الصلاة . وكانت تغمغم لنفسها بالكلمات شأن العجائز عندما يقرأن . ولم تكف عن المطالعة فور دخولى ، وكأنما كانت ترغب فى الانتهاء من إحدى الفقرات .

ووقفت فوق السجادة أدفئ يدى اللتين بردتا لجلوسى الطويل بعيداً عن المدفأة فى حجرة الاستقبال .. وشعرت إذ ذاك برباطة الجأش كعادتى دائماً فى الحياة ، إذ لم أجد فى الحقيقة شيئاً فى مظهر الغجرية يزعزع الهدوء والسكينة . وما لبثت أن طوت كتابها ، ورفعت عينيها إلىّ ببطء . وكانت حافة قبعتها تظلل جزءاً من وجهها ، ولكنى استطعت أن أراه عندما رفعته ، فإذا به وجه غريب ، تتناوب فيه السمرة والسواد ، وقد برزت بعض خصلات من شعر خشن أشعث ، من تحت عصابة بيضاء امتدت إلى ما تحت ذقنها ، مغطية أكثر من نصف خديها وفكيها .. ورمقتنى عينها على الفور بنظرة جريئة ، مسددة ، ثم قالت بصوت يماثل نظرتها جرأة ، ويشبه أساريرها خشونة : «حسناً .. أفتودين إذن أن تسمعى طالعك ؟» .

– لا يهمنى ذلك كثيراً يا أماه أنت وشأنك ! ولكنى أنبهك إلى أننى لا أومن بذلك !

– إن قولك هذا يماثل جرأتك التى توقعتها منك وسمعتها فى خطوك وأنت تعبرين عتبة الباب .

– حقاً ؟ إنك حادة السمع .

– نعم وحادة البصر .. وحادة الذهن !

– إنك تحتاجين إلى هذا كله فى مهنتك .

– فعلا ، وخاصة عندما أتعامل مع زبائن مثلك . لماذا لا ترتعدين؟

– لأننى لست (بردانة) !

– ولماذا لم يشحب وجهك ؟

– لأننى لست مريضة .

– ولماذا لا تستشيرين حرفتى ؟

– لأننى لست حمقاء !

فأطلقت العجوز الشمطاء ضحكة توارت تحت القلنسوة والعصابة ، ثم أخرجت غليوناً قصيراً أسود ، أشعلته وأخذت تدخن . وبعد أن نعمت فترة بذلك (المهدئ) لأعصابها ، رفعت ظهرها المقوس ، وانتزعت الغليون من بين شفتيها ، ثم قالت فى ترو بالغ وهى تحملق فى النيران : «أنت بردانة .. أنت مريضة .. أنت حمقاء !» .. فقلت : «برهنى على ذلك» .

– سأفعل فى إيجاز .. إنك تشعرين بالبرد لأنك وحيدة لايشعل نيرانك الكامنة احتكاك .. وأنت مريضة لأن أسمى وأحلى ما يوهب من

المشاعر للرجال ، ينأى عنك ويبتعد .. وأنت حمقاء لأنك برغم ما تقاسين لاتشيرين إليه ليقترب منك ، ولا تتقدمين نحوه خطوة واحدة لتلتقى به حيث يترقبك !

ثم أعادت غليونها القصير الأسود إلى شفتيها وراحت تدخن من جديد ، بشدة ونهم ، فقلت : « فى وسعك أن تقولى هذا لكل إنسان تقريباً ، مادمت تعلمين أنه يحيا وحيداً وعالة فى قصر كبير » .

— فى وسعى حقاً أن أقوله لكل إنسان تقريباً ، ولكن هل هو يصدق على الجميع ؟

— إذا كانوا فى ظروفى :

— نعم :: هذا صحيح :: فى ظروفك ، ولكن آتينى بإنسان آخر له مثل ظروفك تماماً .

— من السهل أن آتيك بالآلاف .

— يصعب أن تجدى مثلا واحداً ، ولعلك تعلمين أنك شاذة فى موقفك : إنك قريبة جداً من السعادة .. إنها فى متناولك ، وكل المواد اللازمة لها مهيأة ، ولا تحتاج إلا إلى حركة تلمها وتجمعها ، لأن المصادفة فرقت بينها قليلا :: ولو أنك قربت بينها مرة ، لأنتجت الهناء !

— أنا لا أفهم الأحاجى ، ولم أستطع فى حياتى حل لغز واحد .

— إذا أردت منى أن أكلمك بمزيد من الوضوح ، فأرنى كفك .

— أظن من اللازم أن « أرمى بياضى » ؟

قالت : « بالتأكيد ! » .

* * *

وأعطيتها شلناً وضعته فى جورب قديم — أخرجته من جيبها ثم طوته وأعادته إلى مكانه — قبل أن تطلب منى أن أبسط لها يدى ، فلما فعلت ، اقتربت بوجهها من كفى ، ونظرت إليها ملياً دون أن تمسها ثم قالت : « إنها كف بضة جداً ، لايمكن أن أستبين فيها شيئاً ، لأنها خالية من الخطوط . ومع ذلك فماذا فى الكف ؟.. إن المصير لا يكتب فيها ! » .. فقلت : « إننى أصدقك فى هذا » .. ولكنها استمرت فى حديثها قائلة : « كلا .. إنه مسطر فى الوجه : على الجبين ، حول العينين ، فى العينين ذاتهما ، فى خطوط الفم .. اركعى وارفعى رأسك ! » .. فقلت وأنا أطاوعها : « آه . إنك بدأت تهتدين إلى الحقيقة ، ولذلك سأمنحك بعض ثقتى مؤقتاً ! » .

ثم جثوت على بعد نصف ياردة منها ، فحركت نيران الموقد إلى أن تألقت قطعة من الفحم فأرسلت وهجاً ألقى على وجهها — وهى فى جلستها — ظلالا أشد ظلمة وقتاماً ، بينما أضاء وجهى :: ثم تفحصتنى قليلا ، وقالت : « إننى لأتساءل : بأى شعور جئتنى ، وأية أفكار كانت تساورك أثناء الساعات الطويلة التى قضيتها جالسة فى تلك الحجرة مع أولئك الأغنياء ، وهم يتحركون أمامك كأطياف تنبعث من فانوس سحرى ، ولا يكاد يدور بينك وبينهم حديث ودى ، وكأنهم أطياف فى أشكال بشرية ، وليسوا أجساداً حقيقية » ؟

— إننى كثيراً ما أشعر بالتعب ، وأحس أحياناً بميل إلى النوم ، ولكنى قلما أشعر بالحزن .

— إذن ، فهل يراودك أمل خفى يرفعك ويسعدك بما يهمس إليك عن المستقبل ؟

— كلا .. إن أقصى أمل يراودنى أن أدخر من مرتبى ما يكفى لإنشاء مدرسة فى بيت صغير أستأجره لنفسى .

— إنه لغذاء روحى تافه لايقيم أوداً !.. ثم إن جلوسك على قاعدة تلك النافذة .. ألا ترين أننى أعرف عاداتك ؟

— لقد عرفتها من الخدم .

— آه !.. إنك تحسبين نفسك لبيبة حاذقة . حسناً .. وربما كان الأمر كذلك .. وإذا شئت الحق ، فإننى قد تعرفت إلى واحدة من الخدم .. مسز بول .

* * *

● ووثبت واقفة إذ سمعت هذا الاسم ، وأنا أقول فى نفسى : « هل تعرفت إليها ؟.. إذن ففى الأمر مكيدة ، برغم كل شىء » .. على أن المخلوقة العجيبة استرسلت فى حديثها قائلة :

— لا تروعى .. إنها مأمونة الجانب .. إن مسز بول أمينة وهادئة وفى وسع المرء أن يوليها ثقته . ولكنى أعود فأقول : عندما تجلسين على قاعدة النافذة ، أما كنت تفكرين فى غير مدرستك المرجوة ؟.. أليس لك اهتمام خاص بواحد من الذين يحتلون الأرائك والمقاعد أمامك ؟.. أليس هناك وجه تدرسينه ، أو شخص تتابعين حركاته بشىء من الفضول ؟

— إننى أحب أن ألاحظ كل الوجوه وكل الأشخاص .

— ولكن ، ألا تخصين واحداً دون الآخرين .. أو ربما اثنين ؟

— أفعل ذلك كثيراً .. عندما يبدو لى أن حركات اثنين أو نظراتهما توحى بقصة .. فإذ ذاك يسلينى أن أرقبهما .

— وأية قصة تؤثرين سماعها ؟

— أوه .. ليس هناك مجال للاختيار ، فكل القصص عادة تدور حول موضوع واحد : مطارحة غرامية ثم وعد ينتهى بنفس الكارثة .. وهى الزواج !

— وهل يروق لك هذا الموضوع المتكرر الممل ؟

— إننى فى الواقع لا أحفل به ، لأنه لا يهمنى .

— لايهمك ؟ إذا جلست شابة زاخرة بالصحة والحياة والجمال الفاتن والثروة والجاه .. وراحت تبتسم فى وجه سيد ، أنت ...

— أنا ماذا ؟

— أنت تعرفينه .. وربما كنت تكثرين من التفكير فيه .

— أنا لا أعرف السادة هنا ، وقلما تبادلت حرفاً مع واحد منهم .. أما عن التفكير فيهم ، فإنه لا يتجاوز أننى أرى بعضهم جديرين بالاحترام — فهم سادة مهيبون ، فى أوسط العمر — وأرى البعض الآخر شباناً جريئين على جانب كبير من الجمال والحيوية والنشاط ، ولكن ، ما من ريب فى أن لهؤلاء جميعاً كل الحرية فى أن يتلقوا ما يرضيهم من الابتسامات دون أن أشعر بأن الأمر يهمنى فى كثير أو قليل !

— إذن فأنت لا تعرفين السادة هنا ؟ ولم تتبادلى حرفاً مع واحد منهم ؟.. أتقولين هذا عن سيد البيت ؟

— إنه ليس فى البيت »

— ملاحظة عميقة الغـور ، ومغالطة بارعة ! لقـد ذهـب إلى (ميلكوت) فى هذا الصباح وسيعود الليلة أو غداً ، فهل يقصيه هذا الظرف عن قائمة معارفك ويمسحه من الوجود ؟

— كلا ، ولكننى لا أرى أية علاقة لمستر روشستر بالموضوع الذى قدمته !

— كنت أتحدث عن السيدات اللائى يبتسمن فى عيون السادة : ولقد انسكبت أخيراً ابتسامات لا حصر لها فى عينى مستر روشستر ، حتى فاضتا كوعائين اترعتا حتى الحافة . ألم تلحظى ذلك ؟

— لمستر روشستر كل الحق فى أن يتمتع بصحبة ضيوفه .

— لا جدال فى حقه هذا ، ولكن ألم تلاحظى أنه قد أوثر بأكبر نصيب من الأقوال التى دارت حول الزواج ، وبأكثرها استمراراً ؟

* * *

● وكانت الغجرية قد لفتنى بحديثها العجيب وصوتها وأطوارها فيما يشبه الحلم . فما كنت أتوقع أن تنبعث العبارة تلو العبارة من بين شفتيها — بهذا الشكل — إلى أن وجدتنى أتخبط فى نسيج من الحيرة والغموض ، وأتساءل : أية روح خفية تقبع بالقرب من قلبى ، وترصد حركاته ونبضاته ؟ .. وظللت أحدث نفسى أكثر مما كنت أحدث الغجرية : « إن لهفة السامع تلهب لسان المتحدث ! » .

— لهفة السامع ! أجل لقد كان مستر روشستر يجلس الساعات وأذنه إلى الشفتين الفاتنتين المغتبطتين بمحادثته .. وكان يتلهف على

الإصغاء وهو بادى الامتنان بالوقت الممتع الذى يتاح له .» أما لاحظت ذلك ؟

— بادى الامتنان !.. لا أذكر أننى اكتشفت على وجهه آيات الامتنان .

— اكتشفت !.. إذن فقد حللت وجهه ؟ أية آيات رأيتها إذن غير الامتنان ؟

لم أقل شيئاً .. بينما استطردت العجوز تسألنى : « لقد رأيت الحب.. أليس كذلك ؟.. ثم تطلعت إلى المستقبل فرأيته قد تزوج وأسعد عروسه ! » .

— ليس هذا بالضبط ... إن مهارتك فى السحر تخطئ فى بعض الأحايين .

— فماذا رأيت إذن ؟

— لا يهم .. لقد جئت إلى هنا لأسأل وليس لأعترف .. هل المعروف أن مستر روشستر سيتزوج ؟

— نعم .. من الحسناء مس انجرام .

— قريباً ؟

— إن الظواهر تؤكد هذه الخاتمة . ولا شك — وأقولها لأنه يبدو عليك أنك تريدين أن تسألى عنها لولا أن الجرأة تعوزك — فى أنهما سيكونان زوجين بالغى السعادة .. إنه ولابد خليق بأن يحب مثل هذه السيدة الجميلة النبيلة ، الذكية المهذبة . ومن المحتمل أنها تحبه .. إن لم يكن لشخصه فلأمواله ، على الأقل ، وإن كانت تعتبر أمواله موقوفة

بعد أن أخبرتها — سامحنى الله — بذلك منذ ساعة ، فارتسمت على وجهها أمارات الدهشة والحزن ، وتدلت شفتها ، فنصحتها بأن تبحث عن خطيب آخر يحمل قائمة أطول بإنجازاته المستحقة ، والتى لا تخضع لقيود !

— ولكنى لم أجئ يا أماه لأسمع مستقبل مستر روشستر ، وإنما جئتك لأسمع حظى ، فإذا بك لم تخبرينى بشىء عنه !

— إن حظك مازال موضع شك . وعندما درست وجهك وجدت كل سطر فيه يناقض الآخر ، وإن كنت أعرف أن القدر قد وهبك قسطاً من السعادة .. عرفت ذلك قبل مجيئى إلى هنا هذا المساء !.. نعم ، وهبك القدر قسطاً من السعادة ، والأمر يتوقف على أن تمدى يدك لتأخذى هذا القسط ، فهل ستمدين يدك ؟.. هذه هى المشكلة التى أدرسها . اركعى ثانية على السجادة !

— لا تستبقينى طويلا لأن النار تلفح وجهى :

* * *

● وجثوت أمامها فلم تنحن فوق ، وإنما راحت تحملق فىَّ وهى مضطجعة على ظهر مقعدها ، ثم بدأت تغمغم قائلة : « اللهب يتراقص فى العين .. العين تألق كالندى ، فتبدو رقيقة زاخرة بالإحساس وتبتسم لرطانتى .. إنها حساسة ، سريعة التأثر ، يتجلى فى محيطها الصافى الأثر تلو الأثر ، حتى إذا كفت عن الابتسام بدا فيها الحزن ، وثقل جفناها بتعب لاشعورى يوحى بالأسى الناجم عن الوحدة .. لقد تحولت عنى الآن ، لأنها لم تعد تحتمل مزيداً من الفحص والتدقيق ، وكأنها تنكر

حقيقة هذه الاكتشافات بنظرة ساخرة متهكمة ! .. إن العين تبشر بالخير !.. أما الفم فيضحك أحياناً وقد استخفه الفرح والابتهاج . وهو يميل إلى الإفصاح عما يدركه العقل ، وإن أخلد إلى الصمت فى كثير مما يختلج به القلب ، إنه لم يخلق مرناً ليناً لكى يرزح تحت صمت الوحدة الأبدية ، وإنما هو فم خليق بأن يتكلم كثيراً ، وأن يحس بالمودة البشرية نحو من يناجيه .. إن الفم هو الآخر يبشر بالخير !

« إننى لا أرى غريماً لطالع سعيد ، إلا فى الجبين .. هذا الجبين الذى يعترف قائلا : إن فى وسعى أن أعيش وحيداً إن اقتضانى ذلك احترامى لنفسى ، وتطلبته ظروفى الخاصة ، ولا حاجة تدعونى إلى بيع روحى ، لأشترى بها النعيم المقيم ، فقد ولد معى كنز فى أطواقى يمكننى من أن أظل حياً إذا حبست عنى كل المباهج العارضة ، أو إذا لم تتح لى إلا مقابل ثمن أعجز عن أدائه . ويقول الجبين : إن العقل يجلس ثابتاً وقد أمسك بأعنة المشاعر ، لا يدعها تفلت وتندفع إلى المهاوى الموحشة .. إن الأهواء قد تهتاج فى صخب وعنف ، والشهوات قد تتوهم كل ضروب الأمانى الكاذبة ، ولكن العقل سيكون صاحب الكلمة الأخيرة الفاصلة شأنه فى كل جدال .. فهو الذى يدلى بالصوت الراجح فى كل قرار . وقد تمر العاصفة والزلازل والنيران ، ولكنى سأتبع إرشادات هذا الصوت الصغير الذى يترجم ما يمليه الضمير » .

« لقد أجدت الحديث أيها الجبين ، وسيلقى رأيك كل احترام .. وقد رسمت خططى — وهى خطط سليمة فى رأيى — وفيها أصغيت إلى ما يهيب به الضمير ويشير به العقل . وأنا أعلم كيف يذبل الشباب

سريعاً وتذوى زهرته ، إذا ما خالطت كأس النعيم قطرة واحدة من
خزى أو ندم . إننى لا أنشد التضحية والأسى والفجور .. فكل هذه
الأمور لا تلائم مزاجى . وإنما أريد أن أكون مصدر تغذية وتنمية ،
لا مصدر سم وموت .. أريد أن أكتسب الشكر والاعتراف بالجميل،
لا أن أعتصر قطرات الدم .. لا ، ولا قطرات الدموع : يجب أن يكون
حصادى من الابتسام والاعتزاز الحلو المذاق ، كفى ، كفى :: أظننى
قد أصبت بلوثة من الهذيان ، وخليق بى أن أطيل هذه اللحظة إلى
ما لا نهاية ، لولا أننى لا أجرؤ . لقد سيطرت حتى الآن على نفسى ،
وتصرفت وفقاً لما عاهدت عليه نفسى ، ولكن التمادى قد يضنينى
فوق ما تحتمل قواى .. ألا انهضى يا مس إير ، وفارقينى .. لقد انتهت
المسرحية ! » :

* * *

● أين كنت ؟.. هل ترانى استيقظت ، أو أننى استغرقت فى
النوم ؟.. هل كنت أحلم ؟.. وهل ما زلت أحلم ؟.. كان صوت
العجوز قد تغير ، وبدت لى لهجتها وحركاتها مألوفة .. تماماً كصورة
وجهى فى المرآة ، وكحديثى الذى ينطق به لسانى . ونهضت ، ولكننى
لم أبرح مكانى ، بل تأملت ما حولى ، وحركت نيران الموقد ، ثم
عدت ألتفت نحو العجوز التى جذبت قلنسوتها وعصابتها حول وجهها ،
ثم أشارت لى مرة أخرى بأن أرحل .. وأضاءت النيران فظهرت يدها
الممدودة . وكنت قد أفقت من ذهولى فلاحظت على الفور أن اليد
الممتدة لم تكن يد عجوز عجفاء ، وإنما كانت يداً ملفوفة رخصة ،

ناعمة الأصابع متناسقتها ، وقد التمع خاتم عريض فى خنصرها ! ..
وانحنيت أتأمله ، فرأيت جوهرة شاهدتها مائة مرة من قبل ! .. وعدت
أتطلع إلى الوجه الذى لم يكن فى هذه المرة معرضاً عنى ، فوجدته
– على النقيض – قد تجرد من القلنسوة والمنديل ومال نحوى يسألنى
بصوته المألوف : « حسناً يا جين .. هل عرفتنى ؟ »

– اخلع عنك عباءتك يا سيدى ثم ..

– ولكن فى الخيط عقدة .. ساعدينى !

– اقطعها يا سيدى !

– ها هى ذى .. إليك عنى أيتها الثياب المستعارة !

وتبدى مستر روشستر خارج الثياب التنكرية فصحت : « يا لها
من فكرة عجيبة يا سيدى ! »

– ولكنها نفذت بدقة . أليس كذلك ؟.. ألا ترين ذلك ؟

– لقد وفقت مع السيدات كل التوفيق .

– وهل لم أوفق معك ؟

– إنك لم تمثل دور الغجرية معى .

– وأية شخصية مثلتها إذن ؟ شخصيتى بالذات ؟

– كلا .. شخصية لا يمكن تعليلها . وقصارى القول أعتقد أنك
كنت تحاول استدراجى . وكنت تهذى لكى أهذى مثلك . وليس
هذا من الإنصاف يا سيدى .

– أتصفحين عنى يا جين ؟

– لا أستطيع القول حتى أقلب وجوه الفكر . فإذا وجدت بعد

التفكير والتأمل أنني لم أترد في مخافة شنيعة ، فسوف أحاول أن أصفح
عنك .. ولكن ذلك ما كان يصح أن يحدث .

— أوه . لقد كنتُ جد مستقيمة ، مدققة ، عاقلة !

فتأملت وفكرت في كل ما حدث ، وشعرت بارتياح ، إذ كنت
في الواقع قد اتخذت حذري منذ بداية المقابلة ، وتشككت في وجود
إحدى المهازل . فقد كنت أعلم أن الغجر وقارئي الكف لا يكشفون
عن أنفسهم بمثل ما كشفت تلك العجوز عن نفسها ، فضلا عن أنني
لاحظت صوتها المصطنع وحرصها الشديد على أن تخفي أساريرها ..
ولكن ذهني انصرف إذ ذاك إلى جريس بول .. تلك المرأة التي كانت
تبدو لي لغزاً حياً .. لغز الألغاز ، كما كنت أعتبرها .. ولكن مستر
روشستر لم يخطر ببالي مطلقاً . وما لبث أن قال : « حسناً .. فيم
تفكرين ؟ وما معنى هذه الابتسامة الوقور ؟! » .

— الدهشة وتهنئة النفس يا سيدي .. والآن ، أظنني قد استأذنتك
في الانصراف .

— كلا . ابقي لحظة ، وأخبريني ماذا يفعلون هناك في حجرة
الاستقبال ؟

— إنهم يتباحثون في أمر الغجرية على ما أعتقد .

— اجلسي .. دعيني أسمع ما قالوه عني .

— يحسن ألا أبقى طويلا يا سيدي ، لأن الساعة قد قاربت الحادية
عشرة . آه ، هل علمت يا مستر روشستر ، أن غريباً وصل إلى هنا بعد
أن غادرتنا أنت في الصباح ؟

— غريب ؟ كلا .. من عساه يكون ؟ لم أكن أتوقع حضور
أحد !.. وهل انصرف ؟

— كلا ، فقد أخبرنا أنه يعرفك منذ زمن بعيد ، وأن في وسعه
أن ينعم بحرية البقاء هنا حتى تعود .

— يا للشيطان ! هل دلكم على اسمه ؟

— اسمه ميسون يا سيدي . وهو قادم من جزائر الهند الغربية ،
من (سبانش تاون) في (جامايكا) على ما أعتقد .

* * *

● وكان مستر روشستر واقفاً بجانبي وقد تناول يدي ، وكأنه يقودني
إلى أحد المقاعد ، فلما سمع مني حديثي ، شد على معصمي بحركة تشنجية
وقد تجمدت الابتسامة على شفتيه . وظهر جلياً أنه فعلا قد تشنج ..
ثم قال ما يخاله الإنسان عبارة آلية تجمعت في كلمات : « ميسون جزائر
الهند الغربية ! » .. وراح يكررها ثلاث مرات ، وهو يزداد في كل
مرة شحوباً .. ولاح أنه لا يكاد يدري ما كان يقول ، فسألته :
« أتشعر بمرض يا سيدي ؟ » .. فقال وهو يترنح : « لقد أصابتني
صدمة .. أصابتني لطمة يا جين ! »

— اتكئ عليّ يا سيدي .

— لقد قدمت لي كتفك يا جين مرة من قبل ، فدعيني أتكئ
عليها اليوم !

— نعم يا سيدي نعم .. وذراعي !

فجلس ودعاني إلى الجلوس بجانبه ، وهو ما زال ممسكاً بيدي بين

راحتيه ، يكاد يسحقهما .. كما كان يحملق في وجهي بنظرة زاخرة بالقلق والفزع ، ثم قال : « يا صديقتي الصغيرة !.. بودي لو كنت في جزيرة هادئة معك أنت وحدك ، وقد انجاب عني الكدر والخطر والذكريات المقيتة » .

— هل في وسعي أن أعاونك يا سيدي ؟ .. إنني أضحي بحياتي في خدمتك !

— سأنشد العون من يديك يا جين إذا ما احتجت إليه ، أعدك بذلك ؛

— أشكرك يا سيدي . خبرني ماذا أفعل ، وسأحاول على الأقل أن أؤديه .

— آتيني الآن يا جين بكأس من النبيذ ، من قاعة المائدة ؛ إنهم الآن يتناولون العشاء . وأخبريني عما إذا كان ميسون معهم ، وماذا يفعل ؟

وإذ ذهبت وجدتهم جميعاً في قاعة المائدة يتعشون ، كما قال مستر روشستر .. ولم يكونوا جالسين حول المائدة ، بل كان الطعام فوق (البوفيه) يختار كل منهم ما طاب له منه ، وقد وقفوا جماعات هنا وهناك ، وصحافهم وأكوابهم في أيديهم . والسرور والابتهاج يسودانهم .. وكانت ضحكاتهم وأحاديثهم عامة ، منتعشة . أما مستر ميسون ، فكان واقفاً بالقرب من المدفأة يتحدث إلى الكولونيل ومسز دنت في ابتهاج ومرح كالآخرين ، فملأت كأساً من النبيذ — ومس انجرام ترقبني عابسة بمثل ما كنت أرقبها — ثم عدت إلى المكتبة ؛

كان شحوب مستر روشستر قد تلاشى وعاد إليه ثباته وعبوسه ،

فتناول الكأس من يدي وقال : « في صحتك أيتها الروح المواسية ! » .

ثم ازدرد ما في الكأس واستدار إليّ يقول : « ماذا يفعلون يا جين ؟ »

— إنهم يضحكون ويتحدثون يا سيدي ؛

— ألا يبدو عليهم العبوس والدهشة ، وكأنهم سمعوا شيئاً عجيباً ؟

— كلا . إطلاقاً .. إنهم يمزحون ويطربون ؛

— وميسون ؟

— كان يضحك هو الآخر ؛

— لو جاء أولئك الناس وبصقوا في وجهي ، فماذا تفعلين يا جين؟

— أطردهم من الحجرة يا سيدي .. إذا استطعت !

فارتسمت على أساريره نصف ابتسامة وقال : « وإذا ذهبت إليهم فنظروا إليّ في برود وتهامسوا فيما بينهم ساخرين ، ثم انصرفوا وغادروني الواحد بعد الآخر ، فماذا بعد ذلك ؟ هل تنصرفين معهم ؟ »

— لا أظن يا سيدي ، بل سوف يتضاعف اغتباطي بالبقاء معك ؛

— لتعزيني ؟

— نعم يا سيدي ، لأسري عنك ما استطعت .

— وإذا شهروا بك لتمسكك بي ؟

— قد لا أعرف شيئاً عن هذا التشهير ، ولكنني لن أحفل به لو عرفته »

— إذن فلديك من الجرأة ما يجعلك تحتملين تنديدهم ، في سبيلي ؟

— إنني أجرؤ على ذلك إكراماً لخاطر أي صديق يستحق — مثلك — أن أتمسك به ؟»

— عودى الآن إلى الحجرة ، واذهبي إلى ميسون على عجل ، واهمسى فى أذنه أن مستر روشستر قد عاد ويرغب فى مقابلته ، ثم أدخليه واتركينا !

— كما تريد يا سيدى :

ونفذت مشيئته .. وحدجنى الجميع بنظراتهم عندما سرت وسطهم واتجهت مباشرة إلى مستر ميسون فألقيت إليه الرسالة وتقدمته إلى المكتبة ، ثم صعدت إلى الطابق العلوى . وهناك رقدت فى فراشى إلى ساعة متأخرة ، سمعت عندها الضيوف وهم يأوون إلى مخادعهم ؛ وتبينت صوت مستر روشستر وهو يقول : « من هنا يا ميسون .. هذه غرفتك » .

وكان يتكلم مبتهجاً ، فاطمأن قلبي للهجته المرحة ، ولم ألبث أن استغرقت فى النوم .

* * *

الفصل العشرون

● نسيت فى تلك الليلة أن أرخى ستارتى — على غير عادتى — كما غفلت عن إسدال الستر الخشبى (الشيش) على النافذة ، فكان من جراء ذلك ، أن القمر لم يكد يبلغ فى سراه تلك الرقعة المواجهة لحجرتى من صفحة السماء ، حتى أطل على من خلال زجاج النافذة العارى من الحجب !.. وكان بدراً فى أتمه ، والليلة صافية الأديم .. وأيقظتنى طلعته البهية ، إذ صحوت فى جوف الليل ، ففتحت عينى على قرصه .. قرص فى بياض الفضة وشفافية البلور .. كان جميلا ، ولكنه جد

مهيب ، جليل .. واستويت نصف جالسة فى الفراش ، ومددت ذراعى لأجذب الستار ، ولكن .. رحماك يارب !.. يا لها من صرخة !

فقد مزقت شمل الليل ، وهدوءه وسكونه ، صرخة مروعة حادة مدوية ، سرت فى قصر (ثورنفيلد) من أقصاه إلى أقصاه ؟!.. وكف وجيب قلبى ، بل جمد قلبى فى صدرى ، وشلت يدى الممدودة ، بينما تلاشت الصرخة ، فلم تتجدد .. وما من ريب فى أنه لم يكن فى وسع الشخص الذى أطلق هذه الصرخة المروعة — أياً كان — أن يكررها سراعاً .. بل إن الكواسر المجنحة على قمم جبال الأنديز ما كانت لتقوى على أن تطلق مثل هذه الصرخة — التى تنكمش لها السحب واجفة — مرتين متتاليتين !.. ولابد لمن يبعث مثل هذا الصوت القوى من أن يستريح قبل أن يكرر الجهد !

وكانت صادرة من الطابق الثالث ، لأنها دوت من فوق رأسى .. وفوق رأسى — أجل ، فى الحجرة القائمة فوق سقف حجرتى — لم ألبث أن سمعت عراكاً .. وكان صراعاً عنيفاً ، كما لاح لى من الضجة.

وهتف صوت نصف مختنق : « النجدة !.. النجدة !.. النجدة ! » ثلاث مرات متتابعة فى عجلة !.. ثم صاح : « ألا يأتى أحد ؟ » .. ثم تبينت خلال ألواح السقف الخشبية ، وملاط الجدران ، صوتاً يقول ، والصراع والارتطامات دائرة فى عنف وحشى : « روشستر !.. روشستر ! ألا أقبل بالله عليك ! »

وفتح باب إحدى الحجرات ، وجرى شخص ما ، أو اندفع ، فى الردهة .. وضربت قدم أرض الغرفة العليا مرة أخرى ، ثم هوى

جسم ، وساد السكون ! وكنت قد ارتديت بعض الثياب ، برغم أن الرعب كان يهز كل أطرافي ، وانطلقت من غرفتي .. وكان النائمون قد استيقظوا جميعاً ، وترددت في كل حجرة صيحات وهمهمات مذعورة .. وفتحت الأبواب ، الواحد تلو الآخر ، وغصت الردهة بالسادة والسيدات الذين هجروا مضاجعهم على السواء ، يتساءلون في ارتباك : « أوه ، ما هذا ؟ » .. « من الذي أصيب بالضر ؟ » .. « ما الذي جرى ؟ » .. « هاتوا ضوءاً ! » .. « هل شب حريق ؟ » .. « هل هناك لصوص ؟ » .. « إلى أين نجرى ؟ » .. ولولا نور القمر لكانوا في ظلام دامس .. وأخذوا يجرون هنا وهناك ، ويلمون قلوبهم .. وراح بعضهم يبكي ، وبعضهم يتعثر ، وقد سادهم اضطراب لم يجدوا سبيلا للخلاص منه .. وصاح الكولونيل دنت : « أين روشستر بحق الشيطان ؟ .. إنني لم أجده في فراشه » ، فوافاه الرد : « ها أنذا !. ها أنذا ! .. هدئوا روعكم جميعاً ، فإنني قادم ! »

ثم فتح الباب القائم في نهاية الدهليز ، وأقبل منه مستر روشستر يحمل شمعة . وكان هابطاً لتوه من الطابق العلوى ، فجرت إليه إحدى السيدات وأمسكت بذراعه .. تلك كانت مس بلانش التي سألته : « أي حادث مروع وقع ؟ .. تكلم ! .. دعنا نعلم أسوأ ما في الأمر ! » .. فأجاب : « فقط حاذرن أن توقعنني أو تخنقنني ! » .. إذ كانت ابنتا الليدى إشتون قد تعلقتا به كذلك ، بينما اندفعت السيدتان الوالدتان – ليدى انجرام وليدى إشتون – نحوه في عباءتيهما الناصعتين ، أشبه بمركبين شراعيتين .. وما لبث أن صاح : « لا شيء هناك ! .. لا شيء !

إنها مجرد محاولة لتمثيل مسرحية « أسمع جعجعة ولا أرى طحناً » لشكسبير .. ألا ابتعدن يا سيداتى ، وإلا أصبحت خطراً ! »

والواقع أنه بدا خطراً ، إذ أخذت عيناه السوداوان تطلقان الشرر بيد أنه هدأ نفسه جاهداً ، وعاد يقول : « لقد انتاب كابوس إحدى الخادمات ، وهذا كل ما هناك .. فهى مخلوقة عصبية ، سريعة الهياج ، خيل إليها – في المنام – أنها ترى شبحاً ، أو شيئاً من هذا القبيل ، فتولتها نوبة من الفزع ! .. والآن ، لابد من أن أراكم جميعاً في مخادعكم إذ لا سبيل للعناية بالخادم إلا بعد أن يهدأ المنزل ويستتب السكون .. هيا يا سادة تفضلوا فاضربوا المثل للسيدات : وإني لواثق من أن مس انجرام تستطيع التغلب على مخاوفها العقيمة . هيا يا آمي ولويزا إلى مخدعكما كحمامتين وادعتين ، وأنتما يا سيدتى (مخاطباً الوالدتين) ستصابان ببرد – بكل تأكيد – إذا بقيتما أكثر من ذلك في هذا الدهليز القارس الجو ! » .

* * *

● وهكذا استطاع بالمداهنة تارة وبالأمر تارة أخرى ، أن يحمل الجميع على العودة مرة أخرى إلى مخادعهم . أما أنا فلم أنتظر حتى يأمرني ، بل انسحبت عائدة إلى غرفتي دون أن ينتبه أحد ، كما غادرتها من قبل دون أن أثير انتباهاً .. على أنني لم أندس في فراشي ، بل شرعت – على العكس – أرتدى ثيابي باعتناء .. فلعلني كنت الوحيدة التي سمعت الجلبة التي أعقبت الصرخة ، والكلمات التي تخللتها ، لأنها كانت منبعثة من الحجرة التي تعلو مخدعي . وقد أكدت لي أن الذي

أثاع الفزع فى القصر لم يكن كابوس خادم ، وأن الإيضاح الذى ذكره مستر روشستر لم يكن سوى ابتكار منه لتهدئة جأش ضيوفه : ولذلك ارتديت ملابسى استعداداً للطوارئ ، حتى إذا انتهيت من ذلك جلست طويلا بجوار النافذة وأنا أتطلع إلى الأرض الساكنة ، والحقول المموهة بالفضة ، فى ارتقاب ما قد يحدث ، إذ خيل إلى أن حادثاً لن يلبث أن يتلو تلك الصيحة وذاك العراك وذلك النداء !

كلا .. لقد عاد السكون ، وتلاشت تدريجاً كل همهمة وكل حركة ، فلم تنقض ساعة حتى هدأ القصر هدوء الصحراء ، وكان النوم والليل قد استردا سلطانهما ، بينما أفل القمر وأوشك على الغروب .. ولم أرتح إلى الجلوس فى البرد والظلام ، ففكرت فى أن أرقد على فراشى بملابسى . ومن ثم غادرت النافذة ، واجتزت السجادة فى هدوء ، وفيما كنت منحنية لأخلع حذائى ، نقرت الباب يد حذرة ، نقراً خفيفاً ، فسألت : « هل ثمة حاجة إلى ؟ » .. وسألنى الصوت الذى توقعت أن أسمعه وأعنى به صوت سيدى : « هل أنت مستيقظة ؟ »

— نعم يا سيدى .

— وفى ملابسك ؟

— نعم .

— إذن ، فاخرجى بهدوء ؟

فأطعت .. وكان مستر روشستر واقفاً فى الدهليز ، يحمل شمعة ، فقال : « إننى أريدك ، فتعالى من هذه الناحية .. على مهل ، ولا تحدثى ضجة ! .. وكان نعلاى (شبشبى) رقيقين ، فاستطعت السير فى خفة

المرة على البلاط المكسو بالسجاد .. وتسلل السيد فى البهو ، ثم صعدنا السلم ، وما لبث أن وقف فى الردهة المظلمة ، ذات السقف المنخفض — بالطابق الثالث المشئوم — ثم سألنى هامساً : « هل لديك إسفنج فى غرفتك ؟ »

— نعم يا سيدى .

— وهل لديك أية أملاح طيارة .. نوشادر مثلا ؟

— نعم .

— ارجعى وهاتى الاثنين .

فعدت وأخذت الإسفنج من فوق حوض الماء بغرفتى ، والأملاح من درجى ، ثم قفلت عائدة مرة أخرى . وكان فى انتظارى يحمل فى يده مفتاحاً . فاقترب من أحد الأبواب الصغيرة السوداء ، وأولج المفتاح فى القفل . وتوقف يخاطبنى ثانية : « ألا تغثى نفسك لمشهد الدم ؟ »

— لا أظن وإن لم أجرب ذلك من قبل .

وسرت فى جسدى رعشة وأنا أجيبه ، وإن لم أشعر ببرد أو إعياء . فقال : « ألا أعطينى يدك ، فلن أجازف وأتركك معرضة للإغماء ! » .. ووضعت أصابعى فى يده ، فقال : « إنها دافئة ، وثابتة الأعصاب ! » . ثم أدار المفتاح ودفع الباب . ورأيت غرفة أذكر أننى شاهدتها من قبل عندما فرجتنى مسز فيرفاكس على القصر : وكانت ثمة ستارة خلف الباب ، ولكن هذه الستارة بدت الآن مشدودة إلى أنشوطة فى أحد الجوانب ، وظهر من خلفها باب كان موارباً ، يفضى إلى حجرة



وعندئذ أخذ الإسفنجة وغمسها فى الماء ، وبلل وجه الرجل الذى كان أشبه بجثة هامدة

أخرى داخلية ، كان ينبعث منها نور ، وتتصاعد منها زمجرة أشبه بكلب يتعارك . فوضع مستر روشستر شمعته وقال : «انتظرى لحظة !»

* * *

● وتقدم إلى الحجرة الداخلية ، فاستقبلته ضحكة عالية ، بدت صاخبة فى البداية ، ولكنها انتهت بقهقهة جريس بول !.. إذن فقد كانت المرأة هناك !.. وقام مستر روشستر ببعض ترتيبات ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وإن كنت قد سمعت صوتاً خافتاً يخاطبه . ثم خرج وأغلق الباب خلفه ، وأوغل فى الحجرة التى كنت أنتظره لدى بابها ، وهو يناديني : «تعالى يا جين !» .. فسرت إلى الجانب الآخر من سرير كبير ، حجبت أستاره المسدولة جزءاً كبيراً من الغرفة . وكان بالقرب من رأس السرير مقعد مريح ، جلس فيه رجل يرتدى كل ملابسه فيما عدا سترته .. وكان ساكناً ، مائل الرأس إلى الخلف ، مغمض العينين ، فرفع مستر روشستر الشمعة فوقه ، وإذ ذاك عرفت فى وجهه الشاحب — الذى يكاد يخلو من معالم الحياة — ذلك الغريب : ميسون ، كما رأيت جنبه وذراعه مخضبين بالدماء !

وقال مستر روشستر : «أمسكى الشمعة !» .. فتناولتها ، وجاء بحوض من الماء وقال : «وأمسكى هذا !» .. فأطعت . وعندئذ أخذ الإسفنجة وغمسها فى الماء ، وبلل وجه الرجل الذى كان أشبه بجثة هامدة . ثم طلب مستر روشستر قارورة (النوشادر) ، وقربها من خياشيم مستر ميسون ، فما لبث هذا أن فتح عينيه وهو يئن . فأزاح مستر روشستر قميص الجريح — الذى كانت ذراعه وكتفه مضمدتين —

ثم أزال الدماء التي كانت تتدفق بسرعة . وغمغم مستر ميسون : « هل ثمة خطر عاجل ؟ »

— أوه . كلا .. إنه خدش بسيط . فلا تضطرب يا رجل ، وتجلد !.. سآتيك بنفسي الآن بجراح ، وأرجو أن تستطيع الانتقال في الصباح من هذه الحجرة .. اسمعي يا جين ..

— سيدي ؟

— سأضطر إلى مغادرتك في هذه الحجرة مع هذا السيد نحو ساعة وربما ساعتين . وعليك أن تمسحي الدم بالإسفنجة — كما فعلت الآن — إذا عاد ينزف من جديد . أما إذا شعر السيد بالإغماء ، فضعي على شفتيه كوب الماء الذي فوق حوض الغسيل ، وقربي من أنفه قارورة أملاحك الطيارة .. وعليك ألا تتحدثي معه بأية حجة !.. وأنت يا ريتشارد ، لا تخاطبها وإلا عرضت حياتك للخطر ، ولن أكون مسئولا عما يحدث لو أنك فتحت شفتيك أو تحركت من مكانك !

وتأوه الرجل المسكين ثانية ، وبدا أنه لا يجرؤ على الحراك وكأنما شل حركته الخوف — من الموت أو من شيء آخر — وعندئذ وضع مستر روشستر في يدي الإسفنجة التي تشبعت بالدماء ، فشرعت أستعملها بمثل ما كان يفعل . وبعد أن راقبني لحظة قال : « تذكري ! لا حديث ! » .. ثم غادر الحجرة . وساورني شعور عجيب عندما دار المفتاح في القفل ، وتلاشى وقع قدميه .. هأنذي في الطابق الثالث حبيسة في إحدى حجراته المنخفضة السقف التي يحف بها الغموض .. والليل يلفني ، وتحت عيني ويدي منظر شاحب ، دموي ، ولا يكاد

يفصلني عن امرأة قاتلة سوى باب واحد !.. نعم كان ذلك مروعاً .. أما ما عداه ، فكان في مقدوري احتماله . ولكنني كنت أرتعد لمجرد التفكير في أن جريس بول قد تنقض عليَّ !

ومع ذلك ، فقد كان حتماً عليَّ أن أبقى في مكاني ، وأن أرقب هذه السحنة الشاحبة ، وهاتين الشفتين الزرقاوين اللتين حرم عليهما أن تنفرجا ، وهاتين العينين اللتين أخذتا تغمضان ، وتتفتحان ، وتجولان في الغرفة ، وتحدقان فيَّ — على التوالي بين الفينة والفينة — وقد ارتسم فيهما الهلع .. كما كان عليَّ أن أغمس يدي بين آونة وأخرى في حوض ملء بالماء والدماء ، فأمسح الدم المنسال ، وأرقب ضوء الشمعة وهو يخفت ويتلاشى ، والظلال وهي تتكاثف على الستائر العتيقة التي كانت حولي ، أو تشتد اسوداداً تحت أستار السرير الواسع القديم ، وتختلج بحركة غريبة فوق أبواب صوان كان في مواجهتي .. وكانت تلك الأبواب تحمل اثني عشر لوحاً من الزجاج ، عليها رسوم كالحة لرؤوس اثني عشر من الرسل ، يتوسط كل رأس منها لوحاً كأنه الإطار .. وكان ينتصب فوقها صليب من الأبنوس يعلوه تمثال للمسيح وهو في سكرات الموت .. وأخذت الظلال وبصيص ضوء الشمعة يرسمان أشكالا وهما يهتزان ويحومان هنا وهناك ، فتمثلت لي صورة الطبيب الملتحي (لوك) وهو يحني رأسه ، وصورة القديس (يوحنا) بشعره الطويل المتموج ، ووجه (يهوذا) الشيطاني المقيت وقد تبدى خارجاً من أحد الألواح الزجاجية ولاح أنه يوشك أن ينجلي عن صورة الشيطان نفسه !.. ووسط كل هذا ، كنت مضطرة إلى أن

أنصت كما كنت أرقب .. أن أنصت إلى حركات تلك الوحشة الكاسرة أو الشيطانة القابعة فى مخدعها ، بالحجرة الداخلية .. على أنها — منذ زيارة مستر روشستر — كانت ساكنة ، وكأنما استولى عليها سحر غريب ، فلم أسمع طيلة الليل سوى أصوات ثلاثة ، فى فترات متباعدة صريف حاد صدر عن ألواح خشبية ، وزمجرة رهيبة كتلك التى سمعتها فى البداية وكأنها منبعثة من كلب ، وأنين آدمى عميق !

* * *

● وما لبثت أفكارى أن أزعجتنى ، إذ رحت أتساءل : أية جريمة هذه التى تعيش متجسدة فى هذا القصر المنعزل ، دون أن يقوى صاحبه على إقصائها أو إخضاعها ؟.. وما هذا السر الذى يتجلى مرة فى شكل حريق ، ومرة أخرى فى صورة دماء فى سكون الليل ؟.. وأى مخلوقة هذه التى تنكرت فى صورة وشكل امرأة عادية تنطق كأنها شيطانة ساخرة ، أو طائر من الطيور الجارحة التى تجرى وراء الرمم ؟.. ثم هذا الرجل التافه ، الأجنبى ، الغريب ، الذى كنت أعنى به .. ما الذى زج به فى هذا الشرك من الرعب والفزع ؟.. ولماذا انصب عليه الحنق والغيظ ؟.. وماذا جاء به إلى هذا الركن من القصر فى وقت غير ملائم كان يجب أن يكون فيه ملازماً فراشه ؟.. لقد سمعت مستر روشستر يختار له حجرة بالطابق الأسفل ، فما الذى جاء به إلى هنا ؟ وما الذى جعله الآن وادعاً ذلولا إزاء الغدر العنيف الذى أحاق به ؟ ولماذا يتصامح فى هدوء إلى هذا المخبأ الذى أكرهه مستر روشستر على الاحتماء فيه ؟ ولماذا اختار له مستر روشستر هذا المخبأ بالذات ليدفعه إليه

دفعاً ؟.. لقد تعرض ضيف السيد للعدوان ، بل إن حياة السيد نفسه تعرضت فى مناسبة مضت لمؤامرة أثيمة ، ولكنه حاول أن يتستر على كل من الحادثين ، وأن يدفعهما إلى الظلام والنسيان ، فلماذا ؟ وهأنذى أخيراً أرى مستر ميسون يخضع لمستر روشستر ، وأرى إرادة الأخير القوية تسيطر سيطرة تامة على جمود الأول ، فقد أكد لى ذلك ما دار بينهما من حديث قصير ، كما بدا لى من لقائهما الأول تأثير مستر روشستر فى الآخر ، فلماذا اكتأب السيد عندما سمع نبأ وصول مستر ميسون ؟ ولماذا كان لمجرد ذكر اسم ذلك الرجل — الذى لا يعرف المقاومة وليست له إرادة — وقع الصاعقة على نفس روشستر منذ بضع ساعات؟ آه ، إننى لن أستطيع أن أنسى نظرته وشحوبه عندما همس إلىّ : « لقد أصابتنى صدمة يا جين ! » ، ولن أستطيع أن أنسى كيف كانت ذراعه ترتعد وهو يعتمد بها على كتفى !.. لم يكن أمراً خفيفاً ذلك الذى أمكنه أن يحى روح فيرفاكس روشستر القوية ، وأن يهز كيانه المتين :

وعندما طال الليل وطال ، صحت فى أعماقى : « متى يأتى ؟ متى يأتى ؟ » .. فقد كان مريضى الذى يدمى ، يهن ويئن دون أن يأتى النهار أو يأتى العون . وكم رفعت المياه إلى شفتى ميسون الشاحبتين ، وكم قدمت له الأملاح المنعشة ، فكانت جهودى تذهب سدى ، لأن قواه أخذت تخور بسرعة ، سواء لفرط آلامه الجثمانية والعقلية ، أو بسبب ما فقده من دماء ، أو لهذين السببين معاً . ومن ثم أخذ أنينه يزداد ، وتبدى عليه الخور ، واهتاج كأنه هالك لا محالة ، فخشيت أن يكون مشرفاً على الموت قبل أن أستطيع حتى مخاطبته .

وأخيراً ، انطفأت الشمعة ، وفيما كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، شاهدت خيوطاً من الضياء فوق أهداب ستائر النافذة ، فأدركت أن الفجر يقترب ، وسرعان ما سمعت بايلوت ينبح خارج بيته البعيد فى الحديقة ، فانتعش الأمل فى قلبى .. ولم يذهب هذا الأمل عبثاً ، إذ لم تمض خمس دقائق أخرى حتى سمعت المفتاح يولج والقفل يفتح ، بشيراً بأن مهمتى فى المراقبة قد انتهت ، وهى مهمة لا يمكن أن تكون قد استغرقت أكثر من ساعتين ، وإن خلت أنها ظلت أسابيع طويلة .

ودخل مستر روشستر ومعه الجراح الذى ذهب لاستدعائه ، ثم قال لهذا الأخير : « والآن انتبه يا كارتر إلىّ ، إننى لن أمنحك سوى نصف ساعة لتضميد الجرح وعصب الضمادة ونقل الجريح إلى أسفل ، وإتمام كل شىء ! »

— ولكن ، هل هو يقوى على الانتقال يا سيدى ؟

— بلا شك فليس الأمر خطيراً ، ولكنه عصبى ولابد من تهدئة نفسه . تعال اشرع فى عملك !

ثم جذب مستر روشستر الستارة الكثيفة ، ورفع (الشيش) ليدع الضوء ينفذ ما استطاع . وأدهشنى وأبهج نفسى زحف الفجر ، إذ رأيت خيوط النهار الوردية تشرع فى إضاءة الشرق .. ثم اقترب مستر روشستر من ميسون ، الذى أخذ الجراح يضمد له جراحه ، وسأله : « والآن يا صديقى الطيب ، كيف حالك ؟ » .. فأجابه بصوت واهن : « أخشى أن تكون قد قضت علىّ ! »

— لا شىء إطلاقاً .. تشجع ! لن يمضى أسبوعان حتى تسترد

صحتك . كل ما هنالك أنك فقدت قليلاً من الدم . أكد له يا كارتر أن لا خطر عليه .

فقال كارتر وقد انتهى من حل الضمادات : « فى وسعى أن أؤكد له ذلك وضميرى مرتاح .. فقط كنت أود أن أكون هنا قبل الآن ، حتى أوفر عليه كل الدم الذى فقده ، ولكن ما هذا ؟.. إن لحم الكتف ممزق ، ومقطوع كذلك !.. لم ينشأ هذا الجرح من سكين .. هذا أثر أسنان ! » .. فتمتم ميسون : « لقد عضتنى .. انقضت علىّ كنمرة ضارية عندما انتزع منها روشستر السكين » .. وقال روشستر : « كان يجدر ألا تستسلم ، بل كان واجباً أن تصارعها فى الحال » .. فأجاب ميسون : « ولكن ما الذى يمكن الإنسان أن يفعله فى مثل هذه الظروف ؟.. كان الأمر مخيفاً ! » .. وارتجف وهو يسترسل قائلاً : « ولم أكن أتوقع منها ذلك لأنها كانت فى البداية بادية الهدوء تماماً » .. فكان رد صديقه : « لقد أنذرتك ، وطلبت منك أن تكون على حذر عندما تقترب منها .. هذا إلى أنه كان فى وسعك أن تنتظر إلى الغد لأكون معك . كانت حماقة منك أن حاولت مقابلتها الليلة .. وحدك ! »

— كنت أعتقد أننى أستطيع القيام بعمل ذى فائدة .

— تعتقد !.. تعتقد !.. إننى أضيق بسماع ذلك ، ومع هذا فهأنتذا قد قاسيت وسوف تقاسى كثيراً ما لم تستمع إلى نصيحتى ، ولن أقول شيئاً بعد ذلك . هيا أسرع يا كارتر .. أسرع !.. فسوف تشرق الشمس بعد قليل ، ويجب أن أراه وهو ينصرف .

— حالا ياسيدى .. لقد ضمدت الكتف ، ويجب أن أهتم

بهذا الجرح الآخر فى ذراعه ، أظنها قد أعملت أسنانها هنا أيضاً .

فقال ميسون : « لقد امتصت دمى وهددت بأن تستنزف دماء قلبى ! » .

* * *

● وشاهدت مستر روشستر يرتعد وقد تجلت عليه صورة عجيبة من الاشمئزاز والرعب والكراهية كادت تشوه أساريره ، ولكنه اكتفى بأن قال : « هيا التزم الصمت ياريتشارد ولا تهتم بترديد هذيانها » .. فكان الجواب : « ليتنى أقوى على نسيانها ! » .

— ستنساها عندما تغادر البلاد ، وفى وسعك متى عدت إلى جمايكا أن تحسبها قد ماتت ودفنت ، أو بالأحرى لاحاجة بك إلى التفكير فيها على الإطلاق !

— يستحيل أن أنسى هذه الليلة !

— هذا غير مستحيل : تشجع قليلا يا رجل ، فقد حسبت منذ ساعتين أنك قد مت وغدوت كسمكة مقددة ، ومع ذلك فهأنتذا حى تتحدث إلينا .. ها قد انتهى كارتر منك أو كاد ، وسوف أعيد إليك هندامك حالا (ثم التفت نحوى لأول مرة منذ عودته وقال) خذى هذا المفتاح ياجين ، واذهبى إلى مخدعى فامضى مباشرة إلى خزانة ملابسى ، وافتحى درج الصوان فأخرجى قميصاً نظيفاً ورباط رقبة ، وهاتيهما إلى هنا .. هيا أسرعى ! » .

فذهبت وبحثت عن الخزانة والدرج اللذين ذكرهما ، وتناولت ما طلبه ثم عدت به فقال : « والآن اذهبى إلى الجانب الآخر من الفراش ،

إلى أن ينتهى من زينته ، ولكن لا تغادرى الحجرة فقد أحتاج إليك ثانية ! » .. فانسحبت إلى حيث وجهنى ، وسرعان ما سألنى : « هل كان إنسان ما يتحرك فى الطابق الأسفل عندما هبطت إليه ؟ » .

— كلا يا سيدى . كان كل شىء هادئاً ساكناً .

— سننقلك بحذر من هنا يا ريتشارد ، لصالحك وصالح تلك المخلوقة الشقية . لقد ناضلت طويلا لتحاشى التعريض والتشهير ، ولا أريد أن يحدث شىء من ذلك أخيراً .. هيا يا كارتر وساعده على ارتداء صداره .. أين تركت معطفك الفرو ؟ .. إنك لا تستطيع الرحيل ميلا واحداً بدونه فى هذا الطقس اللعين البرودة . أهو فى حجرتك ؟ اجرى يا جين واهبطى إلى حجرته المجاورة لحجرتى ، فأحضرى المعطف الذى تزينه هنالك !

وجريت مرة أخرى .. ومرة أخرى عدت وأنا أحمل معطفاً ضخماً مبطناً ومذيلا بالفراء ، فقال سيدى الذى لا يعرف التعب : « لدى مهمة أخرى لك : يجب أن تعودى إلى حجرتى مرة أخرى . إنك للأسف قد غدوت بلون المخمل ، ولن ينفعنا فى وقت الشدة رسول أعرج !.. اذهبى إلى الدرج الأوسط فى منضدة زينتى . فأخرجى منه قارورة صغيرة وكأساً صغيرة تجدينهما هنالك .. أسرعى ! » .. فجريت وعدت أحمل الوعاءين المطلوبين فقال : « هذا حسن . والآن سآخذ مطلق الحرية يا دكتور فى إعداد جرعة بمعرفتى وعلى مسئوليتى الخاصة . هذا دواء منعش اشتريته فى روما من دجال إيطالى كان يمكن أن تركله بقدمك : وهو شىء يا كارتر لا يستعمل بلا تمييز وبلا حساب ، ولكنه يصلح

فى حالة كهذه على سبيل المثال .. قليلا من الماء ياجين ! » .. ثم مد يده بالكأس الصغيرة فملأتها له حتى النصف ، فقال : « هذا يكفى . والآن بلى حافة فوهة القارورة » . فلما فعلت قطر اثنى عشرة قطرة من سائل قرمزى اللون ، ثم قدمها إلى ميسون قائلا : « اشرب يا ريتشارد وسيمنحك هذا الشجاعة التى تعوزك لساعة أو أكثر ! » .

— سوف يؤذينى لأنه ملهب !

— اشرب ! اشرب ! اشرب !

وأخيراً رضخ ميسون ، بعد أن وجد ألا فائدة من المقاومة . وكان قد انتهى من ارتداء ملابسه إذ ذاك . ولكنه لم يعد ملطخاً بالدماء أو مكتئب الأسارير . وبعد أن تجرع الدواء ، وانقضت ثلاث دقائق ، تناول مستر روشستر ذراعه وقال : « الآن ، أنا واثق من قدرتك على الوقوف على قدميك .. حاول ! » .. فنهض الجريح . وقال مستر روشستر مستطرداً : « أسنده ياكارتر من تحت الكتف الأخرى . وأنت ياريتشارد ، أبسط أساريرك واخط إلى الأمام .. هكذا ! » .. فغمغم مستر ميسون : « إنى أشعر بتحسن فعلا ! » :

— أنا واثق من ذلك . والآن ، سيرى أمامنا ياجين إلى السلم الخلفى وافتحى باب الممر الجانبى . ثم اطلبى من سائق مركبة البريد أن يستعد لقدومنا . وسوف تجدينه فى الفناء ، أو فى الخارج غير بعيد ، لأنى أمرته بألا يقترب بعربته من الرصيف . وإذا شاهدت أحداً هنا أو هناك فتعالى إلى قاعدة السلم و (تنحنحى) .

* * *

● وكانت الساعة قد بلغت — إذ ذاك — الخامسة والنصف ، وأوشكت الشمس على الشروق ، ولكنى وجدت المطبخ مازال مظلماً ساكناً ، وباب الممر الجانبى مغلقاً ، ففتحته بأقل ضوضاء ممكنة . وكان الهدوء يغشى الفناء ، ولكن البوابات كانت مفتوحة على مصاريعها . وشاهدت العربة فى الخارج وقد تأهبت الجياد وجلس السائق فى مقعده ، فاقتربت وأبلغته بأن السيد قادم ، وأومأ برأسه . فتطلعت حوالى بعناية واهتمام ، ثم أنصت فوجدت السكينة ما زالت تغمض العيون ، وستائر نوافذ الخدم ما تزال مسدولة ، وقد شرعت الطيور تنقشق فى أشجار الحديقة المزدهرة ، التى مالت أغصانها كأكاليل بيضاء ، على الجدار الذى كان يؤلف جانباً من سياج الفناء . وكانت جياد العربة تضرب الأرض بأقدامها من حين إلى آخر .. وفيما عدا ذلك كان السكون يكتنف كل شىء .

واقترب السيد إذ ذاك مستنداً إلى مستر روشستر والجراح ، ولكنه كان يسير بسهولة ويسر ، ثم ساعده الرجلان حتى ركب العربة ، وتبعه كارتر ، وعندئذ قال مستر روشستر للجراح : « اعتن به وأبقه فى منزلك حتى يسترد صحته تماماً ، وسآتى بعد يوم أو اثنين لأرى كيف حاله .. وأنت يا ريتشارد ، كيف حالك ؟ » :

— إن الهواء العليل ينعشنى يا فيرفاكس .

— حسناً . دع النافذة مفتوحة من هذا الجانب يا كارتر ، فليست ثمة رياح . فى حفظ الله ياديك !

— يافيرفاكس ...

– ماذا ؟

– اعتن بها وعاملها برفق ما استطعت ودعها ...

ثم توقف وانفجر في البكاء ، فأجابه مستر روشستر : « سأبذل قصاراى وسأنفذ ما تريد » .. ثم أغلق الباب ومضت العربة في طريقها . وفيما كان مستر روشستر يغلق أبواب الفناء ، قال : « لكم أتمنى على الله أن ينتهي ذلك كله ! » .. ثم سار يخطو ببطء نحو باب في الجدار المحيط بالحديقة . وكنت أحسب أنه قد فرغ منى ، فتأهبت للعودة إلى القصر ، ولكننى ما لبثت أن سمعته ينادى : «ياجين» ! .. وكان قد فتح البوابة ووقف ينتظرنى ثم قال : « تعالى حيث يوجد بعض الهواء المنعش .. لبضع دقائق .. فإن القصر مجرد سجن .. ألا تشعرين بذلك ؟ » .

– إنه يبدو لى قصراً منيفاً يا سيدى .

فأجاب : « إن عينيك يغشاهما نقاب من عدم الخبرة والتجربة ، ومن ثم فأنت ترين الأمور خلال طبقة سطحية زائفة السحر ، لا تتبينين معها أن القشرة الذهبية مادة لزجة غروية ، وأن الجوخ الناعم مجرد نسيج عنكبوت ، وأن الرخام حجر أردوازى خسيس ، وأن الأثاث المصقول مجرد نفايات من الخشب ولحاء خشن . أما هنا (وأشار إلى خلوة مورقة دخلناها) فكل شيء حقيق جميل نقى » .. وأخذ يتمشى فى طريق تغشى حواشيه أشجار البقس والتفاح والكمثرى والكريز من جهة ، وتحف به من الجانب الآخر شتى أنواع الزهور التى تزدهر وتتألق بعد أمطار أبريل وإشراق الربيع الجميل .. وكانت الشمس إذ ذاك تصعد فى

الشرق ، وقد أضاءت بنورها أشجار الحديقة النابتة المزهرة وما تحتها من ممماش وطرقات هادئة .

– هل لك فى زهرة ياجين ؟

وقطف أول زهرة على الغصن وقدمها إلىَّ ، فقلت : « أشكرك يا سيدى ! » .

– هل تحبين هذه الشمس المشرقة ياجين ؟ .. وهذه السماء بسحبها العالية الخفيفة ، التى ستنقشع حتماً عندما تدفأ أوصال النهار ، وهذا الطقس الهادئ العليل ؟

– نعم .. أحبها كل الحب .

– لقد قضيت ليلة ليلاء ياجين ؟

– نعم يا سيدى .

– ولقد امتقع وجهك بسببها .. هل خفت عندما تركتك وحدك مع ميسون ؟

– خفت أن يخرج أحد من الحجرة الداخلية .

– ولكنى أغلقت الباب جيداً وحملت المفتاح فى جيبى . إننى أكون راعياً مهملاً إذا أنا تركت حملا – حملى العزيز المدلل – على مقربة من كهف ذئب كاسر دون حراسة ! .. لقد تركتك فى مأمن !

– هل ستظل جريس عائشة هنا يا سيدى .

– أوه . نعم . لاتشغل بالك بها .. أقصها من رأسك .

– ومع ذلك يبدو أن حياتك ستظل فى خطر ما بقيت هذه المرأة هنا .

– لا تخافى أبداً فسوف أهتم بنفسى .

— هل ذهب الآن يا سيدى ذلك الخطر الذى كنت تخشاه ؟

— لا أستطيع الجزم بذلك حتى يخرج ميسون من انجلترا .. ولا حتى بعد ذلك ! .. إن من يريد الحياة لأجلى إنما يقف على أديم بركان قد ينفجر يوماً ويرسل حمماً من نار .

— ولكن مستر ميسون يبدو رجلا سلس القيادة ، واقعاً تحت تأثيرك بحيث لا يقوى إطلاقاً على أن يتحداك أو يتعمد إيذاءك .

— أوه .. كلا ؟ إن ميسون لن يتحدانى ولن يمسنى عامداً بأذى ولكنه ربما تسبب عن غير قصد ، وبكلمة يتفوه بها ، فى حرمانى إلى الأبد من السعادة ، إن لم يكن من حياتى !

— اطلب منه يا سيدى أن يكون على حذر .. دعه يعرف ما تخشاه ، بين له كيف يتحاشى الخطر .

فضحك فى استخفاف ، وأسرع يتناول يدى ، ولكنه سرعان كذلك ما ألقاها عنه قائلا : « إذا كان هذا فى وسعى يا ساذجة فمن أين يتأتى الخطر ؟ خطر الموت والإعدام فى لحظة واحدة ؟ .. منذ عرفت ميسون وأنا أقول له : « افعل هذا » فيفعله ، ولكنى لا أستطيع أن ألقى عليه أوامرى فى هذا الصدد .. لا يمكن أن أقول له : « حذار من إيذائى يا ريتشارد ! » .. إذ يجب أن يجهل أن إيذائى أمر ممكن . والآن يبدو لى أنك حائرة ولن أحيرك أكثر من هذا .. إنك صديقتى ، ألست كذلك ؟ » .

— بودى أن أخدمك يا سيدى وأن أطيعك فى كل ما هو حق .

— تماماً .. أراك تفعلين ذلك ، وأرى آيات الرضاء التام فى مشيتك

وفى طلعتك وفى عينيك ووجهك عندما تعاونيننى وتحاولين إرضائى وتعملين من أجلى ومعى « فى كل ما هو حق » كما تقولين .. ولو أننى طلبت إليك أن تفعلى ما ترينه خطأ لما تجلت عليك إمارات النشاط فى خطوك الرشيق ، ولا هذه الخفة فى يديك النظيفتين ، ولا هذه الحياة والملاحة فى أساريرك ، ولاستدارت صديقتى بوجه هادئ شاحب قائلة : « كلا يا سيدى . هذا مستحيل . لا أستطيع أن أعمل ذلك لأنه يجافى الحق والصواب ! » ، دون أن يزعزعها أو يغيرها شىء . وكأنها نجم ثابت فى مكانه . وأنت .. إن لك سلطاناً علىّ ، وفى وسعك أن تؤذينى ، ومع ذلك لا أجرؤ على أن أكشف لك عن موضع الضعف والألم فى نفسى ، خشية أن تطعنينى فى الحال بالرغم من إخلاصك وصداقتك !

— إذا كانت خشيتك من مستر ميسون لا تعدو خوفك منى فاطمئن إلى سلامتك يا سيدى .

— هذا ما أرجوه من الله .. هذه ظلة ياجين فاجلسى !

* * *

● وكانت الظلة عبارة عن قبو فى الجدار ، مبطن بأشجار العليق ، وتضم أريكة قديمة جلس عليها مستر روشستر بحيث أفسح لى مكاناً إلى جانبه ، ولكنى وقفت أمامه فقال : « اجلسى فإن الأريكة طويلة تتسع لنا نحن الاثنين .. لا ترددى فى الجلوس بجانبى . أليس كذلك ؟ هل هذا يجافى الحق والصواب يا جين ؟ » .. فرددت بالامتثال لأننى رأيت فى الرفض ما لا يتفق مع الحكمة .

— والآن يا صديقتى الصغيرة ، بينما الشمس تشرب الندى ، وبينما الزهور جميعها فى هذه الحديقة تصحو من غفوتها وتترعرع ، والطيور تجيء لصغارها بالفطور من حقل الغلال ، والنحل يشرع مبكراً فى أولى نوبات عمله ، سأضع بين يديك قضيتى التى يجب أن تعتبريها قضيتك .. ولكن انظرى إلىَّ أولا ، وخبرينى أنك مرتاحة لا تحسبينى مخطئاً فى احتجازك ، وأنك لست مخطئة فى بقائك :

— كلا يا سيدى . أنا راضية .

— إذن استعينى بخيالك وافرضى أنك لم تعودى فتاة حسنت تربيتها ونشأتها ، وإنما أنت فتى شرس انغمس منذ نعومة أظفاره فى المظاهر الزائفة . وتخيلى نفسك فى بلد أجنبى بعيد ، وتصورى أنك ارتكبت هنالك خطيئة كبرى تتبعك عواقبها الوخيمة — مهما تكن طبيعتها أو الدوافع إليها — طوال العمر وتنغص عليك حياتك . تذكرى أننى لم أقل « جريمة » ، وأننى لا أتحدث عن إراقة دم أو أى عمل إجرامى آخر يجعل مرتكبه مسئولا أمام القانون ، ولكنى أقول « خطيئة » . ولقد غدت نتائج هذه « الغلطة » لا تطاق ، ولا سبيل إلى التخلص منها ومن عذابها : وتظلين تتخذين التدابير للخلاص ، وهى تدابير غير عادية ولكنها لا تنافى القانون ولا تدعو للوم ، ومع ذلك فأنت تعسة بائسة ، لأن الأمل قد أغلق فى وجهك وأنت مازلت على أبواب الحياة ، ولأن شمس حياتك قد كسفت فى رائعة النهار ولا أمل فى أن تشرق من جديد قبل أن يأتى المساء ويحين الغروب .. وأصبحت الجماعات الوضيعة القذرة هى الغذاء الوحيد للذكرى ، فإذا بك تهيمين على وجهك هنا

وهناك بحثاً عن الراحة فى هذا المنفى ، وتنشدين السعادة فى اللهو ، وأعنى اللهو الجثمانى الشهوانى الذى لا يمت إلى القلب بصلة ، ولذلك فهو يظلم العقل ويؤذى الشعور .. ثم تعودين إلى وطنك بعد سنوات من النفى الاختيارى ، وأنت مثقلة القلب ، كسيرة الوجدان ، لتجدى صديقاً جديداً — لايهم كيف تجدينه ولا أين — وتلمسى فى هذا الغريب كثيراً من الفضائل الطيبة والسجايا المشرقة التى ظللت تبحثين عنها عشرين عاماً دون أن تهتدى إليها .. وكلها طاهرة نقية لاغبار عليها ولا وصمة تشينها مثل هذه الصحبة ، تحيى موات النفس وتجدد القلب ، فتشعرين بأن أيامك الحلوة قد عادت ومعها أمانيك العالية وأحاسيسك النقية ، وترغبين فى أن تبدئى حياتك من جديد ، لتقضى بقية العمر فى سعادة خليقة بإنسان خالد .. ولكن ، هل يجوز لك — لتبلغى هذه الغاية — أن تتخطى عقبة العادات .. تلك العقبة التى لا يقرها ضمير ولا يتقبلها عقل وتمييز ؟

وتوقف فى ارتقاب الرد ولكن ماذا كان عساى أن أقول ؟.. ومن أين كانت لى القدرة على اقتراح جواب حكيم مقنع ؟.. ياله من طموح عابث !.. وهبت رياح الغرب فى أشجار العليق المحيطة بى ، ولكن روحاً من الأرواح الرقيقة لم تعرنى لسانها لأقوى على النطق ، بينما راحت الأطيار تغنى على منابر الأشجار . وإن كان غناؤها — على حلاوته — غير واضح الألفاظ .. وعاد مستر روشستر يطرح سؤاله : « هل يجوز لهذا الشريد الخاطئ — وقد غدا يبحث عن الراحة ويبرؤه الندم — أن يتحدى العالم ليضم إليه هذا الغريب الرقيق الأنيس ، كيما يسترد لنفسه

راحة البال ويجدد حياته ؟ » .. فأجبته : « إن راحة الشريد وإصلاح الخاطىء لايتوقفان — يا سيدى — على رفيق من المخلوقات ، لأن الرجال والنساء يموتون ويقضون ، ولأن الفلاسفة يخطئون فى حكمهم والأتقياء قد يتخبطون فى طيبتهم وإخلاصهم ، فإذا كان بين من تعرفهم شخص يتعذب ويشعر بأنه مخطىء ، فانصحه أن يتطلع إلى ما فوق أنداده فى التماس القدرة على إصلاح ذات نفسه وشفاء أمراضه .

— ولكن الأداة ! .. الوسيلة ! .. إن الله الذى يفرض العمل ، يهيىء له الوسيلة . لقد كنت أنا — وهذه حقيقة وليست على سبيل المثال — رجلا دنيوياً شهوانياً لا يقر له قرار ، وأعتقد أننى اهتديت إلى الأداة لشفائى من ..

* * *

● وسكت ، بينما مضت الطيور فى تغريدها ، وأوراق الشجر فى حفيفها ، وكنت أعجب : كيف لا تتوقف عن شدوها وهمسها لتلتقط هذا الاعتراف المعلق على شفتى الرجل . ولكنها كانت خليقة بأن تنتظر طويلا ، لأن الصمت طال . وأخيراً رفعت رأسى إلى المتحدث المتلكىء الذى كان يلتهمنى بأنظاره . وما لبث أن قال بلهجة أخرى ، وبأسارير غير أساريره السابقة إذ زايلتها الرقة والرزانة وغدت فظة متهكمة : « لقد لاحظت ولعى الرقيق بمس انجرام ، فهل تعتقدين أنها تستطيع أن تلهب فى قلبى نار الانتقام ، إذا أنا تزوجت منها ؟ » .. ثم نهض على الفور وسار إلى نهاية الممشى ، وما لبث أن عاد يدندن بإحدى النغمات . وإذ وقف أمامى قال : « جين ! جين ! إنك شديدة الشحوب

من جراء السهر الطويل ، فهل تسخطين علىّ لإقلاق راحتك ؟ » :

— أسخط عليك ؟ .. كلا يا سيدى !

— صافحينى إذن ، تأكيداً لقولك .. يا لأصابعك الباردة ! لقد كانت دافئة فى الليلة الماضية عندما لمستها عند باب الغرفة السرية ! والآن متى تسهرين معى مرة أخرى ياجين ؟

— متى كانت لى فائدة يا سيدى .

— قبل ليلة زواجى مثلا ، حين لا أقوى على النوم ؟ أتعدينى بالجلوس معى واحتمال رفقتى ؟ .. إليك أستطيع التحدث عن (محبوبتى) لأنك رأيتها وعرفتها !

— نعم يا سيدى .

— إنها نادرة . أليس كذلك ياجين ؟

— هو ذلك يا سيدى .

— هيفاء .. هيفاء حقيقة ياجين : فارعة ، سمراء ، ممتلئة صحة وعافية ، ويشبه شعرها شعر سيدات قرطاجنة .. يا إلهى ! ها هما دنت ولين فى حظائر الخيل ! اذهبى عن طريق الدغل ، خلال هذا الباب الصغير !

فذهبت من طريق ، ومضى هو من طريق آخر . وسمعته فى الفناء يقول فى ابتهاج : « لقد بكر ميسون عنكم جميعاً فى الصباح ، ورحل قبل أن تشرق الشمس ، وقد صحوت فى الرابعة لأودعه » .

* * *

الفصل الحادى والعشرون

● إن الهواجس أمور غريبة .. وكذلك العواطف والمشاركة الوجدانية ، والسمات .. وهذه الأمور الثلاثة مجتمعة ، تؤلف لغزاً واحداً ، لم توفق الإنسانية إلى حله بعد . إننى قط لم أخل من الهواجس فى حياتى ، لأننى خبرت ألواناً غريبة منها . كما أننى أؤمن بوجود العواطف ، التى تحير مظاهرها العقل البشرى ، ومثال ذلك ما يحدث بين قوم بعدت الشقة بينهم ، وطال غيابهم ، أو بين أقارب يعيشون أغراباً بعضهم عن بعض ، ولكنهم على تباعدهم يعززون وحدة الأصل – الذى ينتسب إليه كل منهم – إذا ما قدر لهم أن يلتقوا .. أما السمات ، أو النذر الخفية ، فخليق بنا أن نعرف أنها ليست سوى مشاركة وجدانية بين الطبيعة والإنسان !..

ولقد حدث عندما كنت صغيرة ، لا أتجاوز السادسة من عمرى ، أن سمعت (بيسى ليفن) – المربية بقصر (جيتسهيد) – تقول ذات ليلة لخادم (مارثا آبوت) إنها رأت فى المنام طفلاً صغيراً ، وأن رؤية الأطفال فى الأحلام نذير مؤكد بمتاعب توشك أن تحل بالمرء ، أو أحد أقاربه . وكان من المحتمل أن ينمحى هذا الحديث من ذاكرتى ، لولا أن وقع فى أثره مباشرة ظرف ألصقه بذاكرتى ، إذ دعيت بيسى فى اليوم التالى إلى أهلها ، حيث كانت أختها الصغيرة تحتضر !

وكثيراً ما تذكرت هذا الحادث وذلك الحديث ، فى الفترة الأخيرة إذ لم تكن تمر بى ليلة – خلال الأسبوع الماضى – دون أن أحلم بطفل وليد ، أهدهده أحياناً بين ذراعى ، أو أدلله على ركبتى فى أحيان أخرى ، أو أرقبه وهو يلعب بالزنابق فى المروج ، أو يغمس يديه

فى المياه الجارية .. وكنت أراه طفلاً كثير العويل فى إحدى الليالى وطفلاً ضاحكاً فى ليلة أخرى ، يتمسح بى أحياناً ، ويهرب منى أحياناً أخرى . وكيفما تشكلت الرؤيا ، وأياً كان موضوعها ، فإنها ظلت تعقبنى سبع ليال متوالية ، تواتينى بمجرد دخولى عالم النعاس !

ولم يستهونى ذلك التكرار لفكرة واحدة .. ذلك التواتر الرتيب لصورة لا تتغير ، حتى لقد غدت أعصابى تهتاج كلما حان موعد إيوائى للفراش واقتربت ساعة ظهور الرؤيا . ولقد كنت فى رفقة طيف هذا الطفل عندما صحوت فى تلك الليلة المقمرة على صرخة ميسون . وبعد ظهر اليوم التالى ، دعيت للنزول إلى الطابق الأسفل ، لأن شخصاً كان يريدنى فى حجرة مسز فيرفاكس . وهناك وجدت رجلاً ينتظرنى ، ويبدو من مظهره أنه خادم لأحد السادة .. وكان يرتدى ثوب الحداد ، ويمسك بيده قبعة حولها شريط أسود . فلما رآنى ، وقف قائلاً : « أغلب الظن أنك لا تكادين تذكريننى يا آنسة ، ولكن اسمى ليفن ، وقد عملت حوذياً لدى مسز ريد عندما كنت فى (جيتسهيد) منذ ثمانى أو تسع سنوات ، وما زلت أعمل هنالك حتى الآن » .

– أوه . روبرت !.. كيف حالك ؟ إننى أذكرك جيداً ، فقد كنت أحياناً تسمح لى بأن أركب فرس مس جورجيانا ، وكيف حال بيسى ؟ .. إنك متزوج ؟

– نعم يا آنسة . إن زوجتى موفورة الصحة ، فشكراً ، وقد ولدت لى طفلاً آخر منذ شهرين ، فصار لدينا الآن ثلاثة .. وهم وأمهم بخير !

– وهل الأسرة فى القصر بخير كذلك يا روبرت ؟

— يؤسفنى أننى لا أحمل لك أنباء سارة عنهم . لأنهم الآن فى حالة سيئة جداً .

فقلت وأنا أرنو إلى ملابسه السوداء : « أرجو ألا يكون قد مات أحد منهم .

— لقد مات مستر جون فى مثل البارحة من الأسبوع الماضى بمسكنه فى لندن .

— مستر جون ؟

— نعم .

— وكيف احتملت أمه المصاب ؟

— لم يكن يا آنسة مصاباً عادياً ، فقد كانت حياته غاية فى التهور ، إذ انغمس فى السنوات الثلاث الأخيرة فى مسالك عجيبة ، وكانت وفاته فاجعة !

— سمعت من بيسى أنه لم يكن يحسن التصرف .

— يحسن التصرف ؟.. لم يكن هناك أسوأ مما فعل ، فقد قضى على صحته وأمواله بين أسوإ الأقران من رجال ونساء ، وغرق فى الديون ودخل السجون .. ولقد أعانته أمه مرتين ، ولكنه كان يعود — كلما أطلق سراحه — إلى رفاقه القدامى وعاداته السابقة . ولم يكن عقله سليماً فاستغله الأوغاد الذين كان يعيش بينهم ، إلى أكثر مما سمعت .. وقد جاء إلى (جيتسهيد) منذ حوالى ثلاثة شهور ، وطلب إلى والدته أن تتنازل له عن كل شىء ، فرفضت بعد أن قلت مواردها كثيراً بسبب إسرافه وتبذيره ، فارتد عائداً ، ولم يسمع به أحد حتى جاءنا خبر موته ؛

ولا يعرف غير الله كيف مات ، ولكنهم يقولون إنه انتحر !

* * *

وأخلدت إلى الصمت لأن الخبر كان مروعاً ، فاستطرد ليفى يقول : « ولقد كانت سيدتى ذاتها معتلة الصحة من زمن ، فهى وإن ازدادت بدانة ، إلا أنها لم تكن قوية . وكان ضياع الأموال ، والخوف من الفقر يحطمانها .. ثم هبط عليها موت جون والطريقة التى قضى بها هبوط الصاعقة ، ففقدت النطق ثلاثة أيام . ولكن يبدو أن حالتها تحسنت فى يوم الثلاثاء الماضى ، إذ أظهرت أنها تريد أن تفضى بشىء ، وظلت تبدى إلى زوجتى إشارات وهى تتمتم ، إلى أن فهمت بيسى بالأمس فقط أنها تنطق باسمك . وأخيراً تفوهت قائلة : « جيئونى بجين .. ابحثوا عن جين إير .. أريد أن أتحدث إليها ! » . ولم تكن بيسى واثقة من أنها فى تمام عقلها ، ومن أنها تعنى ما قالت ، ولكنها أخبرت ابنتيها ، وأشارت عليهما بدعوتك ، فأهملت الابنتان الأمر فى البداية . ولكن القلق استبد بأمهما ، وراحت تردد اسمك كثيراً ، ولذلك قبلتا أخيراً أن ترسلانى فى طلبك ، فغادرت (جيتسهيد) بالأمس . فإذا أمكنك التأهب يا آنسة عدت بك فى ساعة مبكرة من صبيحة الغد .

— نعم يا روبرت ، لسوف أستعد ، إذ يبدو من الجدير بى أن أذهب إليها .

— هذا هو رأيى كذلك يا آنسة ، وقد قالت بيسى إنك لن ترفضى ، ولكنى أظنك فى حاجة إلى الاستئذان قبل الرحيل .

— نعم وسأفعل هذا الآن .

ثم قدته إلى حجرة الخدم ، وأوصيت به زوجة جون ، بل وجون نفسه ، ثم خرجت أبحث عن مستر روشستر .. ولكنه لم يكن فى أية غرفة من غرف الطابق الأرضى ، ولم يكن كذلك فى الفناء ، ولا فى حظائر الخيل . وسألت مسز فيرفاكس عما إذا كانت قد شاهدته ، فأخبرتنى بأنها رأته ، وأنها تعتقد أنه يلعب البليارد مع مس انجرام ، فأسرعت إلى غرفة البليارد ، وكان صوت ارتطام الكرات ، وهمهمة الأصوات تنبعث من هناك ، حيث وجدت مستر روشستر ومس انجرام وفتاتى إيشتون والمعجبين بهما ، وقد انهمكوا جميعاً فى اللعب ؛ وكنت فى حاجة إلى جرأة لكى أزعج خاطر مثل هذه الجماعة اللاهية ، ولكن مهمتى لم تكن من نوع أملك إرجاءه ، فاقتربت من السيد ، وكان يقف بجانب مس انجرام التى استدارت ناحيتى عندما اقتربت منهما ، وتطلعت إلىَّ فى تعال وكبرياء وقد بدا فى عينيها أنها تسأل : « ماذا يمكن أن تريد هذه الحشرة الزاحفة الآن ؟ » . وعندما قلت فى صوت خافت : « مستر روشستر ! » . تحركت وكأنها تهم بطردى ؛ وما زلت أذكر الآن منظرها وهى تبدو غاية فى الجمال والفتنة وقد ارتدت ثوباً للصباح من الحرير الأزرق ، وعقدت حول شعرها وشاحاً هفهافاً بلون السماء . وكانت مبتهجة النفس باللعب ، ولم تخفف عجرفتها المهتاجة من الطرب الذى تجلى على قسماتها الشماء .. وتحولت تسأل مستر روشستر : « هل تريدك هذه المخلوقة ؟ »

والتفت مستر روشستر ليتبين المخلوقة التى كانت تريده ، وسرعان ما اختلج وجهه بحركة عجيبة — هى إحدى ظواهره العجيبة المبهمة —

ثم ألقى عصا البليارد ، وتبعنى إلى خارج الغرفة ، فأسند ظهره إلى باب حجرة الدراسة ، بعد أن أغلقه ، وقال : « ماذا يا جين ؟ » .

— أرجوك يا سيدى أن تمنحنى إجازة لأسبوع أو اثنين .

— ماذا تصنعين بها .. إلى أين تذهبين ؟

— لأرى سيدة مريضة أرسلت فى طلبى .

— أية سيدة مريضة ؟.. وأين تقيم ؟

— فى (جيتسهيد) فى مقاطعة ...؟

— مقاطعة ...؟ إنها على بعد مائة ميل !.. من تكون هذه التى ترسل فى طلب الناس من هذه المسافة ليروها ؟!

— اسمها ريد .. مسز ريد .

— ريد من (جيتسهيد)؟ لقد كان فى (جيتسهيد) قاض يدعى ريد .

— إنها أرملته يا سيدى .

— وما شأنك بها ؟ كيف تعرفينها ؟

— كان مستر ريد خالى .. شقيق والدتى .

— يا لله !.. إنك لم تخبرينى بذلك قط من قبل ، بل كنت تقولين دائماً إنه ليس لك أقارب .

— ليس لى أقارب يعترفون بانتسابى إليهم يا سيدى ، فإن مستر ريد قد توفى ، ثم نبذتنى زوجته .

— لماذا ؟

— لأننى كنت فقيرة ، وعبئاً ثقيلا ، وكانت تبغضنى :

— ولكن هل ترك ريد أطفالا ؟.. لابد أن يكون لك أولاد خال.

وبالأمس كان السير جورج لين يتحدث عن شاب يدعى ريد فى (جيتسهيد) ، قال عنه إنه من شر الأوغاد فى المدينة ، كما ذكرت انجرام اسم فتاة تدعى جورجيانا ريد من نفس المكان ، كانت موضع الإعجاب الشديد لجمالها منذ موسم أو اثنين فى لندن .

– لقد توفى جون ريد هو الآخر ياسيدى ، فقد أفلس ، وكاد يتسبب فى إفلاس أسرته ، ويقال إنه انتحر ،وقد صدمت أمه بنبأ وفاته صدمة أصابتها بالفالج .

– وماذا فى وسعك أن تفعلى من أجلها ؟ هراء يا جين ! لن أفكر قط فى قطع مسافة مائة ميل لأزور سيدة ربما يعاجلها الموت قبل أن أصل إليها .. هذا إلى أنك تقولين إنها نبذتك .

– نعم يا سيدى ولكن كان ذلك منذ زمن بعيد وعندما كانت ظروفها تختلف كثيراً عما هى عليه الآن .. لن يستريح بالى إذا أنا أهملت الآن رغباتها .

– كم ستمكثين هنالك ؟

– أقصر مدة ممكنة يا سيدى .

– عدنى بأن تمكثى أسبوعاً .

– يجدر ألا أعدك ، فقد أضطر إلى الحنث بهذا الوعد .

– ستعودين على أية حال ، ولن يغريك أى عذر بأن تقيمى معها إقامة دائمة .

– أوه . كلا .. سأعود حتماً ، إذا جرت الأمور كما ينبغى :

– ومن سيرافقك ؟.. لن تسافرى مائة ميل بمفردك :

– كلا ياسيدى ، فقد أرسلت سائق عربتها .

– أهو شخص يوثق به ؟

– نعم يا سيدى ، فقد أقام مع الأسرة عشر سنوات .

* * *

وفكر مستر روشستر لحظة ثم قال : « ومتى ترغبين فى السفر ؟ »

– فى ساعة مبكرة من صبيحة الغد يا سيدى .

– حسناً .. لابد لك من بعض المال ، إذ لا يمكن أن تسافرى دون نقود .

وأردف مبتسماً : « أظنك لا تملكين كثيراً ، لأننى لم أعطك مرتبك بعد . كم تملكين فى دنياك يا جين ؟ »

فأخرجت كيس نقودى .. وكم كان هزيلا !.. وقلت : « خمسة شلنات يا سيدى ! » .. فتناول الكيس ، وأفرغ فى راحة يده ما كنت أدخره ، ثم راح يقهقه وكأنه يتلهى بضآلة هذا (الكنز) . وسرعان ما أخرج حافظة نقوده ، وقال وهو يقدم لى ورقة مالية بمبلغ خمسين جنيهاً : « إليك ! » .. وكان مديناً لى بخمسة عشر جنيهاً ، فأخبرته بأننى لم أكن أملك ما أرد منه الباقى . فقال : « لست أريد نقوداً كما تعلمين .. خذى هذا أجرك ! » .. ولكننى رفضت أن آخذ أكثر مما كنت أستحق . فتجهمت أساريره فى أول الأمر ، ثم قال وكأنه تذكر شيئاً : « حسناً .. حسناً .. يجدر بى ألا أعطيك كل مالك حتى الآن ، فقد تمكثين ثلاثة شهور إذا أخذت خمسين جنيهاً .. هاك عشرة جنيهات . ألا تكفى ؟ »

— نعم يا سيدى وستكون الآن مديناً لى بخمسة ؟

— عودى لأخذها إذن ، وسأكون بمثابة مصرف تودعين فيه أربعين جنيهاً !

— فى وسعى يا مستر روشستر أن أذكر لك موضوعاً خاصاً بالعمل ما دامت الفرصة سانحة .

— موضوعاً فى العمل ؟.. إننى متلهف لسماعه !

— لقد تفضلت فأبلغتنى يا سيدى بأنك ستتزوج فى القريب العاجل .

— نعم وماذا بعد ذلك ؟

— ينبغى فى هذه الحالة يا سيدى أن تذهب أديل إلى المدرسة .. وأنا واثقة من أنك ستلمس ضرورة ذلك :

— لأبعدها عن طريق عروسى التى قد تدوسها بقدميها بشدة ؟.. إن اقتراحك معقول ، ويجب بلا شك أن تذهب أديل إلى المدرسة كما تقولين . أما أنت فيجب بطبيعة الحال أن تمضى مباشرة .. إلى الشيطان؟

— أرجو غير ذلك ، ولكن يجب أن أبحث عن عمل آخر فى مكان ما !

فصاح بصوت رنان وقد تقلصت أسارير وجهه بصورة غريبة تبعث على الضحك : « أظنك ستتوسلين إلى مدام ريد العجوز أو ابنتيها أن تبحث لك إحداهن عن عمل ؟ »

— كلا يا سيدى ، لست على وفاق مع قريباتى بحيث أسألهن فضلا .. ولكنى سأعلن فى الصحف :

فزمجر قائلا : « إنك لن تلبثى أن تطمعى فى تسلق أهرام مصر !..

إنك تخاطرين بالإعلان ، فليتنى أعطيتك جنيهاً واحداً بدلا من عشرة . أعيدى لى تسعة جنيهات يا جين ، فإننى بحاجة إليها » . فقلت وأنا أخفى يدى والكيس خلف ظهرى : « وأنا فى حاجة إليها كذلك ولا أستطيع التخلى عنها بحال من الأحوال ! »

— يا لك من بخيلة صغيرة !.. أترفضين تقديم مساعدة مالية لى؟.. هاتى خمسة جنيهات يا جين ؟

— ولا خمسة شلنات يا سيدى .. بل ولا خمسة بنسات .

— دعينى فقط ألقى نظرة على نقودك :

— كلا يا سيدى فلست أثق بك .

— جين !

— سيدى ؟

— عدينى بشىء واحد .

— سأعدك بكل ما أرانى قادرة على الوفاء به .

— لا تعلنى فى الصحف ، واتركى التماس الوظيفة لى ، وأعدك بأن أجدها لك فى الوقت المناسب .

— يسعدنى أن تفعل ذلك يا سيدى ، على أن تعدنى بدورك أن أكون وأديل فى مأمن بعيد عن القصر ، قبل أن تلجه عروسك .

— حسن جداً .. حسن جداً .. أقسم على ذلك !.. هل ستسافرين غداً ؟

— نعم يا سيدى ، فى ساعة مبكرة .

— هل ستنزلين إلى حجرة الاستقبال بعد العشاء ؟

— كلا يا سيدى ، يجب أن أتهيأ للرحيل .

— إذن ألا يجب أن يودع أحدنا الآخر لفترة وجيزة ؟

— أظن ذلك يا سيدى .

— وكيف يؤدى الناس الوداع يا جين ؟.. علميني لأننى لست خبيراً بذلك .

— إنهم يقولون : « مع السلامة » ، أو شيئاً من هذا القبيل يفضلونه .

— إذن ، قولى ذلك .

— أستودعك الله يا مستر روشستر إلى حين .

— وماذا ينبغى أن أقول ؟

— نفس العبارة إذا شئت يا سيدى .

— أستودعك الله يا مس إير إلى حين .. أهذا كل شىء ؟

— نعم .

— أراها عبارة لا تروق للذوق .. فهى جافة ، غير ودية .. بل أحب عبارة أخرى تضاف إلى هذه الطقوس ، كأن نتصافح . ولكن كلا .. هذا أيضاً لا يكفينى ، فهلا تفعلين غير قولك : « أستودعك الله » يا جين ؟

— هذا يكفى يا سيدى ، فإن النية الطيبة يمكن أن تتمثل فى كلمة واحدة صادرة من القلب ، تؤدى ما تؤديه الكلمات المتعددة »

— هذا محتمل ، ولكن عبارة « أستودعك الله » هذه جوفاء باردة »

وسألت نفسى : « إلى متى سيقف هكذا وظهره إلى الباب ؟ ».
إننى أريد أن أسرع إلى حزم أمتعتى ! »

ودق جرس العشاء ، وعندئذ غادرنى على الفور دون أن ينطق بحرف آخر ، ولم أره مرة أخرى طوال اليوم ، ثم رحلت قبل أن يستيقظ فى الصباح .

* * *

■ بلغت قصر (جيتسهيد) فى حوالى الخامسة بعد الظهر من أول مايو ، فدخلت إلى مسكن البواب قبل أن أسعى إلى البهو . ووجدت المسكن نظيفاً ، أنيقاً ، وقد تدلت على النوافذ المزينة ستائر صغيرة بيضاء ، وبدت الأرضية غاية فى النظافة ، بينما كانت المدفأة تلمع وقد اشتعلت فيها النيران المتوهجة ، ورأيت بيسى جالسة على أريكة بقرب المدفأة ، ترضع وليدها ، بينما كان روبرت وأخته – ابناها الآخران – يلعبان بهدوء فى أحد الأركان . وعندما دخلت صاحت مسز ليفن : « ليباركك الله ! كنت أعرف أنك سوف تأتين ! » .. فقبلتها وقلت : « نعم يا بيسى ، وأرجو ألا أكون قد تأخرت . كيف حال مسز ريد ؟ أرجو أن تكون على قيد الحياة » .

— نعم إنها على قيد الحياة ، بل هى أكثر انتباهاً واستجماعاً لقواها عما كانت ، ويقول الطبيب : إن حياتها قد تطول أسبوعاً أو اثنين ، ولكنه لا يؤمل فى أن تشفى نهائياً .

— هل ذكرت اسمى أخيراً ؟

— كانت تتحدث عنك صباح اليوم وتتمنى مجيئك ، ولكنها الآن نائمة ، أو هى كانت كذلك ، عندما كنت بالطابق العلوى منذ عشر دقائق . وهى تغرق عادة فى سبات عميق طوال النهار ، ولا تصحو قبل

السادسة أو السابعة . هل تستريحين هنا ساعة يا آنسة ثم أصعد معك ؟

وعندئذ دخل (روبرت) - زوجها - فوضعت طفلها النائم في مهده ، ومضت لتستقبله ، ثم ألحت في أن أخلع قلنسوتي . وأن أتناول الشاي ، لأنني - كما قالت - كنت أبدو شاحبة متعبة . وفرحت بحفاوتها ، فتركتها تخلع عني معطف السفر . كما كانت تفعل وأنا طفلة صغيرة ، وتزاحمت على رأسي ذكريات الماضي ، وأنا أرنو إليها وهي تتحرك هنا وهناك : تعد الصينية وطاقماً أنيقاً من الصيني ، ثم تقطع الخبز والزبد ، وتقدد الكعك ، وتربت بين الفينة والأخرى على روبرت الصغير ، أو جين الصغيرة ، بمثل ما كانت تفعل معي في الأيام السالفة ، فقد ظلت بيسى محتفظة بطابعها الرشيق وخطـوها الخفيف ونظراتها الطيبة !

ولما أعد الشاي ، هممت بالاقتراب من المنضدة ، ولكنها طلبت مني - بلهجتها القديمة الحازمة - أن أجلس في مكاني ، كي تقوم هي بخدمتي وأنا في جلستي بجوار المدفأة . ثم وضعت أمامي منضدة صغيرة يعلوها قدح وطبق به الخبز المقدد .. تماماً كما اعتادت أن تتوفر على راحتي ، وتقدم لي بعض الطعام اللذيذ الخاص ، الذي كانت تسرقه وتحمله إليّ ! فابتسمت وأذعنت كما كنت أفعل في الأيام الخالية .

وأرادت أن تعرف هل كنت سعيدة في قصر (ثورنفيلد) ، وكيف كانت مخدومتي ، فلما أخبرتها بأن سيد القصر أعزب ، سألتني عما إذا كان ظريفاً ، وهل ملت إليه ، فقلت لها إنه رجل دميم ، ولكنه سيد بالمعنى الصحيح ، وأنه يعاملني برفق ، مما يجعلني راضية .

ثم أخذت أصف لها المدعوين المرحين الذين كانوا يقيمون في القصر منذ عهد قريب ، فراحت تصغي إلى التفاصيل باهتمام ، لأنها كانت من الموضوعات التي تحبها وتبتهج لسماعها .. وسرعان ما انقضت ساعة في مثل هذا الحديث ، فقامت تلبسني قلنسوتي ، ومعطفي ، ثم غادرت مسكن البواب إلى القصر وأنا في رفقتها ، كما كنت أرافقها منذ تسع سنوات ، يوم هبطت الممر - الذي أخذت أصعده الآن - مغادرة القصر في صباح يوم غائم قارس من أيام يناير ، وقلبي زاخر بالألم والمرارة لذهابي إلى ملجأ (لو وود) البعيد ، كما لو كنت مذنبة أو منبوذة . ومرة أخرى نهض أمامي ذلك السقف الذي كان يخيم على أعداء لي ، فإذا الشك يملأ قلبي والألم يحز في نفسي ، فأشعر بأنني شريدة تهيم على وجه الأرض . ولكن سرعان ما عاودتني الثقة بالنفس وبقدرتي ، فخفت حدة الشعور بالظلم ، والتأم جرح الشرور التي نزلت بي ، وانطفأت نيران السخط المتأججة في صدري ، وقالت بيسى وهي تتقدمني خلال البهو : « ستذهبين أولا إلى حجرة الإفطار لأن السيدتين الصغيرتين ستكونان هناك » .

* * *

● ودخلت الحجرة بعد لحظة ، فوجدت كل شيء بها كما كان يوم قدمت لأول مرة إلى مستر بروكلهيرست ، ولكني وجدت أهل القصر قد تغيروا حتى كدت لا أعرفهم .. فقد ظهرت أمامي شابتان ، إحداهما فارعة الطول - في قامة مس انجرام تقريباً - مسرفة النحافة ، ذات وجه شاحب زاده ثوبها الأسود البسيط شحوباً ، وقد علقت في صدرها

مسبحة ومصلياً كإحدى الراهبات ، فأيقنت أنها (اليزا) ، وإن لم أعثر
على شيء من وجوه الشبه بينها فى حاضرها وبين ما كانت عليه وهى
طفلة صغيرة .. وكانت الأخرى (جورجيانا) ، بلا ريب . ولكنها لم تكن
(جورجيانا) الفتاة النحيلة التى أتذكرها عندما كانت فى الحادية عشرة
من عمرها ، وإنما صارت شابة بدينة ، جميلة الأسارير ، ذات عينين
ناعستين زرقاوين ، وشعر ذهبى . وكانت ترتدى ثوباً أسود كذلك ،
ولكنه من طراز حديث ، غير طراز ثوب أختها المحتشم . وكان فى كل
من الفتاتين شبه بأمهما . وإذ تقدمت نحوهما ، قامتا لتحيتى . وخاطبتنى
كلتاهما باسم (الآنسة إير) . ونطقت (اليزا) تحيتها بصوت مقتضب دون
أن تبتسم ثم عادت فجلست وراحت تحدق فى الموقد وكأنها نسيتنى ،
أما (جورجيانا) فقد أضافت إلى قولها : « كيف حالك ؟ » ، وبضعة
أسئلة عادية عن رحلتى والطقس وغير ذلك بصوت متراخ ، بطىء ،
وهى ترمقنى من زاوية عينها ، وتتفحصنى من مفرق إلى أخمص قدمى :

ولقد كان للفتاتين طريقة خاصة فى التهكم علىّ دون أن تعبرا عن
ذلك بالكلام ، وذلك بالاستعانة بنظرة خاصة متعجرفة ، وبلهجة باردة
تزخر بعدم الاكتراث ، دون الالتجاء إلى كلمة أو عمل ينم عن فظاظة .
على أن السخرية لم تعد تؤثر فىّ — سواء كانت مستترة أو صريحة — كما
كانت تؤثر من قبل . وأدهشنى — إذ جلست بين ابنتى خالى — أن أتبين
كيف احتملت فى يسر إهمال إحداهما لشأنى ، وسخرية الأخرى منى :
ذلك لأننى كنت أفكر فى أشياء أخرى : فقد استيقظ فى نفسى خلال
الشهور الأخيرة من المشاعر ما لا يقوى أى شىء آخر على إثارته ««

واهتاجت فى صدرى من الآلام والمسرات ما كان يفوق أى شىء فى
وسعهما أن يهيجاه .. ومن ثم فلم أحفل بما كان يبدو منهما من طيبة
أو شر . وما لبثت أن التفت إلى جورجيانا متسائلة فى هدوء : « كيف
حال مسز ريد ؟ » .. فقالت : « مسز ريد ؟ .. آه ، تعنين ماما !..
إنها فى حالة سيئة ، وما أظنك ستتمكنين الليلة من رؤيتها ! » .

— أكون شاكرة لو صعدت إلى غرفتها وأبلغتها أننى قد وصلت :

فارتجفت وأمعنت فى النظر إلى بعينيها الزرقاوين .. واستطردت
أقول : « الذى أعلمه أنها ترغب فى رؤيتى بصفة خاصة ، ولا أحب أن
أؤجل رغبتها هذه ما استطعت » .. فقالت اليزا : « إن والدتى تكره أن
يقلق راحتها إنسان فى المساء » .. وسرعان ما نهضت فتناولت قلنسوتى
وقفازى بهدوء ، قائلة إننى سأذهب إلى بيسى التى أتوقع وجودها فى
المطبخ ، لأسألها عما إذا كان فى وسعى أن أقابل مسز ريد فى تلك الليلة :
وإذ وجدت بيسى بعثت بها فى تلك المهمة ، وبدأت فى اتخاذ إجراءات
أخرى . ولقد كنت فيما مضى أجفل من التحدى ، ولو أننى قوبلت
منذ عام بمثل هذه المقابلة الفاترة لكنت قد غادرت (جيتسهيد) فى
الصباح التالى .. ولكننى — فى هذه المرة — رأيت أن مثل هذا التفكير
ينطوى على حماقة . لاسيما بعد أن قطعت مائة ميل لأرى خالتى ، ومن
ثم كان لابد من أن أمكث حتى تتحسن حالها أو تموت . أما صلف
ابنتها أو حماقتها فمسألة كان من الواجب أن أدعها جانباً وألا أفكر فيها ،
ولذلك خاطبت مدبرة المنزل ، وطلبت إليها أن تعد لى حجرة ،
وأخبرتها بأننى قد أظل ضيفه هنا لمدة أسبوع أو اثنين ، ثم أمرت بأن


ثم اقتربت من الفراش ، وفتحت الستائر وانحنيت على الوسائد العالية

تحمل حقيبتى إلى حجرتى وتبعتها إلى هنالك . ولكننى التقيت بيسى عند رأس الدرج ، فلما رأتنى قالت : « إن السيدة مستيقظة ، وقد أخبرتها بقدومك . تعالى لترى هل تعرفك الآن ! » .

* * *

● ولم أكن فى حاجة إلى من يقودنى إلى الغرفة المعروفة التى طالما استدعيت إليها فى الماضى ، لأستمع إلى كلمات التأنيب والتقريع . فتقدمت بيسى ، وفتحت الباب بهدوء .. ورأيت مصباحاً تحيط به ظلة على المنضدة ، إذ كان الظلام قد بدأ يرخى أستاره . وكان السرير الكبير ذو الأعمدة الأربعة ، والستائر العنبرية اللون ، قائماً كما عهدته منذ زمن بعيد .. كذلك شاهدت منضدة الزينة ، والمقعد ذا المساندين ، والمقعد الصغير الذى كثيراً ما حكم على بأن أركع عليه وأطلب المغفرة والصفح عن الذنوب التى لم أرتكبها ! .. وتطلعت إلى ركن قريب ، وأنا أتوقع أن أرى جسداً نحيلا بغيضاً يقبع فيه ، فى ارتقاب أن ينقض علىّ كالعفريت ويوثق يدى المرتعدة أو عنقى .. وأعنى جسد (جون ريد) كما كان فى الماضى ! .. ثم اقتربت من الفراش ، وفتحت الستائر وانحنيت على الوسائد العالية .

وكنت أذكر وجه مسز ريد ، فنظرت فى لهفة إلى صورتها المألوفة . ومن بواعث الغبطة أن الزمن يطفئ الرغبة الجامحة فى الانتقام ، ويخمد جذوة الحقد والكراهية .. فلقد فارقت هذه المرأة وقلبى زاخر بالمرارة والبغضاء ، ولكنى عدت إليها الآن وليس فى نفسى سوى الأسى لآلامها والرغبة القوية فى أن أنسى وأصفح عن كل أذاها ، وأن نتصافى

وأمسك يدها في حب ومودة .. ورأيت الوجه المألوف بصرامته وقسوته . وشاهدت عينيها الغريبتين اللتين لم يكن أي شيء يقوى على أن يلين نظراتهما .. ورأيت الجبين المرتفع الآمر المستبد ، الذي طالما قطب في وجهي متوعداً ، ناقماً .. وعادت إلى ذاكرتي فظائع الطفولة وأحزانها وأنا أرقب ذلك الجبين ! .. ومع ذلك فإنني ملت عليها وقبلتها ، فنظرت إليّ وقالت : « أهذه جين إير ؟ » :

— نعم ياخالتي ريد . كيف حالك ياخالتي العزيزة ؟

وكنت قد أقسمت ذات مرة ألا أدعوها خالتي ، ولكني لم أر ذنباً في أن أنقض هذا القسم الآن . وكانت أصابعي قد أطبقت على يدها ، التي أبرزتها فوق الغطاء ، ولو أنها أطبقت بدورها على أصابعي لشعرت بغبطة صادقة ، ولكن يبدو أن الطبائع الجافة لا تلين بتلك السرعة ، وأن البغضاء الطبيعية لا تجتث بسهولة . إذ أن مسز ريد سحبت يدها بعيداً ، وأشاحت عني بوجهها ، وقالت إن الليل حار ، ثم عادت ترمقني بنظرات باردة كالجليد ، فأدركت في الحال أن رأيها فيّ وشعورها نحوي لم يتغيرا ولا يمكن أن يتغيرا ، كما أدركت من عينيها الجامدة المتحجرة التي لا تلين أو تدمع ، أنها مصممة على أن تمضي بالشر إلى النهاية ، لأنها إذا اعتقدت أنني طيبة فلن تصيب سروراً من ذلك وإنما سيحولها شعور بالكمد والغم ! .. وأحسست بألم ، ثم بغيظ ، ثم بعزم على إذلالها .. على أن أكون سيدتها برغم طبيعتها وإرادتها معاً .. وكانت دموعي قد طفرت كعادتي في الطفولة ، ولكني سرعان ما رددتها إلى مآقي ، وجئت بمقعد إلى جوار الفراش ، وجلست ثم انحنيت على الوسادة قائلة : « لقد

أرسلت في طلبي ، وهأنذي وقد اعتزمت البقاء حتى أرى كيف تتطور حالتك » .

— أوه . بالطبع . هل قابلت ابنتيّ ؟

— نعم .

— حسناً . يمكن أن تخبريهما أنني أريد أن تبقى هنا إلى أن أتمكن من محادثتك في أمور تدور برأسي . لقد تأخر الوقت الليلة ، وإني لأجد مشقة في أن أتذكرها ، ولكن ثمة شيئاً واحداً أريد أن أقوله .. دعيني أر ..

* * *

● وتبين لي من نظرتها الحائرة وتغير لهجتها مبلغ ما أصاب جسمها القوي من ضعف وهزال . وفيما كانت تتقلب في فراشها ، جذبت الغطاء حول جسمها ، ولكن مرفقي كان مرتكزاً على طرف منه ، فاهتاجت وقالت :

— اعتدل في جلستك . لا تضايقني بالتشبث بالغطاء . هل أنت جين إير !

— أنا جين إير .

— لقد لاقيت من هذه الطفلة مالا يتصوره إنسان . فيالها من عبء ثقيل على كاهلي ، ويا للمضايقات التي كانت تحدثها في كل يوم وفي كل ساعة ، بما كانت تبديه من نزعات غير مفهومة ، ونوبات فجائية من العناد والهياج ، ومراقبة دائمة لكل حركة من حركاتنا .. بل إنني لأجهر بأنها خاطبتني ذات مرة وكأنها مجنونة أو شيطانة ! ..

أبداً لم تحدثني طفلة أو تنظر إليّ في حياتي كما فعلت هذه الطفلة . ولذلك فقد اغتبطت عندما تخلصت منها وأبعدتها عن القصر . ما حالهم معها في (لو وود) ؟ لقد تفشت الحمى هناك ومات كثير من التلميذات ، ومع ذلك فإنها لم تمت . ولكنني قلت إنها ماتت .. وأتمنى أن تموت !

قلت : « يالها من رغبة عجيبة يامسز ريد ! لماذا تكرهينها إلى هذا الحد ؟ » :

— لقد كنت أكره أمها دائماً ، لأنها كانت شقيقة زوجي الوحيدة ، وكان يحبها . وقد عارض إرادة الأسرة كلها عندما تبرأت منها لزواجها الوضيع . وعندما جاءه خبر موتها بكى كالمعتوه ، وأرسل في طلب الطفلة رغم توسلاتي إليه أن يعهد بها إلى مربية ويدفع نفقات تربيتها .. ولقد كرهتها عندما وقعت عليها عيناي لأول مرة ، إذ كانت مخلوقة سقيمة دائبة العويل والبكاء .. تبكي طوال الليل في مهدها ، ولم تكن تصرخ من قلبها كغيرها من الأطفال ، وإنما كانت تنشج وتتأوه وتبكي بصوت خافت . ولقد رق (ريد) لها ، فكان يعطف عليها ويرعاها بنفسه ، ويعني بها كما لو كانت ابنته .. بل وأكثر مما كان يعنى بأولاده حين كانوا في سنها .. وكان يحاول أن يغري أولادي بالتودد لهذه المتسولة الصغيرة ، ولكن أطفالي الأعزاء لم يكونوا يطيقونها ، فغضب منهم عندما أظهروا نفورهم منها . ولقد اعتاد — أثناء مرضه الأخير — أن يرقدها معه في فراشه ، حتى إذا لم يبق على موته إلا ساعة ، أكرهني على أن أقسم له على أن أكفلها .. وكنت أوثر أن يعهد إليّ بطفل مسكين من أبناء الملاجئ ، على أن يعهد إليّ بهذه المخلوقة ! .. ولكنه كان ضعيفاً

بفطرته ! .. إن جون لا يشبه أباه ، وإنما يشبهني ، ويشبه إخوتي ، فهو يشبه آل جيبسون ، لا آل ريد .. آه ، كم أتمنى أن يكف عن تعذيبي بخطاباته التي يرسلها يومياً في طلب نقود ! .. لم يعد لدي مال أمنحه إياه ، فنحن ننحدر إلى الفقر ، ولابد من أن أسرح نصف الخدم ، وأن أغلق جزءاً من القصر ، أو أن أؤجره ! .. ولست أحتمل ذلك ، ولكن ما حيلتي ؟ .. إن ثلثي مواردي يذهبان في تسديد فوائد الديون ، فإن جون يقامر بدرجة بشعة ، ويخسر دائماً .. مسكين ولدي ! .. إنه فريسة للمحتالين .. لقد انحط وتدهور .. أصبحت نظرته فظيعة ، ومظهره .. إنني لأشعر بالخجل عندما أراه !

وكان الانفعال قد استبد بها ، فقلت لبيسي التي كانت تقف عند الجانب الآخر من الفراش : « يحسن أن نتركها الآن » .

— ربما يحسن بك ذلك يا آنسة ، ولكنها كثيراً ما تتحدث هكذا عندما يقترب الليل ، فإذا جاء الصباح هدأت ..

وعندما نهضت صاحت مسز ريد : « قفي .. لدي شيء آخر أود أن أقوله : إنه يتهددني .. يتهددني دائماً بموته أو موتي ، وقد حلمت به أحياناً كثيرة وهو ملقى وفي عنقه جرح ، أو بوجه منتفخ ، أسود . لقد غدوت في مأزق وثقلت همومي ، فماذا أفعل ؟ وكيف أحصل على نقود ؟

فأخذت بيسي تغريها بتناول جرعة مهدئة . وتمكنت من ذلك بصعوبة شديدة ، فلم تلبث مسز ريد أن هدأت ، ثم استغرقت في النوم وإذ ذاك فارقتها .

* * *

● وانقضى أكثر من عشرة أيام قبل أن أستطيع مخاطبتها مرة أخرى : فقد ظلت تهرف أو تستغرق فى سبات عميق ؛ فأمر الطبيب بمنع كل ماقد يثير أعصابها . واستطعت فى خلال هذه الفترة أن أوثق علاقاتى مع إليزا وجورجيانا . وكانتا تبديان فى أول الأمر بروداً شديداً نحوى ، فكانت إليزا تقضى سواد يومها فى الحياكة والتطريز ، أو فى القراءة والكتابة ، وهى لاتكاد تخاطبنى أو تخاطب أختها بحرف . أما جورجيانا فكانت توجه إذ ذاك حديثاً فارغاً إلى عصفورها (الكنارى) ، دون أن تكترث بى ! ولكنى كنت قد عقدت العزم على ألا أدع الحيرة والحرج ينتابانى لافتقارى إلى ما يشغلنى ويسلينى . فجئت معى بأدوات الرسم ، ووجدت فيها ما أنشد . ورحت أحمل أقلامى وأوراق وأجلس بجوار النافذة بعيداً عنهما ، وأنهمك فيما يعن لى من مناظر تتمثل لخيالى ، إلى أن شرعت صباح يوم فى رسم وجه إنسان لم أحفل بشكله ولا بماهيته ، بل تناولت قلماً أسود طرياً ، شحذت سنه ، وعكفت على العمل ، وسرعان مارسمت على الورق جبيناً بارزاً ، عريضاً ، ووجهاً شبه مربع .. وسرنى هذا الشكل ، فراحت أصابعى تعمل مسرعة تملأ الوجه بالملامح ، وكان لابد من حاجبين مستقيمين ، ثقيلين ، تحت هذا الجبين .. وتلا ذلك ــ بحركة طبيعية ــ أنف بديع الشكل ، مستقيم ، واسع الفتحتين ، ثم فم مرن ، ليس ضيقاً ، فذقن تدل على العزم ، تتوسطها ثغرة غائرة .. وكان لابد من شاربين أسودين ، وبعض الشعر الأسود المسدل على الصدغين ، تتهدل منه خصلات على الجبين .. وبقيت العينان ، إذ تركتهما للنهاية ، لأنهما كانتا تتطلبان عناية وجهداً ، فرسمتهما

واسعتين جميلتين ، بأهداب طويلة ، سمراء ، وإنسانين مؤتلقين ، كبيرين . وقلت لنفسى : « بديع !.. ولكنه ليس دقيق الشبه .. لا تزال الملامح بحاجة إلى مزيد من القوة والعزم ! » .. فضاعفت من دكنة الظلال السوداء ، حتى تزداد الملامح البيضاء إشراقاً .. وما لبثت لمسة أو لمستان حتى حققتا النجاح المنشود .. وإذا أمامى وجه صديق ، فهم كان يعنينى أن تولينى هاتان الفتاتان ظهريهما ؟.. وتأملته ، ثم ابتسمت لهذا الشبه الناطق ، واستغرقت فى التأمل ، مغتبطة .

واقتربت منى إليزا دون أن أشعر بها وسألتنى : « هل هذه صورة لإنسان تعرفينه ؟ » .. فأجبتها بأنها مجرد صورة رأس من وحى الخيال ، ثم بادرت أخفيها تحت الأوراق الأخرى . ومن الطبيعى أننى كذبت ، لأن الصورة كانت فى الواقع تمثل مستر روشستر تمثيلا أميناً جداً ، ولكن ماذا كان يهمها أو يهم أحداً سواى من أمرها ؟.. وتقدمت جورجيانا بدورها ، فألقت نظرة .. وسرتها الرسوم الأخرى ، ولكنها وصفت الصورة الأولى بأنها : « رجل دميم » . وتبدت الدهشة والعجب عليهما لمهارتى ، فعرضت أن أرسم لكل منهما صورة ، فجلست كل منهما بدورها أمامى ، حتى رسمت لها صورة تخطيطية . وعند ذلك أخرجت جورجيانا مجموعة من صورها فى (ألبوم) ، فوعدتها بأن أضيف إليها بعض الألوان المائية ، فسرعان ما صفت نفسها ، واقترحت أن نتمشى فى الحديقة .. وقبل أن تنقضى ساعتان أخريان ، خضنا معاً فى أمور خاصة وحديث شخصى ، وأتحفتنى بوصف الشتاء الذى قضته فى لندن منذ عامين ، والإعجاب الذى أثارته فى قلوب الناس هناك ، وما لقيته

من ضروب الرعاية والاهتمام ، بل لقد ألمعت إلماعاً إلى بعض غزواتها .
وفى أثناء العصر والمساء ، توسعت جورجيانا فى هذه الموضوعات ،
فذكرت لى أحاديث عديدة متباينة ناعمة ، ووصفت لى وقائع غرامية :
وقصارى القول قصت علىّ رواية ضخمة عن الحياة العصرية الراقية ..
وأخذت الأحاديث تتتابع يوماً بعد يوم ، وكانت تدور دائماً حول
موضوع واحد .. حول نفسها ، وعشاقها ، وشجونها . ومن عجب
أنها لم تشر بكلمة واحدة إلى مرض أمها ، ولا إلى وفاة شقيقها ، ولا
إلى الحال السيئة التى تردت فيها الأسرة ، إذ كان يبدو أن أفكارها لم تكن
منصرفة إلا إلى ذكريات المرح الماضى ، والأمل فى العودة إلى المباذل ! ..
أما أمها المريضة ، فكانت لاتراها فى اليوم سوى بضع دقائق ، لا أكثر !

* * *

● وظلت إليزا لاتتحدث إلا لماماً . وكان جلياً أن ليس لديها وقت
للكلام ، فإننى لم أر فى حياتى إنساناً أكثر انهماكاً منها فى العمل ، ومع
ذلك فقد كان من العسير معرفة ما تعمله ، أو بالأحرى اكتشاف ثمرة
كدها واجتهادها ! وكانت تنبه إلى وجوب إيقاظها فى ساعة مبكرة ،
وإن لم أدر فيم كانت تشغل نفسها قبل تناول الإفطار .. على أنها كانت
بعد الفطور ، توزع وقتها أجزاء منتظمة ، وتجعل لكل ساعة مهمة
معينة ، فكانت تخصص ثلاث حصص من يومها للمطالعة والقراءة فى
كتاب عرفت بعد البحث والتنقيب أنه كان كتاباً للصلاة . وإذ
سألتها عن أهم ماراقها فيه ، قالت : « قواعد الصلاة » . كذلك كانت
تخصص ثلاث ساعات لتطريز قماش قرمزى مربع بخيوط من القصب ؛

ولما سألتها عن هذا القماش الذى كان فى حجم السجادة ، قالت إنه غطاء
لمحراب فى كنيسة جديدة أقيمت حديثاً فى (جيتسهيد) . كما أنها كانت
تكرس ساعتين لكتابة مذكراتها ، وساعتين للعمل بنفسها فى حديقة
المطبخ ، حيث كانت تزرع الخضر . وكانت تخصص ساعة لتنظيم
حساباتها ... وبدا أنها كانت بذلك فى غنى عن أى زمالة أو أى حديث .
وأعتقد أنها كانت سعيدة بطريقتها الخاصة فى الحياة ، وأنها كانت
مكتفية بهذه المعيشة الرتيبة التى كانت تسير على وتيرة واحدة ، فلم
يكن يغضبها سوى أمر واحد ، هو أن يقع حادث عارض يحملها على
تغيير نظامها الدقيق !

وأخبرتنى ذات مساء — وهى أكثر رغبة فى التحدث معى عن
عادتها — أن سلوك جون وما كان يتهدد الأسرة من خراب ، قد سببا
لها حزناً شديداً ، ولكنها حزمت أمرها ، لتعنى بتأمين مستقبلها .. فإذا
ما ماتت أمها — إذ لم يكن من المحتمل أن تشفى ، أو أن تبقى طويلاً على قيد
الحياة ، كما قالت فى هدوء — فسوف تبادر إلى تحقيق أمنية طالما تاقت
إليها ، وهى أن تأوى إلى مكان تسوده عادات منتظمة ، ولا تنفذ إليه
المتاعب أبداً ، حيث تقيم بينها وبين العالم المستهتر سياجاً . وإذ سألتها
عما إذا كانت جورجيانا سترافقها ، قالت : « بالطبع لا ! » .. فما كانت
تجمع بينها وبين جورجيانا مشارب مشتركة فى أى يوم من عمريهما ..
وما كانت لتحتمل معاشرتها مهما تكن الاعتبارات ، ومن ثم فلجورجيانا
أن تسير فى طريقها الخاصة ، ولها — إليزا — أن تنطلق فى الطريق التى
اختارتها :

وكانت جورجيانا — عندما لا تفضى إلىَّ بمخيلتها — تقضى معظم وقتها فى الاضطجاع على الأريكة وهى متبرمة باكتئاب القصر ، متلهفة على أن تتلقى من خالتها دعوة إلى المدينة ، قائلة : «آه لو استطعت أن أبتعد شهراً أو اثنين ، حتى ينتهى كل شىء ! » .. ولم أشأ أن أسألها عما كانت تعنيه بقولها : «حتى ينتهى كل شىء» ، ولكنى أحسبها كانت تشير إلى موت أمها المنتظر ، والفترة الكئيبة التى تستغرقها مراسم الجنازة . ولم تعد إليزا تكترث عموماً ببلادة أختها وشكاواها ، ولكنها حملت عليها ذات يوم بعد أن فرغت من دفتر حساباتها ، وطوت تطريزها إذ قالت لها : «لم يدب على الأرض قط ياجورجيانا حيوان أحمق وأشد عجرفة منك ، وليتك لم تخلقى لأنك لاتستفيدين من الحياة .. وبدلا من أن تعيشى من أجل نفسك وفى نفسك ومع نفسك — كما ينبغى لكل عاقلة أن تعيش — تسعين لأن تكونى عالة على غيرك ! . . وإذا لم تجدى من يرضى بحمل هذا العبء السمين ، الواهن ، الغث ، العديم الجدوى ، رحت تصرخين شاكية من سوء المعاملة والإهمال وسوء الحظ ! .. ثم إنك ترين العالم سجناً بغيضاً ، إذا لم تكن حياتك مشهداً دائم التغير والإثارة ! .. إنك لتحتمين على الناس أن يعجبوا بك ، ويتوددوا إليك ، ويتملقوك ، كما تحتمين وجود الموسيقى والرقص والمجتمعات وإلا تولاك الخمول وأدركك الموت ! .. أليس لك عقل يساعدك على ابتداع وسيلة تجعلك مستقلة عن كل جهد وعزيمة إلا جهدك وعزيمتك ؟ .: خذى يوماً وقسمى ساعاته بنظام ، وخصصى لكل ساعة منها عملا تؤدينه ، ولا تتركى ربع ساعة ، بل ولا عشر دقائق ، ولا خمساً دون أن تفيدى

منها ، وأدى كل مهمة فى موعدها وفقاً للجدول ، وبنظام دقيق ، فإذا اليوم ينقضى قبل أن تفطنى إلى أنه بدأ ، ولا تدينين لأحد بفضل مساعدتك على التخلص من لحظة خالية .. ولسوف تجدين أنك لم تحتاجى إلى أن تنشدى صحبة أحد ، ولا حديثه ، ولا عطفه ، ولا مواساته :: ستجدين — بإيجاز — أنك عشت كما ينبغى لأى امرئ مستقل أن يعيش . خذى هذه النصيحة — وهى الأولى والأخيرة التى أقدمها لك — فلاتعودى محتاجة إلىَّ ، ولا إلى أى امرئ آخر ، مهما يحدث .. أما إذا أهملتها ، فامضى فى توسلاتك ، وشكواك ، وخمولك ، وتحملى نتائج حماقتك مهما تسؤ وتقسو . والآن دعينى أحدثك ببساطة وصراحة ، فاستمعى إلىَّ : لسوف أنفض يدى منك بعد موت أمنا .. ومنذ اليوم الذى ينقل فيه جثمانها إلى القبو — فى كنيسة (جيتسهيد) — سنفترق ، وكأن كلا منا لم تعرف الأخرى .. ولا داعى لأن تحسبى أنى سأدعك ترتبطين بى بأى رباط يثقلنى ، مهما يكن تافهاً ، لمجرد أن القدر شاء أن نولد من أم واحدة وأب واحد .. ألا دعينى أخبرك بأنه لو قدر للجنس البشرى بأسره أن يفنى ، فيما عدانا — أنت وأنا — وأننا مكثنا وحيدتين على ظهر الدنيا ، فسوف أتركك فى هذا العالم القديم ، وأذهب إلى العالم الجديد » .

وأغلقت شفتيها بعد ذلك ، فردت عليها جورجيانا قائلة : «ما كان أغناك عن هذه الحملة القاسية ، فإن كل إنسان يعرف أنك أكثر المخلوقات الكائنة أنانية وجحوداً ، كما أنى أعرف كراهيتك الخالدة لى ، فقد جربتها من قبل فى الدور الذى لعبته فيما يتعلق باللورد فير ، إذ لم تطيقى أن أرتفع إلى مستوى أرفع من مستواك ، أو يكون لى لقب

رفيع ، أو أقابل بمظاهر الإعجاب فى الأوساط التى لا تجرئين على الظهور فيها بوجهك هذا ، فلعبت دور الجاسوسة والواشية ، وقضيت على آمالى إلى الأبد ! » .. وأخرجت جورجيانا منديلها ، فراحت تتمخط باكية زهاء ساعة ، بينما جلست إليزا باردة جامدة منهمكة فى التطريز بجد واجتهاد .

* * *

● إن بعض الناس لا يقيمون وزناً كبيراً للشعور الصادق الكريم ، ولكن ها هما نقصان جعلهما الافتقار إلى هذا الإحساس جد مختلفين ، فكانت إحداهما لاذعة لا تطاق ، والأخرى تافهة تستوجب الازدراء ، ذلك لأن الشعور المجرد من التفكير والتمييز ليس فى الحقيقة سوى جرعة خفيفة ، بينما التفكير الذى لا يتخلله شعور ولا إحساس ، لا يعدو أن يكون لقمة شديدة المرارة ، عسيرة المضغ ، يشق على الإنسان أن يزدردها .

وكان الأصيل مطيراً شديد الرياح ، فما لبثت جورجيانا أن نامت على الأريكة وهى تتصفح إحدى الروايات ، بينما ذهبت إليزا إلى الكنيسة الجديدة ، لحضور قداس بمناسبة عيد أحد القديسين ، فقد كانت محافظة فى أمور الدين على الشكليات والرسميات ، لا يصدها أى طقس عن أن تؤدى ما تعتبره من واجباتها الدينية . وكانت تذهب إلى الكنيسة ثلاث مرات فى يوم الأحد — وفى الأيام التى تقام فيها الصلوات — سواء أكان الجو جميلا أو رديئاً .

ورأيت من واجبى أن أصعد إلى الطابق العلوى ، فأتفقد حال

المريضة التى رقدت فى فراشها مهملة من الجميع تقريباً ، حتى من خدمها ومن ممرضتها التى كانت تتسلل من الغرفة ما استطاعت . ولقد كانت بيسى أمينة حقاً ، ولكنها كانت مضطرة إلى العناية بأسرتها ، فكانت لا تأتى إلى البيت إلا إذا سنحت لها الفرصة . وصح ما توقعت فعلا ، فإذا المريضة لم يكن يرعاها أحد ، ولا تقف بجانبها ممرضة . وكانت نائمة وقد غاص وجهها الشاحب بين الوسائد ، وبدأت النيران فى المدفأة تخمد وتنطفىء ، فجددتها ورتبت الفراش ، ثم وقفت أحدق النظر فيمن لم تعد تقوى على أن تحدق فىّ .. وما لبثت أن مضيت إلى النافذة ، فإذا الأمطار تصفع زجاجها ، والرياح تهب قوية مزمجرة ، فقلت فى نفسى : « هنا ترقد مخلوقة سرعان ما سوف تبتعد عن حرب العناصر الأرضية ، فإلى أين تذهب الروح التى تناضل الآن لتغادر مسكنها المادى بعد أن تنطلق متحررة ؟ »

وفيما كنت أفكر فى هذا السر العظيم ، تذكرت هيلين بيرنز — زميلة الدراسة — وكلماتها الأخيرة ، وهى على فراش الموت ، عن إيمانها واعتقادها فى المساواة بين الأرواح التى تحررت من أجسادها . وكنت ما أزال أصغى بفكرى إلى لهجتها التى ما زلت أذكرها ، كما كنت أتمثل وجهها الشاحب الواهن ، ونظرتها السامية وهى راقدة فى فراش الموت تتعجل العودة إلى ربِّ الأرباب ، حين سمعت خلفى فى الفراش غمغمة صوت واهن : « من هذا ؟ » .. وكنت أعلم أن مسز ريد لم تتكلم منذ أيام ، فهل تراها أفاقت ؟ .. وذهبت إليها وقلت : «أنا .. أيتها الخالة ريد ! » .. فكان جوابها : «من .. أنا ؟ .. من أنت ؟»

وتطلعت إلىّ فى دهشة ، ونوع من الفزع ، وإن لم يبلغ حد الذعر المهتاج ، ثم قالت : « إنك غريبة عنى تماماً .. أين بيسى ؟ »

— فى المبنى الخارجى يا خالتى .

— خالتك ؟ .. من ذا الذى يدعونى خالته ؟ .. أنت لست من آل جيبسون ! .. إننى أعرف هذا الوجه وهاتين العينين وهذا الجبين . إنك تشبهين .. تشبهين (جين إير) !

ولم أقل شيئاً مخافة أن أسبب لها صدمة إذا أنا أفصحت لها عن شخصيتى .. فاسترسلت : « ومع ذلك أخشى أن أكون مخطئة لأن أفكارى تخدعنى .. إننى أريد أن أرى جين إير ، ومن ثم أتوهم فيك شبهاً ، حيث لا شبه بينكما ! هذا إلى أنها لابد قد تغيرت كثيراً فى الأعوام الثمانية التى مضت ! » .. فأخذت أؤكد لها فى رفق أننى (جين إير) التى تريد رؤيتها ، حتى إذا أدركت أنها وعت ما قلت تماماً ، أخبرتها كيف أرسلت بيسى زوجها إلى (ثورنفيلد) ، وكيف لبيت الدعوة وجئت على عجل ، فقالت بعد قليل : « أنا أعلم أننى جد مريضة ، فقد حاولت منذ دقائق أن أتقلب فى فراشى ، فوجدتنى لا أستطيع الحراك : يجدر بى أن أريح ضميرى قبل أن أموت ، لأن ما نستخف به ونحن فى صحة جيدة ، يثقل كاهلنا فى مثل هذه الساعة التى أنا فيها الآن .. هل الممرضة فى الغرفة ؟ .. هل هناك أحد غيرك فى الغرفة ؟ »

* * *

• وإذ أكدت لها أننا كنا وحدنا ، قالت : « حسناً ، لقد أخطأت فى حقك مرتين ، خطأ أندم عليه الآن . فأنا أولا نكثت بالعهد الذى قطعته على نفسى لزوجى ، وهو أن أربيك كما لو كنت ابنتى . وثانياً .. » ثم سكتت وراحت تحدث نفسها قائلة : « وعلى كل فليس لهذا الأمر أهمية .. إننى قد أشفى ، فيكون شعورى بأننى أذللت نفسى لها ، مبعث ألم لى » .

وحاولت عبثاً أن تنقلب على الجنب الآخر ، فتبدلت أساريرها ، ولاح أنها كانت تعانى إحساساً داخلياً ، لعله كان نذيراً بآخر آلامها فى الحياة . إذ أنها لم تلبث أن قالت : « يجب أن أتغلب على ذلك ، لأن العالم الآخر أمامى ، ويحسن بى أن أخبرها .. اذهبى إلى صوان ملابسى وافتحيه ، وأخرجى منه خطاباً ترينه هناك » .. فأطعت أوامرها .. ثم قالت : « اقرئى الخطاب ! » .. وكان قصيراً ، جاء فيه :

« سيدتى

هل تتكرمين بأن ترسلى عنوان ابنة أخى جين إير ، وأن تخبرينى كيف حالها ، لأن فى نيتى أن أكتب فى القريب العاجل طالباً إليها أن تأتى إلىّ فى ماديرا ، بعد أن بارك الله جهودى وأصبحت فى سعة : ولما لم يكن لى زوجة ولا ولد ، فإننى أرغب فى أن أتبناها فى حياتى ، وأوصى لها عند موتى بكل ما أتركه .

وتفضلى يا سيدتى ... إلخ　　　جون آير — ماديرا »

وكان تاريخ الخطاب يرجع إلى ثلاث سنوات ، فسألتها : « لماذا لم أسمع بهذا من قبل ؟ »

— لأننى كنت أكرهك كراهية بالغة ، حالت دون أن أمد لك يداً تنتشلك وترفعك : ولن أنسى سلوكك معى يا جين ولا الحقد الذى عصفت به فى وجهى ذات يوم ، ولا اللهجة التى صارحتنى بها بأنك تمقتيني وتعتبريننى شر مخلوقة فى الوجود ، ولا النظرة والصوت اللذين لم يكونا يناسبان طفولتك عندما أكدت لى أن مجرد التفكير فىّ يسقمك وأننى عاملتك بقسوة شديدة . لم يكن فى وسعى أن أنسى إحساساتى عندما هببت ونفثت سموم ذهنك : لقد خفت وكأنك كنت وحشاً ضارياً، ضربته أو دفعته، فتأملنى بعينين آدميتين . وراح يلعننى بصوت إنسانى !.. أعطينى بعض الماء .. هيا أسرعى !

فقلت وأنا أقدم لها جرعة الماء التى طلبتها : « لا تعودى يا مسز ريد العزيزة إلى التفكير فى كل هذا ، دعيه ينجاب عن رأسك ، واغفرى لى حدة اللسان ، لأننى كنت يومذاك طفلة فى الثامنة أو التاسعة من العمر » .. فلم تكترث لشىء مما قلت ، وإنما تنهدت — بعد أن تذوقت الماء — ثم استطردت تقول : « أقول لك إننى لم أستطع أن أنسى ما مضى ، ولكنى انتقمت لنفسى ، لأننى لم أطق أن أرى عمك يتبناك ، أو أن أراك فى راحة وهدوء ، فكتبت إليه أنك أسفة إذ أخيب رجاءه ، فإن جين إير قد توفيت بحمى التيفوس فى (لو وود) ! والآن .. لك أن تكتبى ما تشائين ، وأن تكذبى قولى ، وأن تكشفى عن زيفى بأسرع ما تستطيعين :: لقد ولدت — على ما أظن — لتكونى سبباً فى تعذيبى ، ولولاك لما اقترفت الجرم الذى تنغص ذكراه ساعاتى الأخيرة ! »

— ليتك تكفين عن هذه الأفكار يا خالتى وتنظرين إلىّ بعين العطف والغفران .

— إن لك طبعاً رديئاً ياجين .. طبعاً لا أستطيع إلى اليوم أن أفهمه، إذ كيف استطعت الهدوء والصبر تسع سنين على معاملتنا ، ثم هببت فى السنة العاشرة كالنار العاتية العنيفة ؟ هذا ما لم أستطع إدراكه !

— ليست طباعى سيئة بمثل ما تتوهمين . أنا فعلا عصبية ، ولكنى لست حقوداً أو محبة للانتقام . ولكم كان يسعدنى — فى طفولتى — أن أحبك لو أنك هيأت لى السبيل ، وكم أتمنى الآن فى إخلاص أن أكون معك على وئام وصفاء .. هيا قبلينى يا خالتى !

وقدمت لها خدى حتى التصق بشفتيها ، ولكنها لم تقبله قائلة إننى أضايقها بالاتكاء على الفراش ، ثم رغبت مرة أخرى فى أن تشرب .. ولما أسندتها بذراعى ، أمسكت يدها الباردة كالثلج ، فجذبت أصابعها الواهنة ، ونأت بنظراتها عنى .. وأخيراً قلت : « سواء أأحببتنى أم كرهتنى ، فإننى قد صفحت عنك كل الصفح ، فاطلبى من الله غفرانه ، واهدئى بالا ! »

مسكينة هذه المرأة المعذبة ! لقد ضاعت الفرصة أمامها لمحاولة تغيير طباعها وأفكارها . وما دامت قد عاشت تكرهنى ، فسوف تقضى وهى ما تزال تكرهنى :

ودخلت الممرضة إذ ذاك تتبعها بيسى ، فتمهلت لعلى أرى دليلا على حبها ، ولكنها لم تبد شيئاً من ذلك ، ثم اشتدت بها الغيبوبة فلم تفق منها حتى أسلمت الروح فى منتصف الليل : ولم أحضر موتها لأغمض

عينيها ، ولا حضرته واحدة من ابنتيها ، ولكنهما أخبرتاني في الصباح أن كل شيء قد انتهى ، فذهبت مع إليزا لنراها ، بينما انفجرت جورجيانا في بكاء عال ، وقالت إنها لا تجرؤ على الذهاب معنا ؛ وهناك .. كانت سارة ريد مسجاة .. سارة ريد — التي كانت ذات يوم قوية نشيطة — أصبحت جامدة ساكنة ، وقد غطى جفنها البارد عينها المتحجرة . وكان جبينها وملامحها الصارمة ما تزال تكسوها مسحة الروح المتصلبة التي لا تلين ، فكانت جثة عجيبة كئيبة . ورنوت إليها في أسى وألم ، دون ما شعور رقيق أو رثاء ، أو رجاء ، أو قنوط .. مجرد ألم من أجل همومها وشقائها ، لا لمصابي فيها ، واكتئاب وحزن — بغير دموع — أمام رهبة الموت على هذه الصورة !

ونظرت إليزا إلى أمها في صمت ، ثم قالت في النهاية : « كان يمكن بنيتها القوية أن تبلغ من العمر أرذله ، لولا أن قصف عمرها الهم والكدر ! » .. ثم أمسكت لسانها نوبة من البكاء لحظة ، حتى إذا انقضت ، تحولت وغادرت الحجرة . فتبعتها دون أن تذرف إحدانا دمعة واحدة !

* * *

الفصل الثاني والعشرون

● لم يكن مستر روشستر قد منحني إجازة لغير أسبوع واحد ، ومع ذلك انقضى شهر قبل أن أغادر (جيتسهيد) . ولقد أردت أن أسافر بمجرد تشييع الجنازة ، ولكن جورجيانا توسلت إلي أن أبقى إلى أن تتمكن من السفر إلى (لندن) حيث دعاها خالها مستر جيبسون الذي

كان قد جاء ليشرف على دفن أخته ويسوي أمور العائلة . وحدثتني جورجيانا عن خوفها من أن تترك وحدها مع إليزا ، التي لا تلقى منها عطفاً في حزنها ، ولا عوناً على مخاوفها ، ولا مساعدة في استعداداتها للسفر ، فاحتملت من ولولتها وتأوهاتها الأنانية قدر ما وسعني ، وبذلت قصارى جهدي في حياكة ملابسها وحزمها ، ولو أنها كانت تؤثر الكسل والخمول وتتركني أعمل وحدي ، حتى لقد قلت لها في سريرتي : « لو قدر عليك وعلي أن نعيش معاً على الدوام — يا ابنة الخال — لوجب أن نبدأ حياتنا على أساس جديد ، فما كنت أقبل في استخذاء أن أحمل العبء وحدي ، بل كنت أعين لك نصيبك من العمل ، وأضطرك إلى أدائه ، وإلا بقي كما هو بلا أداء .. وكنت أصر أيضاً على أن تكتمي في صدرك بعض هذا التشدق بالكلام ، وهذه الشكاوى غير الصادقة ! ولولا أن قرابتنا هذه مؤقتة وزائلة ، ولولا أن هذا الظرف محزن ، لما رضيت من ناحيتي بهذا الوضع وهذا الإذعان ! »

وأخيراً ، ودعت جورجيانا عند سفرها .. ولكن جاء دور (إليزا) إذ طلبت مني هي الأخرى أن أبقى معها أسبوعاً آخر ، لأن خططها كانت تحتاج إلى كل وقتها واهتمامها . وكانت تعتزم الرحيل إلى بلد غير معروف ، فكانت تقضي نهارها في حجرتها وقد أغلقت عليها بابها بالمزلاج ، وراحت تملأ حقائبها وتفرغ أدراجها وتحرق أوراقها ، دون أن تتصل بأحد ، تاركة لي شئون المنزل ومقابلة الزوار والرد على خطابات التعزية . ثم جاءتني صباح يوم تخبرني أنني مطلقة الحرية ..

وقالت : « إننى أشكر لك خدماتك الغالية ، وسلوكك الرشيد !..
وإنه لفارق كبير بين أن يعيش الإنسان معك وبين أن يعيش مع مخلوقة
مثل جورجيانا !.. إنك تؤدين واجبك فى الحياة بنفسك ، دون أن
تكونى عالة على غيرك » .. ثم استرسلت قائلة : « غداً سأقلع إلى
أوروبا ، وسأقيم بالقرب من مدينة (ليل) فى دار دينية، لك أن تسميها
ديراً . وهناك سأقضى العمر فى راحة بال وهدوء . وسوف أكرس
نفسى بعض الوقت لأداء الامتحان فى المبادئ الكاثوليكية الرومانية ..
ثم لدراسة نظمها ، حتى إذا وجدتها — كما أكاد أعتقد — خير ما يهيئ
العمل بنظام وترتيب، اعتنقت المذهب الرومانى، وربما دخلت الدير » .

ولم أبد دهشتى إزاء ما اعتزمته ، كما لم أحاول أن أثنى إرادتها ،
لاعتقادى بأن هذا ربما ناسبها ، وربما كان أجدى لها . وعندما ودعتنى
قالت : « أستودعك الله يا ابنة العمة . أرجو لك أطيب التمنيات ،
فإنك ذات عقل لا بأس به » .. فأجبتها قائلة : « وأنت لست مجردة من
العقل يا ابنة الخال ليزا ، ولكنك بعد عام واحد سوف تقبرين نفسك
فى دير فرنسى ، وإن كان هذا ليس من شأنى ولا يهمنى ما دمت تجدين
فى عملك هذا ما يلائمك » .

— إنك على حق !

ثم سارت كل منا فى طريقها الخاص . وربما أنه لن تسنح فرصة
أخرى لذكرها ثانية ، أو الإشارة إلى شقيقتها ، ففى وسعى أن أذكر
أن جورجيانا اقترنت برجل غنى طاعن فى السن ، وأن إليزا التحقت

فعلا بالدير وهى الآن رئيسته ، بعد أن اجتازت المراحل الدينية ،
وقد وقفت عليه حياتها .

* * *

● بأى شعور يعود الناس إلى أوطانهم بعد غياب طويل أو قصير ؟..
لست أدرى لأننى لم أجرب هذا الشعور من قبل .. ولقد خبرت فيما
مضى شعورى عند العودة إلى (جيتسهيد) — وأنا طفلة — بعد نزهة
طويلة على الأقدام، لألقى التقريع والتأنيب بسبب ما كان يبدو علىّ من
برودة أو اكتئاب !.. كما عرفت فيما بعد ، شعورى وأنا عائدة من
الكنيسة إلى (لو وود) متلهفة على وجبة طيبة ونار قوية فلا أجد هذه
أو تلك !.. وما شعرت فى عودتى إلى إحداهما بسرور واشتياق ، إذ لم
تكن هنالك جاذبية تتضاعف كلما اقتربت .. أما العودة إلى (ثورنفيلد)
فإننى لم أكن قد جربتها بعد !

وبدت رحلتى شاقة .. شاقة جداً، إذ قطعت فى اليوم الأول خمسين
ميلا ، ثم خمسين أخرى فى اليوم الثانى .. وكانت أفكارى تدور فى اليوم
الأول حول مسز (ريد) وساعاتها الأخيرة وموتها وجنازتها .. وحول
جورجيانا التى تمثلتها فى خاطرى تمرح فى قاعة الرقص .. وحول إليزا
وقد قبعت فى إحدى حجرات الدير الموحشة.. ثم رحت أحلل ما كان عليه
سلوك كل منهما ، وما كان لديها من شذوذ ، إلى أن جن الليل فتبددت
هذه الأفكار ، حتى إذا رقدت على فراش السفر ، عاودتنى من جديد..

كنت عائدة إلى (ثورنفيلد) .. ولكن ، كم كان مقدوراً لى أن
أمكث هناك ؟.. مدة قصيرة كما أعتقد جازمة ، فقد علمت من الخطابات

التي أرسلتها مسز فيرفاكس أن الضيوف غادروا القصر ، وأن مستر
روشستر سافر إلى لندن منذ ثلاثة أسابيع ، ولكنه لن يلبث أن يعود
بعد أسبوعين . وقد استنتجت مسز فيرفاكس من سفره ، أنه ذهب
ليعد العدة لحفلة زواجه ، إذ تحدث عن شراء عربة جديدة . وكانت
ترى في زواجه بالآنسة انجرام شيئاً غريباً ، ولكنها بعد كل ما سمعته من
الناس ، وما رأته بعيني رأسها ، لم تعد تشك في أن هذا الزواج واقع
بعد قليل . ولما تذكرت هذه الأقوال — أثناء رحلتي — قلت في نفسي
أن لها أن تشك ما شاءت ، ولكني لا يساورني أدنى شك أو ارتياب .

وكان السؤال الذي تلا ذلك هو : « إلى أين أذهب ؟ » .. لقد حلمت
أمس بالآنسة انجرام ورأيتها تغلق أبواب (ثورنفيلد) في وجهي ، وتشير
إلى طريق آخر ، كما رأيت مستر روشستر في منامي وقد عقد ذراعيه على
صدره ، وراح يبتسم منها ومني ، ابتسامة زاخرة بالسخرية والاستخفاف .

ولم أكن قد ذكرت لمسز فيرفاكس موعد عودتي بالضبط ، لأنني
لم أشأ أن تنتظرني العربة في (ميلكوت) ، بل عولت على أن أقطع
الطريق سيراً على الأقدام في صمت وهدوء . وفعلا ، غادرت فندق
(جورج) — بعد أن تركت حقيبتي لدى حارسه — في حوالى الساعة
السادسة من إحدى أمسيات شهر يونيو . واتخذت الطريق القديم إلى
(ثورنفيلد) .. وكان طريقاً يمتد الشطر الأكبر منه خلال الحقول ،
وكان قليلاً ما يجتازه أحد . ولم تكن الليلة من ليالي الصيف الصحوة
ولا البديعة ، وإن كان الهواء عليلا .. وكان الفلاحون منهمكين في
الحصاد على طول الطريق .. ومع أن السماء لم تكن خالية من السحب ،

إلا أنها كانت تبشر بجو طيب إلى فترة طويلة ، فإن زرقتها — حيثما كان
من الممكن رؤية الزرقة — كانت خفيفة ، وثابتة .. كما كانت سحبها
عالية ورقيقة .. كذلك كان الغرب دافئاً ، لا يبين فيه مطر ولا رطوبة ..
وكان يلوح وكأنما اشتعلت فيه نار .. أو كأنه معبد أوقدت فيه النار ،
خلف ستار من البخار المرمري .. وخلال ثغرات السحب ، كانت
أشعة الشمس الراحلة ، تبدو ذهبية مشوبة باحمرار ..

ورحت أشعر باغتباط كلما قصر الطريق أمامي .. وقد بلغ من
عنفوان غبطتي أن توقفت مرة عن السير لأسائل نفسي عن سر هذا
الفرح ، ولأذكر عقلي بأن هذا الذي كنت أسعى إليه ليس منزلي ،
ولا هو بمقر دائم لي ، ولا هو بمكان يضم أصدقاء مشغوفين بي
يترقبونني وينتظرون وصولي . وقلت : « من المؤكد أن مسز فيرفاكس
ستقابلني باسمة . وستصفق أديل وتجري لاستقبالي ، ولكنك تعرفين
جيداً أنك إنما تفكرين في شخص آخر غيرهما ، وأن هذا الشخص
لا يفكر فيك ! » .

ولكن ما أشد عناد الشباب ، وما أشد العمى الناشيء عن قلة
التجارب ! لقد أكد لي الشباب وقلة التجربة أنني سوف أغتبط كل
الاغتباط إذ أحظى برؤية مستر روشستر مرة أخرى ، سواء أنظر
إلي باهتمام أم لم ينظر . وراحا يهيبان بي قائلين : « أسرعي . أسرعي ؟
كوني إلى جانبه بضعة الأيام أو الأسابيع القليلة الباقية ، قبل أن تفارقيه
إلى الأبد » ! .. وكظمت إذ ذاك في صدري ألماً متجدداً مبرحاً ، وأسرعت
في طريق لا ألوي على شيء .

● وكان العمال يحصدون فى أراضى (ثورنفيلد)، أو بالأحرى كانوا قد فرغوا من عملهم وبدأوا يعودون إلى منازلهم. ولم يعد أمامى سوى حقل أو اثنين أجتازهما ثم أعبر الطريق إلى أبواب القصر الخارجية.؟ وكانت الزهور كثيرة متناثرة على طول الطريق، ولكن الوقت لم يكن يتسع لأقطف شيئاً منها، فقد أردت الوصول إلى القصر بأسرع ما كنت أستطيع.. وأخيراً عبرت الطريق، لأجد مستر روشستر جالساً على مقعده فوق سلم السياج، وفى يده قلم ودفتر يكتب فيه!.. ولم يكن شبحاً، ومع ذلك فقد خارت أعصابى، وبقيت لحظة لا أملك زمام حواسى.. فما معنى هذا؟.. لم يكن يخطر لى ببال قط أننى سوف أرتجف هكذا عندما أراه، وأننى سوف أفقد القدرة على الكلام والحراك فى حضرته.

إذن فلا بد لى من العودة — متى استطعت التحرك من مكانى — حتى لا أضع نفسى أمامه موضع السخرية والتهكم! وكنت أعرف طريقاً آخر إلى المنزل.. ولكن ما كان ليجدينى أن أعرف عشرين طريقاً، إذ أن عينى مستر روشستر وقعتا علىّ، فسرعان ما ألقى دفتره وقلمه جانباً، ثم هتف قائلا: «هالو.. هل عدت؟! تقدمى.. من فضلك!».

وأحسبنى تقدمت وإن لم أدر كيف تقدمت، لأننى لم أكد أفطن إلى حركاتى، بل قصرت همى على التظاهر بالهدوء، وعلى السيطرة على عضلات وجهى التى شعرت بها تتمرد فى قحة على إرادتى، وتحاول جاهدة أن تطبع على أساريرى صورة كنت معولة على إخفائها. ولكننى كنت أحمل قناعاً، فأسدلته على وجهى وتقدمت من السيد فابتدرنى قائلا: «وهاهى ذى جين إير؟ هل أنت قادمة من (ميلكوت).. سيراً

على الأقدام؟.. نعم فهذه إحدى حيلك.. لم ترسلى فى طلب العربة وتأتى كغيرك من الناس العاديين، ولكنك آثرت المجىء خفية فى الغسق مثل حلم أو خيال! بالله ماذا فعلت طوال هذا الشهر؟».

— قضيته مع زوجة خالى التى توفيت، يا سيدى.

— هذا جواب من إجاباتك المأثورة عنك يا جين! احفظينى يا ملائكة، لقد جاءت جين إير من العالم الآخر.. من مدينة الموتى.. وبادرت تخبرنى بذلك بمجرد أن لقيتنى هنا وحيداً وسط الظلام!..! لو أننى أوتيت الجرأة لمستك يدى لأتبين هل أنت جسم أو خيال يا شيطانة!.. ولكنى لو وجدت الجرأة فلن أمسك بغير سراب خادع أزرق اللون. يالك من شاردة.. وأية شاردة!».

وتوقف لحظة عن الكلام، ثم استرسل قائلا: «لقد غبت عنى شهراً كاملا ونسيتنى كل النسيان.. أقسم على ذلك!».

وكنت أعلم أن فى لقاء سيدى مرة أخرى سروراً وابتهاجاً، رغم أنه لن تنقضى فترة وجيزة حتى تنقطع صلتى به، ورغم إيمانى بأننى لست شيئاً مذكوراً لديه. ولكنه أوتى قوة غريبة، كانت تبعث السعادة حتى فى الفتات الذى يتناثر من مائدته الدسمة، وتبتهج به الطيور الضالة الغريبة من أمثالى. والواقع أن كلماته الأخيرة كانت بلسماً دلنى على أنه كان يعلق أهمية كبيرة على أن أذكره أولا، ثم ها هو ذا يشير إلى (ثورنفيلد) على أنه منزلى فياليته كان كذلك!

ولم يبارح السيد مكانه عند السلم، ولم أجد بى ميلا إلى مغادرته،

فسألته هل كان فى لندن ، فأجاب : « نعم .. وأحسبك استنتجت هذا بثاقب فكرك ؟ » .

– لقد أخبرتنى به مسز فيرفاكس فى إحدى خطاباتها .

– وهل أخبرتك بسر سفرى ؟

– أوه . نعم يا سيدى ، فكل إنسان يعرف مهمتك .

– يجب أن تشاهدى العربة يا جين لترى هل توائم مسز روشستر ، وهلا تبدو فيها كالملكة وهى تضطجع بين الوسائد الأرجوانية . كم أود يا جين أن أكون بمظهرى الخارجى نداً لها . أخبرينى ياساحرة ، هل فى وسعك أن تزودينى بتعويذة أو بجهاز ترشيح ، أو أى شيء يجعلنى رجلاً جميلا !

– إن هذا فوق أية قوة ساحرة يا سيدى !

ثم قلت فى نفسى : « إن عين المحب هى كل السحر المنشود ، فأنت جميل فيها ، ولعبوسك فى نظرها قوة دونها قوة الجمال ! » .. وكانت لمستر روشستر القدرة على أن يقرأ أحياناً ما يدور بخاطرى ببراعة لا أستطيع إدراكها ، فلم يعن فى هذه المرة بالجواب الذى نطق به لسانى ، بل ابتسم ابتسامة ذات معنى لم تكن تبدو على فمه إلا فيما ندر . وأخيراً أفسح لى الطريق قائلا : « سيرى يا جانيت واصعدى إلى المنزل ، وضعى قدمك المتعبة الصغيرة الجوالة على عتبة قصر أحد أصدقائك ! » .

* * *

● ولم يكن فى وسعى إلا أن أطيعه فى صمت ، دون حاجة إلى مزيد من الكلام ، فعبرت السياج معتزمة أن أمضى فى طريقى ، ولكنى سرعان

ما استدرت – أو بالأحرى أكرهتنى قوة قاهرة على أن أستدير – ثم نظرت إليه وقلت : « أشكرك يا مستر روشستر على عطفك . إننى فى منتهى السعادة لعودتى إليك ، وإن دارى هى حيث توجد أنت .. دارى الوحيدة ! » .. ثم هرعت بسرعة ما كان ليستطيع معها أن يلحق بى لو أنه شاء !.. وجنت (أديل) الصغيرة عندما شاهدتنى ، واستقبلتنى مسز فيرفاكس بحفاوتها المعتادة ، الصادقة ، بينما ابتسمت (لياه)، وقالت لى صوفى : « طابت ليلتك » وهى بادية السرور ؟.. كان ذلك ممتعاً يدعو للبهجة ، إذ ليس ثمة سعادة أكبر من أن تكون محبوباً من زملائك وأقرانك وأن تشعر بأن حضورك قد زادهم راحة وتسلية .

وفى ذلك المساء ، أغمضت عينى حتى لا أرى المستقبل . وسددت أذنى عامدة كى لا أسمع الصوت الذى لم يكن ينفك ينذرنى بالفراق القريب والأحزان القادمة. فجلست بعد تناول الشاى مع مسز فيرفاكس – وأديل تلعب أمامنا – إلى أن دخل علينا مستر روشستر دون سابق إنذار . فلما رآنا على تلك الحال ، بدا عليه السرور . ورحت بدورى أتوسل إلى الله أن لايفرق بيننا بعد زواجه ، وأن نعيش معاً فى مكان واحد تحت رعايته وفى حمايته ، وألا نحرم دفء وجوده معنا .

وانقضى على عودتى إلى (ثورنفيلد هول) شهران كانا زاخرين بالهدوء المريب المشوب بالغموض .. فلم نتحدث بشيء عن زواج سيد الدار ، ولم أشهد أية استعدادات لمثل هذه المناسبة .. ولم يكن يمضى يوم تقريباً دون أن أسأل مسز فيرفاكس عما إذا كانت قد سمعت شيئاً ، فكانت تجيبنى دائماً بالنفى .. بل لقد وجهت إليه المرأة سؤالا صريحاً

عن موعد قدوم عروسه ، فلم يجبها إلا بكلمة مازحة ، وبابتسامة من ابتساماته الغامضة التي لا تدرك منها شيئاً على الإطلاق .. على أن شيئاً واحداً في مسلكه أثار دهشتي بوجه خاص .. ذلك هو انقطاعه عن الرحلات وعدم زيارته لقصر انجرام .. صحيح أن المسافة إلى ذلك القصر لم تكن تقل عن عشرين ميلا ، ولكن ما قيمتها في نظر العاشق ، وكيف يهم رجل اشتهر بركوب الخيل - مثل مستر روشستر - بمسافة كهذه ؟ لذلك أخذت تجيش في صدري آمال ما كان من حقي أن أنعم بها ! وخيل إلى أن أحد الفريقين أو كليهما قد عدل عن الزواج وغير رأيه . واعتدت أن أتفرس في وجه مخدومي أحياناً ، لعلني أقرأ فيه ما يدل على الحزن أو الاكتئاب القاسي ، ولكنني لم أكن أذكر أن هذا الوجه بدا صافياً يوماً من السحب أو مشاعر السوء ! وكنت إذا قضيت وتلميذتي لحظات معه ، أشعر بأن قواي قد خارت ، وبأنني غرقت في بحر من الاكتئاب ، فيبتهج هو بهذه الظاهرة .. ثم راح يكثر من دعوتي إلى حضرته ، ويغدق عليّ من حنانه ، ولكن ... وا أسفاه ، إنني لم أحبه من قبل كما أصبحت أحبه إذ ذاك !

* * *

الفصل الثالث والعشرون

● انتصف الصيف في انجلترا مشرقاً بسماء صافية ، وشمس متألقة ، ظلا يتتابعان في توال قليلا - بل نادراً - ما تحظى به بلادنا التي تطوقها الأمواج . فكأنما وفدت من الجنوب زمرة من أيام إيطاليا ، كما يفد سرب من الطيور الرحالة البديعة ، فيحط على قمم تلال (البيون) المشرفة على البحار . وكان التبن قد نقل إلى المخازن بعد الحصاد ، وازدهرت الحقول حول (ثورنفيلد) ، وقد انبثت خضرة النباتات الجديدة في جنباتها .. وابيضت الطرق ولوحتها الشمس بحرارتها . وكانت الأشجار في عنفوانها ، فبدا الفرق واضحاً بين السياج والغابة المورقة المزدهرة ، وبين المراعي الخاوية ، التي لفحتها الشمس حتى تشققت أرضها !

وكانت أديل قد أوت إلى فراشها مع غروب الشمس في إحدى أمسيات الصيف ، بعد أن نال منها التعب ، إذ ظلت نصف النهار تقطف التوت .. فعنيت بها حتى استغرقت في النعاس ، ثم غادرتها وسعيت إلى الحديقة .. وكانت تلك أحلى ساعات اليوم الأربع والعشرين ، إذ خبت نيران النهار المشبوبة ، وأخذ الندى يتساقط على السهول التي كان الحر يخنق أنفاسها ، وعلى القمم العالية التي حرقتها الشمس .. وحيث غربت الشمس في بساطة ، لا تشيعها مواكب السحب ، انتشرت أرجوانة بديعة ، تتألق بوميض كوميض جوهرة حمراء ، وتتوهج كنار الفرن على قمة أحد التلال ، ثم تمتد نحو السماء وفي الفضاء ، وهي ترق وتخف ، حتى تكسو نصف السماء .. وكان للمشرق فتنة هو الآخر .. فتنة بديعة ، داكنة الزرقة ، يشيع فيها تألق جوهرة متواضعة ، ويبرز خلالها نجم

وحيد .. ولن يلبث أن يزدهى بالقمر ، ولكن القمر كان لايزال – فى
تلك الساعة – محتجباً وراء الأفق !

وسرت برهة فى الممر المرصوف ، ثم شممت عبيراً مألوفاً .. دخان
سيجار كان يتسلل من إحدى النوافذ .. وتحت نافذة المكتبة وقد فرق
بين مصراعيها فراغ بعرض الكف ، فخشيت أن يرانى أحد من خلفها ،
ومن ثم اختصرت الطريق إلى جوف البستان .. ولم تكن فى الضيعة
بأسرها بقعة أكثر حمى وعزلة ، وأقرب إلى الجنة ، من هذه البقعة .
فقد كان يفصلها عن فناء القصر – من أحد الجوانب – جدار شاهق ،
ويفصلها عن المروج – من جانب آخر – طريق تحف به أشجار الزان ..
وفى أقصاها ، كان ثمة سياج منخفض . هو الفاصل الوحيد بينها وبين
الحقول الموحشة .. وفيما كنت أتنقل بين الزهور اليانعة ، تحت ضوء
القمر وقد بزغ من ناحية الشرق ، توقفت ، لا لأننى رأيت أحداً أوسمعت
صوتاً ، ولكن لأننى شممت عبيراً أنيقاً .. عبيراً طغى على شذى الورود
والياسمين والقرنفل والزهور البرية .. ولكنه لم يكن عبير ورود ولا عبير
زهور .. بل عرفت بجلاء أنه كان دخان سيجار مستر روشستر ،
فوقفت أتلفت حولى ، وأرهف السمع . فلم أر غير الأشجار الحملة
بثمارها ، ولم أسمع سوى تغريد الطيور .. لم أر جسماً يتحرك أو أسمع
وقع قدمين ، ولكن رائحة الطباق كانت تشتد .. فكان لابد لى من أن
أفر !.. وبادرت إلى الباب المفضى إلى الأدغال ، فرأيت مستر روشستر
قادماً !.. ووقفت جانباً ، أحدث نفسى بأنه لن يلبث أن يرتد عائداً من
حيث أتى ، وأنه لن يرانى إذا لم أتحرك من مكانى .. ولكن كلا .. كان

قد وجد مثلى فى السماء مبعث اغتباط وسرور ، ولم يكن تأثير هذه الحديقة
القديمة فى نفسه بأقل من تأثيرها فى نفسى ، فأخذ يتمشى خطوة فخطوة ،
وهو يتطلع تارة إلى ثمار الأشجار ، وتارة أخرى يقطف بعض الزهور ..
إلى أن عثر على فراشة كبيرة فانحنى فوقها ليتأملها وهو يولينى ظهره .
وإذ ذاك خطر لى أن أتسلل بخطوات خفيفة لعلى أستطيع الإفلات دون
أن يرانى وهو منهمك فى تأمل الفراشة .

وسرت على العشب خشية أن يفضحنى وقع حذائى على الأرض
المرصوفة بالحصى . وكان السيد واقفاً بين أحواض الزهور ، على
مسافة ياردة أو اثنتين من حيث كان يجب أن أجتاز الطريق .. ولكنى
لم أكد أجتاز ظله ، حتى خاطبنى بصوت هادئ دون أن ينظر إلىّ :
« تعالى ياجين فانظرى إلى هذه الفراشة ! » .. وعجبت كيف أحس بى
مع أننى لم أحدث صوتاً ، فارتجفت فى البداية ، ولكنى تقدمت إليه
فقال : « انظرى إلى جناحيها .. إنها تذكرنى بحشرة كبيرة فى جزر
الهند الغربية .. وقلما يرى الإنسان بين هوام الليل فراشة كهذه فى
انجلترا . ها هى قد طارت » .. وحلقت الفراشة بعيداً ، فأخذت بدورى
أتراجع بجفلة ، ولكن مستر روشستر تبعنى إلى أن بلغنا الباب فقال :
« ارجعى فلا يحسن أن يأوى الإنسان إلى المنزل فى مثل هذه الليلة
الجميلة . ولا شك فى أن أحداً لايحب أن يمضى إلى فراشه فى وقت تغرب
فيه الشمس مع طلوع القمر ! » .

* * *



وسرت على العشب خشية أن يفضحني وقع حذائى على الأرض المرصوفة بالحصى

• من العيوب التى أعترف بها ، عجزى عن الكلام ، إذ يصيبنى العىّ فى وقت الحاجة ، على الرغم من زلاقة لسانى فى بعض الأحيان . وهذا العىّ لا يداهمنى إلا حين أقع فى مأزق أو أزمة ، وأغدو فى حاجة إلى كلمة أو عبارة تخرجنى منهما .. ولقد كنت فى ذلك الوقت زاهدة فى المشى مع مستر روشستر فى الحديقة ، فى مثل تلك الساعة ، ولكنى لم أجد عذراً لمغادرته وتركه ، فتبعته بخطوات ثقيلة ، بينا كانت أفكارى تعمل دائبة لعلها تهتدى إلى وسيلة الخلاص : على أن الرجل كان فى حالة من الهدوء والرزانة أخجلتنى من محاولاتى .. وخاطبنى قائلا : « إن (ثورنفيلد) مكان يشرح الصدر ويبهج النفس فى فصل الصيف . أليس كذلك يا جين ؟ » .. فقلت : « هو ذلك يا سيدى » ؟

ـ لاشك أنك تعلقت بثورنفيلد بعض الشىء ، ويشجعنى على هذا الاعتقاد ما أعرفه من حبك للطبيعة والجمال .

ـ الواقع أنى متعلقة بها .

ـ وأرى كذلك أنك متعلقة بتلك الطفلة الرعناء أديل والسيدة الطيبة القلب فيرفاكس .

ـ نعم أحبهما يا سيدى .

ـ هل يحزنك أن تفارقيهما !

ـ نعم !

فتنهد وقال : « واحسرتاه ! » . ثم سكت برهة ، وعاد يقول : « هذه سنة الحياة دائماً ، فما أن يستقر بك المقام فى مكان طيب ، حتى يناديك صوت إلى القيام واستئناف السير ، لأن ساعة الراحة قد انتهت ! »

– وهل لابد لى من استئناف السير ياسيدى ؟.. هل لابد من مغادرة (ثورنفيلد) ؟

– هذا ما أظنه يا جين ، وهو من دواعى أسفى ، ولكن لا مفر منه .

وكانت كلماته ضربة قاصمة ، ولكنى لم أدعها تسلبنى قواى أو تهدم عزيمتى ، فقلت : « حسناً ياسيدى : سأكون مستعدة متأهبة ، متى صدرت الأوامر لى بالرحيل » .. فقال : « بل آن الأوان ، ويجب أن أصدر الأمر بذلك .. الليلة ! » :

– إذن فقد عولت على الزواج ؟

– تماماً .. بالضبط !.. لقد أدركت الحقيقة بما عرف عنك من فطنة وذكاء .

– حالا ياسيدى ؟

– حالا يا .. آنسة . إنك تذكرين أنى أشرت إلى رغبتى فى أن أضع عنقى فى أنشوطة الزواج المقدسة ، وأن أدخل فى زمرة المتزوجين ، وأن أضم إلى صدرى مس انجرام .. وإنها لتفوق سعة الذراعين ، ولكن هذا خارج عن موضوعنا ، والإنسان لايعد بكثرة مخلوقات فى بهاء بلانش الحسناء . آه ، كنت أقول .. أصغى إلىّ ياجين !.. أحب أن أذكرك بأنك أنت التى اقترحت أولا – بما لك من فطنة أحترمها ، وبعد النظر ، والحكمة ، والتواضع .. التى تلائم مكانتك – أن ترحلى أنت وأديل الصغيرة عن القصر إذا ما تزوجت من مس انجرام . وإنى لأتجاوز عما فى اقتراحك من تعريض بمحبوبتى ، ومن المؤكد أنى سأنساه عندما تبعدين

يا جانيت عن القصر ، ولن أذكر منه سوى ما انطوى عليه من حكمة اتخذتها قانوناً أتصرف بموجبه .. لابد من إلحاق أديل بمدرسة .. أما أنت يامس إير ، فلابد لك من مركز جديد !

فقلت : « أجل ياسيدى .. سأعلن فى الصحف فوراً عن وظيفة : وفى خلال ذلك أظن .. » ، وهممت بأن أقول : « أظن أن بوسعى أن أقيم فى القصر حتى أجد لنفسى مأوى آخر » . ولكننى أمسكت ، ولم أمض فى حديثى خشية أن يخوننى صوتى فلا أقوى على النطق بجملة طويلة كهذه .. وعاد مستر روشستر إلى حديثه فقال : « إننى أرجو أن أزف بعد شهر تقريباً . وفى هذه الأثناء ، سأبحث لك عن عمل ومأوى » :

– شكراً يا سيدى ، ويؤسفنى أن أسبب لك ..

– كلا . لاتعتذرى ، فإنى أعتقد أن من تقوم مثلك بعملها خير قيام ، حقاً فى أن تطلب العون من مخدومها فى أمر بسيط كهذا . والواقع أنى سمعت من حماتى القادمة الليدى انجرام عن وظيفة أظنها تلائمك ، وهى أن تتولى تعليم خمس بنات لمسز (ديونيسيوثين أوجال) سيدة قصر (بيترنت) بمقاطعة (كونوت) بأيرلندا .. وأعتقد أنك ستحبين أيرلندا ، إذ يقولون أن أهلها طيبو القلب .

فقلت : « إنها بعيدة ياسيدى » .. ولكنه قال : « لا بأس فى ذلك ، فإن فتاة راجحة العقل مثلك لاتعارض فى السفر » . فقلت : « ليس السفر هو الذى يهمنى ، وإنما .. المسافة . ثم إن البحر يفصل .. » ، وأمسكت

فقال : « يفصل ماذا ؟ » .. قلت : « أيرلندا عن انجلترا ، وعن ثورنفيلد ، وعن .. » ، فتساءل : « وماذا ؟ » .. فقلت : « وعنك أنت يا سيدى ! » .

* * *

● وتعلقت بذلك على الرغم منى ، وطفرت الدموع من عينى دون إرادتى ، ولكنى لم أبك بصوت يسمع ، بل تجنبت النهنهة .. كانت فكرة (مسز أوجال) و (بيترنت) قد أشاعت فى قلبى برودة قارسة .. وكانت فكرة الأمواج التى تفصل بينى وبين السيد الذى كنت أتمشى الآن إلى جانبه ، أشد برودة . وعدت أقول : « إنها مسافة بعيدة يا سيدى » .

— لاشك فى بعد المكان : وفوق هذا ، متى وصلت إلى هناك فإننى لن أراك ياجين : هذه حقيقة لاريب فيها لأننى لم أزر أيرلندا ولا أميل إلى الذهاب إليها . لقد كنا صديقين حميمين ياجين . أليس كذلك ؟

— نعم ياسيدى .

— ومتى كان الأصدقاء على وشك الفراق فإنهم يقضون معاً ودائماً وقتهم القصير الباقى : فتعالى نتكلم نحو نصف ساعة عن السفر وما سوف يتلوه من فراق .. تعالى نستجلى محاسن هذه الكواكب التى شرعت تتألق فى السماء .. هاهى ذى شجرة البندق .. وهاهو ذا المقعد بجانب جذعها ، فتعالى نجلس الليلة فى هدوء وسلام ، فقد لايتاح لنا أن نجلس معاً مرة أخرى :

ثم أجلسنى على المقعد وجلس بجانبى ، واستطرد يقول : « إن

المسافة إلى أيرلندا طويلة ياجين ، وإنه ليحزننى حقاً أن أبعث صديقتى الصغيرة فى هذه الرحلة الشاقة ، ولكن إذا لم يكن فى وسعى ماهو خير من ذلك ، فما حيلتى ؟ أتعتقدين أن بينى وبينك صلة من القرابة ياجين ؟ » .. وكان قلبى زاخراً بالأسى فلم أقو على الرد بكلمة واحدة . فقال : « ذلك لأننى أشعر أحياناً بشعور غريب نحوك ، لاسيما عندما تكونين قريبة منى بمثل ما أنت الآن .. بل يخيل إلىّ أن تحت أضلعى اليسرى خيطاً ربط رباطاً وثيقاً بخيط مماثله مشدود إلى أضلعك الصغيرة ، ولذلك أخشى أن ينقطع هذا الرباط الوثيق إذا فصلت بيننا هذه المسافة الشاسعة ، وعندئذ قد تدهم الآلام قلبى وتدميه . أما أنت فسوف تنسيننى .. فهتفت : « لن يكون هذا قط ياسيدى فإنك تعلم .. » ، ولم أستطع المضى إلى أكثر من ذلك ، فقال : « هل تسمعين ياجين هذا البلبل الذى يغرد هنالك فى الغابة ؟ أصغى إليه » .. وفيما كنت أصغى ، رحت أنشج بالبكاء ، لأننى لم أعد أحتمل أكثر من ذلك .. كنت مضطرة إلى الاستسلام لأحزانى فراحت تعصف بكيانى من رأسى إلى أخمص قدمى . وأخيراً .. عندما استطعت الكلام قلت : « ليتنى لم أولد ولم تقع عيناى على ثورنفيلد ! ! » .. فسألنى : « أذاك لأنك آسفة على فراقها ؟ »

واستبد بى الانفعال الشديد ، وقد أهاجه فى نفسى الحزن والحب الذى كان بين جنبى يحاول أن يفرض سلطانه ، ويناضل لكى تكون له السيطرة والغلبة ، ولكى يعيش ، وينهض ، ويتحكم أخيراً ، و.. يتكلم ، فقلت : « يحزننى أن أغادر ثورنفيلد لأننى أحب ثورنفيلد .. أحبها ، لأننى عشت فيها عيشة راضية ممتعة .. فى بعض الأحيان على الأقل ،

فلم يدسنى أحد ولم يرعنى مخلوق ، ولم أدفن مع عقول وضيعة ، ولم أحرم من التمتع بكل ما يأتلق ويسمو . وفيها تحدثت وجهاً لوجه مع من أحبه وأجله وأجد فيه البهجة والسرور .. مع العقل الوثاب الأصيل الواسع الأفق .. لقد عرفتك يامستر روشستر ، فمن دواعى حزنى العميق وجزعى الشديد أن أجدنى مضطرة إلى فراقك إلى الأبد ، بل إننى أرى الرحيل ضرورة .. وإنها لتبدو محتومة كضرورة الموت ! » .. فسألنى على الفور : « فيم تجدين هذه الضرورة ؟ » .. فقلت : « فيم ؟ .. إنك أنت الذى وضعتها أمامى ياسيدى » :

فتساءل : « فى أى شكل ؟ » .. وقلت : « فى صورة مس انجرام :: امرأة نبيلة وجميلة .. عروسك ! » :

وهتف : « عروسى ؟ أى عروس ؟! أنا لا عروس لى » ، فقلت : « ولكنك لن تلبث أن تحظى بعروس » .. فصرف بأسنانه وقال : « سأحظى .. أجل .. سأحظى ! » .. فقلت : « وإذن فلابد أن أذهب .» لقد قلت ذلك بنفسك » .. فقال : « كلا ، بل يجب أن تبقى .. أقسم لك وسأبر بقسمى ! » .. فقلت والانفعال يكاد يثيرنى : « أقول لك يجب أن أذهب . أتعتقد أن فى وسعى البقاء حتى لا أصبح شيئاً فى نظرك ؟ .. أتظننى آلة لا حس لها ولا شعور ؟ .. أتحسبنى أطيق أن يخطف خبزى من فمى ، وأن تنسكب من وعائى قطرة حياتى ؟ .. أو تخالنى مخلوقة بلا روح ولا قلب ، لأننى فتاة فقيرة ، نكرة .. خالية من الجمال ؟ .كلا ياسيدى ، إنك مخطىء فى ذلك ، فإن لى روحاً لايقل عن روحك وقلباً يحس كقلبك .. ولو أن الله وهبنى شيئاً من الجمال ، وبعضاً من المال ، لجعلتك تشعر

لفراق بمرارة كتلك التى أشعر بها لفراقك .. إننى لا أتحدث إليك كما يقضى العرف والتقاليد المصطلح عليها ، ولا عن طريق الجسد الفانى ، ولكنها روحى هى التى تخاطب روحك وكأنهما اجتازتا القبر ووقفتا متساويتين عند قدمى الله .. كما هو الوضع الحقيقى ! » .. فكرر مستر روشستر قولى : « كما هو الوضع الحقيقى ! » .. ثم أضاف وهو يحتوينى بين ذراعيه ويضمنى إلى صدره ، ويضغط شفتيه على شفتى : « هكذا ! » .

فقلت : « أجل ، هكذا ياسيدى .. ومع ذلك ، فهو ليس كذلك ! .. لأنك رجل متزوج أو فى حكم المتزوج ومخطوب لفتاة دونك شأناً .. فتاة لاتعطف عليك ، ولا أظنك تحبها حباً صادقاً ، لأننى سمعتك ورأيتك تسخر منها . إننى أحتقر مثل هذه الرابطة ولذلك فأنا أفضل منك .. دعنى أذهب ! » .

— إلى أين ياجين ؟ إلى أيرلندا ؟

— نعم إلى أيرلندا ، فقد صارحتك بما فى نفسى ، وفى وسعى الآن أن أذهب إلى أى مكان .

— هدئى روعك ياجين ولا تناضلى هكذا ، كطائر برى جن ذعراً فراح يشد ريشه من يأسه !

— لست طائراً ، ولا توجد ثمة شبكة لاقتناصى ، وإنما أنا إنسانة حرة ، ذات إرادة مستقلة تفرض علىّ أن أتركك .

* * *

● وبذلت مجهوداً آخر خلصني منه ، ثم وقفت أمامه منتصبة القامة فقال : « إن إرادتك سوف تقرر مصيرك ، وأنا أقدم لك قلبي ويدي وجزءاً من ممتلكاتي » .. فقلت : « هذه خدعة منك لا يسعني إلا أن أسخر منها ! » .. فقال : « بل إنني أسألك أن تقضي حياتك إلى جانبي ، وأن تكوني روحي الثانية وخير شريكة لي على الأرض » .. فقلت : « لقد اخترت فعلا من تجعلها كذلك ، فعليك أن تحترم قرارك وتتمسك به ! » .. فهتف قائلا : « اهدئي قليلا ياجين ، فإنك شديدة الانفعال ! » .

وهبت إذ ذاك ريح خفيفة على طريق أشجار الغار ، فهزت غصون شجرة البندق ثم راحت تبتعد وتبتعد حتى تلاشت ، فلم يبق غير صوت البلبل ، ورحت أبكي وأنا أصغي إليه ، بينما جلس مستر روشستر هادئاً ينظر إليَّ في رفق واهتمام . وانقضت فترة قبل أن يقول : « تعالي إلى جانبي ياجين ، تعالي نتصارح ليفهم كل منا الآخر ! » .. فقلت : « لن آتي إلى جانبك مرة أخرى ، فقد انتزعت نفسي منك ولا أستطيع العودة » .. قال : « ولكنني أدعوك ياجين كزوجتي ، لأنك أنت التي أعتزم أن أتزوج بها » .. فأخلدت للصمت ظناً مني أنه يسخر بي ، ولكنه قال : « تعالي ياجين .. تعالي هنا » .

فقلت : « إن عروسك تحول بيننا » .

وإذ ذاك غادر مقعده ، وبخطوة واحدة صار بجانبي ، ثم جذبني إليه قائلا : « إن عروسي هنا .. شبيهي : هل تتزوجينني ؟ » .

وكنت ما أزال في شك من قوله ، فبقيت على صمتي وأنا أحاول التخلص من قبضته .. إلى أن قال : « هل ترتابين فيَّ ياجين ؟ » .. فقلت : « كل الارتياب » .. وسألني : « ألا تثقين بي ؟ » .. فأجبت : « ولا مثقال ذرة » .. وإذ ذاك قال عندئذ : « هل أنا كذاب في عينيك ؟ .. لسوف تؤمنين بي يا ملحدة ! .. أي حب أكنه في قلبي لمس انجرام ؟ .. لا شيء ، كما تعلمين .. ثم أي حب تكنه هي لي في قلبها ؟ .. لا شيء ، ولقد تجشمت عناء إثبات ذلك ، فرحت أروج إشاعة بلغت مسامعها ، وفحواها أن الثروة التي أمتلكها لا تساوي ثلث قيمتها الظاهرية ، ثم زرتها بعد ذلك لأرى مبلغ أثر هذه الإشاعة على نفسها ، فوجدت فتوراً منها ومن والدتها : أما أنت .. أنت أيتها المخلوقة الغريبة العجيبة التي لا تمت إلى الأرض بصلة ، فإنني أحبك كما لو كنت من لحمي . إنك أنت .. أيتها الفقيرة المغمورة الضئيلة البسيطة .. أنت هي التي أتوسل إليها أن تقبلني زوجاً ؟ » .

فصمت وقد رأيت لهجة الجد في صوته وآمنت بصدقه : « ماذا ! أنا ! أنا التي ليس لها صديق في العالم سواك ؟ . إذا كنت صديقاً لي فاعلم أنني لا أملك من المال إلا ما أعطيتنيه » . فقال : « أنت ياجين التي يجب أن أحظى بها لنفسي .. لذاتي . فهل تقبلين أن تكوني لي ؟ قولي نعم ، بسرعة ! » .. فقلت : « دعني أتطلع إلى وجهك يامستر روشستر ، تحول نحو ضوء القمر ! » ، فتساءل : « لماذا ؟ » ، فقلت : « لأنني أريد أن أقرأ أساريرك .. استدر ! » .. واستدار نحو الضوء قائلا : « إليك .. ولن تجدي على وجهي سوى صورة ليست أوضح من صفحة مغضنة مشوشة ، مكتوبة بخط لا يقرأ .. هيا اقرئي ولكن أسرعي لأنني أتألم ! » .

ورأيت على وجهه المتضرج بحمرة الخجل آيات الاضطراب

والانفعال ، وشاهدت في عينيه بريقاً عجيباً . وسرعان ما صاح : « إنك تؤلمينني ياجين !.. إنك تعذبينني بهذه النظرة المتفحصة برغم إخلاصها وكرمها » .. فقلت : « كيف أقوى على أن أؤلمك ؟ .. إذا كنت صادقاً وجاداً في طلبك ، فإن شعوري الوحيد نحوك هو الامتنان والوله .. وليس في ذلك تعذيب لك أو إيلام ! » .. فصاح ثائراً : « الامتنان !.. اقبليني بسرعة ياجين ، وقولي : سوف أقترن بك يا إدوارد .. ناديني باسمي ! » .. فسألته : « أجاد أنت ؟ .. أتحبني حقاً ؟ .. هل بك رغبة صادقة في أن أكون زوجتك ؟ » .

— كل الرغبة .. وإذا كانت هناك يمين تقنعك أقسمتها !

— إذن سأتزوجك ياسيدي .

— ناديني باسمي « إدوارد » يازوجتي الصغيرة .

فغمغمت : « ياعزيزي إدوارد ! » .. وإذ ذاك قال : « إذن تعالي إليّ .. تعالي كلك إليّ ! » .. ثم ضمني إلى صدره وهمس في أذني وقد ألصق خده بخدي : « أسعديني ، وسأوفر لك سعادتك » .. وما لبث أن هتف بعد فترة وجيزة : « عفوك يا إلهي !.. امنع يارب من يتطفل علينا ، فقد ظفرت بها ، وسوف أتشبث بها ! » .

— ليس هناك من يتطفل علينا ، فليس لي أقارب يتدخلون في شئوننا .

— كلا .. وهذا خير ما هنالك .

ولو كان حبي له أضأل مما كان يملأ قلبي ، لرأيت في لهجته ومظهره طرباً وحشياً عنيفاً ، ولكنني كنت أجلس بجانبه ، وقد انجاب عني

كابوس الفراق ، ودعيت إلى جنة الارتباط به ، فلم أعد أفكر في غير كأس السعادة التي كنت أشربها مترعة ، وراح يسألني مراراً : « هل أنت سعيدة ياجين ؟ » .. فكنت أجيبه المرة بعد الأخرى : « نعم » ، فيغمغم بعدها قائلاً : « هذه هي التوبة .. لسوف تكون كفارة !؟ ألم أجدها يتيمة ، عديمة الصديق ، محرومة من الراحة ؟.. ثم ، ألن أرعاها ، وأحبها ، وأواسيها ؟.. ألا يملأ الحب قلبي ، والعزم الراسخ قراري ؟.. إنها تكفير عن خطاياي ، ولسوف يتقبلها الله كفارة ، فإني أعلم عن يقين أن خالقي يتقبل أعمالي . أما حكم الدنيا على عملي ، فإني أنفض يدي منه .. وأما رأي الإنسان ، فإني أتحداه ! » .

* * *

● ولكن ما الذي أصاب الليل ؟.. لم يكن القمر قد اختفى بعد وراء الأفق ، ومع ذلك فقد شملنا ظلام ، حتى كدت لا أتبين وجه سيدي برغم قربه مني .. وما الذي ألم بشجرة البندق ؟.. لقد راحت تتلوى وتتأوه ، بينما أخذت الرياح تزأر في الطريق التي تحف بها الأشجار ، ثم تهب علينا مجتاحة .. وقال مستر روشستر : « يجب أن ندخل فقد انقلب الطقس .. لولا ذلك لجلست معك حتى الصباح ياجين ! » .. فقلت في نفسي : « وأنا أيضاً » .

ولعله كان يحسن أن أجيبه بهذا القول ، ولكن السماء سرعان ما أبرقت ، وأرعدت ، وأمطرت ، حتى اضطررت إلى إخفاء عيني الزائغتين في كتف مستر روشستر .. وتدفقت الأمطار ، فدفعني مستر روشستر إلى الممر ، ثم خلال الحديقة ، إلى المنزل ، وقبل أن نبلغ

عتبته ، كانت ملابسنا قد ابتلت تماماً . وفيما كان ينتزع شالى فى البهو ، وينفض الماء عن شعرى ، أطلت مسز فيرفاكس من باب حجرتها ، فلم أرها فى البداية ولم يرها مستر روشستر كذلك . وكان المصباح مضاء والساعة تدق الثانية عشرة فقال : « أسرعى إلى خلع ملابسك المبللة ، وقبل أن تذهبى .. طابت ليلتك .. طابت ليلتك ياحبيبتى ! » .

ثم قبلنى مراراً . ولما استطعت أن أفلت من ذراعيه وأرفع عينى ، شاهدت المرأة الأرملة واقفة وعلى وجهها آيات الشحوب والتجهم والدهش ، فلم أفعل سوى أن ابتسمت لها ، وبادرت أرقى الدرج وأنا أقول فى نفسى : « أستطيع أن أوضح لها الأمر فى وقت آخر ! » .. ومع أننى لم أكد أبلغ حجرتى حتى شعرت بالألم للفكرة التى ستفسر بها ما رأته ، ولكن سرعان ما امحى كل شعور آخر أمام سعادتى وابتهاجى .. وكانت الرياح تهب بقوة ، والرعد يقصف قريباً ، عميقاً مدوياً ، والبرق يومض فى حدة وبلا انقطاع ، والأمطار تهطل هادرة كالشلال أثناء العاصفة التى دامت ساعتين ، ومع ذلك ، لم يساورنى أقل خوف أو فزع لأن مستر روشستر اقترب من بابى ثلاث مرات أثناء ذلك ليسألنى هل أنا فى أمان وسلام وهدوء بال ، فكان فى ذلك عزاء وقوة أواجه بهما كل شىء !

وقبل أن أغادر فراشى فى الصباح التالى ، قدمت أديل الصغيرة مهرعة لتخبرنى بأن صاعقة انقضت خلال الليل على شجرة البندق الكبيرة ، فى نهاية البستان ، فأطاحت بنصفها !

* * *

الفصل الرابع والعشرون

● عندما نهضت من فراشى وارتديت ملابسى ، رحت أقلب الفكر فيما وقع وأتساءل : أكان حلماً من الأحلام ؟ ولم أستوثق من أنه حقيقة حتى قابلت مستر روشستر ثانية وسمعته يجدد لى حبه وعهوده .

وفيما كنت أنسق شعرى ، تطلعت إلى وجهى فى المرآة فشعرت بأنه لم يعد خالياً من البهاء ، إذ رأيت الأمل على محياه ، والحياة على صفحته ، وخيل إلىّ أن عينى قد رأتا نبع السعادة واستمدتا من أمواجه الرقراقة المشرقة وميضهما المؤتلق . ولقد طالما خفت أن أتطلع إلى عينى سيدى خشية ألا تروقه نظرتى ، أما الآن فلم يعد يساورنى شك فى أننى أستطيع أن أرفع وجهى إليه دون أن يفتر حبه بما يراه على أساريره : ثم ارتديت ثوباً بسيطاً ، ولكنه خفيف وفاتح اللون . ويبدو أنه كان أنسب ثوب لجسمى ، لأننى لم ألبس غيره بهذه الفرحة وهذا الابتهاج .. ولم أدهش — عندما جريت هابطة إلى البهو — من أن أرى أن صباحاً مشرقاً قد أعقب عواصف الليل ، ومن أن أحس — خلال الباب الزجاجى المفتوح — بنسيم منعش يحمل عبير الزهور ، إذ أيقنت من أن الطبيعة تشاطرنى سعادتى .. ولمحت امرأة متسولة تقبل فى الطريق مع طفل صغير ، وقد لاحا شاحبين ، هزيلين ، مهلهلى الثياب ، فهرعت إليهما ، ومنحتهما كل ما وجدت فى كيسى ، وكان حوالى ثلاثة أو أربعة شلنات .. وسواء قل هذا المبلغ أو كثر ، فإنه كان كل ما معى ، وقد أحببت أن يشاركانى فرحتى ! وكانت الطيور تشقشق ، والبلابل تغرد

مبهجة ، ولكن شيئاً لم يكن يعادل قلبي في طربه وموسيقاه .. على أنني لم ألبث أن فوجئت بمسز فيرفاكس تطل من النافذة بأسارير واجمة ، وقالت تخاطبني بلهجة جادة : « يا آنسة جين .. هل تتفضلين بالمجيء لتناول الإفطار ؟ » . وظلت أثناء الطعام صامتة ، فاترة ، فلم أشأ أن أبدد ما بها ، وقلت – لنفسي – يجب أن أنتظر حتى يبسط لها سيدي الأمر ، ويجب أن تنتظر بدورها .. وتناولت ما استطعت من طعام ، ثم أسرعت إلى الطابق العلوي حيث التقيت بأديل خارجة من غرفة الدراسة فسألتها : « إلى أين أنت ذاهبة ؟ حان وقت الدرس » .

– أمرني مستر روشستر بالذهاب إلى غرفة الأطفال .

فتساءلت : « وأين هو ؟ » .. فأشارت إلى الحجرة التي خرجت منها وقالت : « هناك » .. ودخلت الغرفة فوجدته واقفاً ، وبادرني قائلاً : « تعالي حييني تحية الصباح ! » ، فتقدمت مغتبطة .. ولم يكن ما تلقيته مجرد كلمة باردة ، أو مصافحة باليد ، وإنما كان عناقاً وقبلة .. ولاح لي أن من الطبيعي ، وأن من المبهج أن أحظى بحبه وعناقه ، وقال : « إنك ياجين تبدين في هذا الصباح متألقة ، باسمة ، جميلة .. إنك جميلة حقاً في هذا الصباح .. أفهذه شيطانتي الشاحبة الذابلة ؟ .. أحقاً تحولت إلى هذا الوجه المشرق ، والخدين اللذين تتوسطهما غمازتان ، والشفتين الورديتين ، والشعر الكستنائي الأملس ، والعينين العسليتين المتألقتين ؟ » .

ولقد كانت عيناي خضراوين ، ولكن ، ليتجاوز القارئ عن هذا الخطأ ، فقد لاحتا في نظره مصطبغتين بلون جديد !

– إنها جين إير ياسيدي .

– ستصبح عما قريب (جين روشستر) .. بعد أربعة أسابيع يا جانيت .. لا أكثر ! هل تسمعين ؟

أجل ، سمعت قوله وإن لم أفقه معناه ، إذ شعرت برأسي يدور ، فإن الشعور الذي بعثه هذا القول في نفسي كان أقوى من الفرح والاغتباط .. كان شعوراً أذهلني وكان يرسل الخوف إلى قلبي . فسألني مستر روشستر : « لقد تضرج وجهك ثم امتقع ، فلماذا ياجين ؟ » .

– لأنك أطلقت علي اسماً جديداً له وقع عجيب في أذني .

– نعم يامسز روشستر .. الصغيرة ! . عروس إدوارد روشستر .

– لن يكون هذا ياسيدي ولا يحتمل ، لأن البشر لاينعمون بالسعادة الكاملة المطلقة في هذا العالم .. وأنا لم أولد ليكون حظي مخالفاً لحظوظ بنات جلدتي .. إن مجرد تصور أنني سأصيب كل هذا الحظ ، يبدو لي أشبه بخرافة أو حلم يراودني في يقظتي .

– ولكن في وسعي أن أحققه وسأحققه ! .. وقد قطعت اليوم الخطوة الأولى ، فكتبت إلى وكيل أعمالي في لندن كي يبعث إليّ ببعض لآلىء يحتفظ بها .. إنها ميراث تتداوله سيدات (ثورنفيلد) ، وآمل أن ألقى به في حجرك ، لأنني سأوليك كل اهتمام كنت خليقاً بأن أوليه أية فتاة كان يحتمل أن أتزوجها من بنات النبلاء .

– أوه ياسيدي . دعك من اللآلىء .. لا أريد أن سمع عنها شيئاً ،

لأن اللآلىء لجين إير شىء له فى السمع وقع غريب غير طبيعى ، ولذلك فلست أريدها !

— سوف أضع بيدى عقد الماس حول جيدك ، والأساور حول هذين المعصمين ، وأزين هذه الأصابع الصغيرة بالخواتم !

— كلا .. كلا .. ياسيدى .. فكر فى موضوع آخر وتكلم فى أمور غير هذه الأمور ، ولا تخاطبنى كما لو كنت حسناء .. لا تنس أننى مربية بسيطة فى خدمتك !

— إنك حسناء فى عينى :: حسناء يتمناها قلبى ، رقيقة كالنسيم !

— تافهة لا وزن لها .. هذا ما تعنيه ! أأنت تحلم ياسيدى ، أو أنك تسخر منى ؟.. بالله لا تمعن فى تهكمك !

* * *

● ولكنه استرسل دون أن يحفل بقولى : « سأحمل العالم على أن يعترف بجمالك أيضاً .. سأكسوك بالدانتلا والحرير ، وستزينين شعرك بالورود والزهور ، وسأغطى الرأس الذى أحبه بوشاح أميرة من الأميرات » :: وشعرت بأنه يتعمد أن يغرر بى أو بنفسه فقلت : « إنك لن تعرفنى إذ ذاك .. لن أكون جين إير ، بل سأصبح قردة ترتدى ثوب مهرج !:: إنى لا أدعى أنك جميل وإن كنت أحبك حباً طاغياً يمنعنى من تملقك ، فلا تملقنى ! » .. ولكنه لم يحفل بقولى ، بل استطرد قائلا : « سأرافقك اليوم فى العربة إلى (ميلكوت) لكى تختارى بعض ثياب لك ، فقد سبق أن أخبرتك بأننا سوف نتزوج بعد أربعة أسابيع ، وسيتم زواجنا — فى

الكنيسة القريبة من هنا — فى هدوء ، ثم نسافر فوراً إلى لندن ، وبعدها بفترة وجيزة ، سأحملك يادرتى إلى مناطق أقرب إلى الشمس .. إلى كروم فرنسا ، وسهول إيطاليا . وسترين عندئذ كل ماذاع ذكره فى التاريخ القديم ، وكل ماعرف فى العصر الحديث . وسوف تتذوق كذلك طعم الحياة فى المدن ، وستعرف جين كيف تقدر قيمتها بمجرد مقارنة نفسها بالأخريات !

— هل سأسافر ؟.. ومعك أنت يا سيدى ؟

— ستقضين فترات فى باريس وروما ونابلى وفلورنسا والبندقية وفينا . كل أرض جبتها أنا ، ستطئينها أنت بقدميك .. أينما حللت ستحلين ياملاكى . لقد فررت إلى أوربا منذ عشر سنوات ، ورحت أتنقل فى أرجائها كالمجنون ، دون ما رفيق سوى ما كنت أحمله فى قلبى من النقمة والكراهية والحنق ، وسأعود الآن لزيارتها بقلب شفى وتطهر ، ومعى (ملاك) حقيقى يرفه عنى !:

فضحكت منه وقلت : « لست من الملائكة ، ولن أكون حتى أموت .. لاتتوقع ولا تطلب منى شيئاً سماوياً لأنك لن تحصل عليه ، كما أننى لن أحصل عليه منك لو نشدته منك ! .. ولذلك فلست أتوقع منك أن تكون ملاكاً ! » .. فقال : « وماذا تتوقعين منى ؟ » .. قلت : « ربما ظللت كما أنت الآن لفترة قصيرة ، ثم لن تلبث أن يتولاك الفتور وتغدو متقلباً ، ثم صلباً ، وعندئذ سأحاول ما استطعت أن أرضيك . ومتى ألفتنى جيداً فربما عدت تميل إلىّ مرة أخرى .. أقول « تميل إلىّ » ، ولا أقول

تحبنى » ، لأن حبك سوف يتبخر بعد ستة أشهر أو أقل . فقد قرأت فى الكتب التى ألفها الرجال أن هــذه الفترة هى أقصى مدة يبقى فيها الزوج على حبه .. ومع ذلك فإننى أرجو – باعتبارى صديقة سيدى ورفيقته – ألا تسأمنى وتملنى إلى هذا الحد » :

– أسأم !.. أميل إليك ثانية !.. لسوف أجعلك تعترفين بأننى لا أميل إليك ، وإنما أحبك حباً صادقاً عارماً .

– ومع ذلك ، أفلست متقلب الأهواء ياسيدى ؟

– مع النساء اللائى يرضيننى بوجوههن وجمالهن الظاهرى فقط :: إننى أصبح شيطاناً عندما أكتشف أنهن بلا أرواح أو قلوب ، وعندما يظهرن لى السخف والتفاهة وربما الغباء والفظاظة وسوء الطبع ، ولكننى محب حنون ، صادق ، للعين الصافية واللسان الفصيح والروح المتأججة والطبع الذى يلين ولكنه لا ينكسر .. فهو تارة مرن مطواع ، وتارة صلب يابس !

– هل صادفت مثل هذا الطبع ياسيدى ؟.. هل أحببت فى حياتك واحدة من هذا الصنف ؟

فهتف : « إننى أحبها الآن » .. قلت : « أعنى قبل ، إذا كنت أنا قد بلغت حقاً ذلك المستوى الشاق الذى تنشده » .. فقال : « لم أصادف مثيلا لك من قبل ياجين . إنك تبعثين الغبطة فى نفسى وتسيطرين علىّ : إنك تظهرين بمظهر الخضوع والامتثال ، فأحب فيك هــذا اللين : وعندما أداعب جدائل شعرك الناعم بأصابعى تسرى النشوة إلى قلبى :

لقد غلبت على أمرى وقهرت ، ومع ذلك فإننى أشعر فى اندحارى بحلاوة يعجز لسانى عن الإفصاح عنها ، وألمس فى قهرى لذة دونها أعظم ظفر وانتصار ، لماذا تبتسمين ياجين ؟ .. ما معنى هذه الصورة المبهمة الساذجة التى أراها على وجهك وسحنتك ؟ » .

– كنت أفكر (واغفر لى الفكرة لأننى لم أتعمدها) فى هرقل وشمشون وساحرتيهما .

– أهكذا أيتها الشيطانة الصغيرة ؟

– صه يا سيدى فإنك لاتتحدث الآن بحكمة تفوق ما أبداه كل من هذين الرجلين فى أعمالهما . ومع ذلك فلو أنهما كانا متزوجين لعوضا بقسوتهما كزوجين ، ما أبدياه من رفق وحنان كعاشقين ، وهو ما أخشى أن تفعله .. وإنى لأتساءل بماذا تجيبنى إذا جئتك بعد عام وسألتك أن تسدى إلىّ معروفاً ليس من مصلحتك أن تسديه ؟

قال : « سليني الآن ما شئت ياجين ! » ، فقلت : « وسأفعل ياسيدى ، فالواقع أننى أعددت ملتمسى » .

– تحدثى !.. أما إذا رفعت عينيك وابتسمت بهذه الأسارير ، فسوف أقسم أن أجيبك قبل أن أعرف سؤالك .. وفى هذا ما يجعلنى أحمق !

– عفواً يا سيدى .. إنما أطلب إليك ألا ترسل إلى عميلك فى طلب اللآلىء ، وألا تتوج رأسى بالورود والزهور ، وإلا وجب أيضاً أن تضع شريطاً من الدانتلا الذهبية على طرف منديلك هذا البسيط !

— وفى وسعى كذلك أن أطلى الذهب الذى بطبقة أخرى من الذهب إذا طلبت !.. إن طلبك مجاب إذن فى الوقت الراهن ، وسأرسل إلى وكيلى أسحب أوامرى الأولى .. ولكنك لم تطلبى شيئاً حتى الآن . بعد أن توسلت إلىّ أن أسحب الهدية التى أردت تقديمها إليك . هيا جربى ثانية !

— إذن تكرم علىّ ياسيدى بمنحة أخرى .. أريد الوقوف على أمر يريح بالى .

فبدى على وجهه القلق ثم قال من فوره : « ماذا ؟ ماذا ؟ إن هذا التماس خطير ، وكان يجدر ألا أقطع على نفسى عهداً بأن أجيب كل ما تطلبين » .. فقلت : « ليس فى إجابة طلبى أى خطر ياسيدى » .

— إذن قولى ماذا تريدين ؟.. إنى أوثر أن تطلبى نصف مقاطعتى على أن تسألينى عن سر من الأسرار .

— ماذا أعمل بنصف ما تملك ؟.. إنى أوثر الظفر بثقتك . ترى هل تقصينى عن ثقتك إذا فتحت لى مغاليق قلبك ؟

— أهلا بك موضعاً للثقة التامة فيما يستحق ياجين ، ولكن لا تطلبى لنفسك بالله عبئاً ثقيلا ، ولا تتلهفى على السم ، ولا تتحولى على يدى إلى مجرد امرأة .. حواء !

— لم لا ياسيدى ؟.. لقد أخبرتنى لتوك بأنك تحب كثيراً أن تقهر وتجد لذة فى الإلحاح والإغراء ، فهلا ترى جديراً بى أن أفيد من هذا الاعتراف ، فأشرع فى التزلف والتضرع ، بل وفى البكاء والغضب عند اللزوم لتوطيد سلطانى ؟

— إنى أشفق عليك من مثل هذه التجربة .. جاوزى حدك .. استرسلى وسوف تنالين بغيتك !

— أحقاً ياسيدى ؟.. أتستسلم على الفور ؟.. ما أشد عبوسك الآن ! . لقد أصبح حاجباك فى كثافة إصبعى ، وغدا جبينك — على حد قول الشعراء — « كعاصفة ملطمة » !.. وهكذا سيكون مظهرك بعد الزواج .. أليس كذلك ياسيدى ؟

— إذا كان هذا سيغدو مظهرك أنت الأخرى بعد الزواج ! ولكن ماذا تريدين أن تسألينى .. هيا أفصحى أيتها المخلوقة !

— إنك تنقص الآن من ظرفك ولطفك ، ولكنى أوثر الخشونة كثيراً على الملق .. ولذلك أفضل أن أكون « مجرد مخلوقة » ، على أن أكون « ملاكاً » ! أما سؤالى فهو : لماذا كبدت نفسك العناء لتحملنى على الاعتقاد بأنك تريد الزواج من مس انجرام ؟

فهتف : « أهذا كل شىء ؟.. أحمد الله على أنه لم يكن أسوأ من ذلك ! » .. وانبسطت أساريره ثم نظر إلىّ باسماً ، وأخذ يداعب شعرى ، وكأنما سره أن يفلت من خطر كان يتهدده . ثم استرسل يقول : « أظن من واجبى أن أعترف لك ، وإن كان فى اعترافى ما قد يثير غضبك بعض الشىء ياجين ، بعد أن تبينت أية روح متقدة تتملكك عندما تغضبين .. فقد اتقدت غضباً فى ضوء القمر فى الليلة الماضية ، عندما تمردت على القدر وطالبت بأن تكونى نداً لى فى مركزى . وعلى ذكر هذا أقول إنك أنت التى تقدمت بهذا العرض ياجانيت » .. فقلت : « هو ذلك فعلا ،

ولكن لانخرج عن الموضوع ياسيدى ، أرجوك . ماذا لديك عن مس انجرام ؟ » .. وإذ ذاك قال : « حسن . لقد تظاهرت بمغازلة مس انجرام رغبة منى فى أن أجعلك تجنين بحبى ، كما أنا مجنون بحبك . وكنت أعلم أن الغيرة خير حليف أستطيع اللجوء إليه حتى أصل إلى ما أهدف إليه ! » .

— مدهش !.. إنك الآن تتضاءل حتى لا تعدو قلامة ظفرى ! والحق أن تصرفك كان يدعو للخزى والفضيحة .. ألم تفكر فى شعور مس انجرام يا سيدى ؟

— كان شعورها مركزاً فى شىء واحد ، هو الكبرياء .. وهو ما يجب إذلاله . هل أحسست بالغيرة ياجين ؟

— دعنا من هذا يامستر روشستر ، فإنه لايعنيك فى شىء . وأجبنى الآن فى صدق وأمانة للمرة الثانية : ألا تعتقد أن مس انجرام لن تتألم لنقضك عهدها ولغزلك غير الصادق ؟ ألا تشعر المسكينة بأنها مهجورة منبوذة ؟

— مستحيل ! لقد أخبرتك بأنها هى التى هجرتنى ونبذتنى — فى لحظة واحدة — بعد أن أخمدت نارها فكرة إعسارى وإفلاسى !

— إن لك يامستر روشستر عقلية غريبة .. وأخشى أن تكون مبادئك فى بعض الأمور شاذة كل الشذوذ .

— إن مبادئى لم تهذب ولم تطبق بعد ياجين ، ولعلها تنحرف فى بعض الأحيان نتيجة افتقارها إلى الرعاية والعناية .

— أخبرنى مرة أخرى بجد وصدق : هل فى وسعى أن أنعم بالخير العميم الذى أغدقته علىّ ، دون أن أخشى أن يقاسى غيرى الألم المرير الذى قاسيته منذ قليل .

— اطمئنى أيتها الفتاة الصغيرة الطيبة ، فليس فى العالم إنسان آخر يحمل لى فى قلبه حباً نقياً مثل حبك .. إننى أبسط على روحى ذلك البلسم الناعم ، وأعنى به الإيمان بحبك !

فحولت شفتى إلى اليد التى وضعها على كتفى وقبلتها بدافع من حب كنت أعجز عن تصديقه ، وتعجز الكلمات عن وصفه . وما لبث أن قال : « اسألى المزيد ، فإنه يلذ لى أن أتقبل السؤال فأطيع » .. فأجبت مرة أخرى لسؤاله ، وقلت : « أرجو أن تبلغ مسز فيرفاكس ما استقر عليه رأيك ياسيدى ، فقد رأتنى بالأمس فى البهو معك ، فهالها مارأته !.. فسر لها موقفنا قبل أن أراها ثانية ، لأنه يؤلمنى أن تظن بى الظنون سيدة صالحة مثلها ! » .

— اذهبى إلى غرفتك وضعى قبعتك على رأسك ، لأننى أريد أن أرافقك إلى (ميلكوت) فى هذا الصباح . وسأنتهز فرصة استعدادك للخروج ، فأذهب لمقابلتها وأشرح لها الأمر . أترينها ياجانيت تعتقد أنك بعت الدنيا من أجل الحب ؟

— بل أعتقد أنها حسبتنى قد نسيت مركزى ومركزك يا سيدى .

— مركزك ! مركزك !.. إن مركزك فى قلبى وعلى أعناق من يهينونك الآن أو فيما بعد .. هيا !

* * *

● وسرعان ما ارتديت ملابسى . وعندما سمعت مستر روشستر يغادر حجرة مسز فيرفاكس ، هبطت إليها مسرعة ، فإذا السيدة العجوز تقرأ درسها اليومى فى كتاب الصلاة ، لأن التوراة كان مفتوحاً أمامها ، وعليه نظارتها . وكانت قد توقفت عن قراءتها بعد زيارة مستر روشستر ، وأخذت تحملق شاردة اللب فى الجدار المقابل ، وقد بدت عليها الدهشة التى أثارتها الأنباء غير المتوقعة . فلما رأتنى ، أفاقت من تأملاتها ، وحاولت أن تبتسم ، ثم غمغمت ببعض كلمات هنأتنى بها ؛ ولكن الابتسامة ما لبثت أن غاضت ، وجفت الكلمات ، ثم وضعت نظارتها على عينيها وطوت الكتاب ، ودفعت مقعدها إلى الخلف بعيداً عن المنضدة وخاطبتنى قائلة : « إننى أشعر بالدهشة ، ولا أكاد أدرى ما ينبغى أن أقوله لك يامس إير !.. لا شك فى أننى كنت أحلم . أليس كذلك ؟.. لقد تأخذنى أحياناً سنة من النوم ، فأتصور أشياء لم تحدث على الإطلاق ، وكم خيل إلىّ فى غفواتى أن زوجى العزيز – الذى قضى منذ خمسة عشر عاماً – قد جاء وجلس بجانبى ، وأخذ ينادينى باسمى (آليس) ، كما اعتاد أن يفعل ، فهل فى وسعك الآن أن تؤكدى لى أن مستر روشستر طلب الزواج منك ؟.. لاتضحكى منى ، لأننى واثقة من أنه جاءنى فعلا منذ خمس دقائق وأخبرنى أنك سوف تصبحين زوجته بعد شهر واحد ! ».

فأجبتها : « لقد قال لى نفس الشيء ! » .. فهتفت : « حقاً ؟ .. وهل تصدقينه ؟.. وهل قبلت ؟ » .. وإذ قلت : « نعم » ، نظرت إلىّ فى عجب وحيرة ، وقالت : « لم يخطر لى ذلك ببال ، لأنه رجل متكبر ككل آل روشستر ، ولأن أباه على الأقل كان محباً للمال .. ثم إنه يوصف

دائماً بالدقة والحذر ، فهل يقصد فعلا أن يتزوجك ! » .

– هذا ما يقوله .

وراحت تتأملنى ، فقرأت فى عينيها أنها لا تجد فىّ فتنة تكفى لتبرير هذا اللغز .. ثم استرسلت تقول : « هذا ما لا أتصوره ! ولكن لاشك فى صحة الخبر لأنك تؤيدينه .. أما كيف يكون هذا ، فلست أدرى ، ولا أستطيع أن أجزم ، لأن من الأمور التى يجهلها الناس فى مثل هذه الأحوال : المساواة فى المركز والثراء .. ثم إن هناك عشرين عاماً بينك وبينه ، فهو أجدر بأن يكون لك بمثابة الأب ! » .. فصحت مستاءة : « كلا يامسز فيرفاكس .. إنه لا يكبرنى إلى الدرجة التى تجعله بمثابة الأب ، ولا يخطر هذا برأس من يرانا معاً ، بل إنه يبدو كشاب فى الخامسة والعشرين » .

فسألتنى : « أهو الحب الذى جعله يقدم على الزواج منك حقاً ؟ » .

وتألمت لبرودها وشكوكها ، فاغرورقت عيناى بالدموع .. واسترسلت الأرملة تقول : « يؤسفنى أن أكدر خاطرك ، ولكنك صغيرة قليلة الخبرة بالرجال ، فأردت أن أحذرك ، لأن المثل القديم يقول : (ما كل لامع بذهب) . وأخشى فى هذه الحالة أن يوجد شيء يختلف عما تتوقعينه وأتوقعه » .. فتساءلت متألمة : « ولماذا ؟.. هل أنا غريبة الخلقة ؟ هل يستحيل أن يشعر نحوى مستر روشستر بحب خالص ؟ » .. فقالت : « لا .. أنت على غير حال ، بل إنك تحسنت كثيراً فى المدة الأخيرة . وأعتقد أن مستر روشستر مغرم بك ، إذ طالما لحظت أنه يدللك ، وقد مرت بى أوقات ساورنى فيها القلق بسبب

إيثاره إياك ، وأحببت أن أحذرك ، ولكنى لم أشأ أن أفترض احتمال وقوع أى شىء ، كما كنت أعلم أن مثل هذه الفكرة قد تغضبك .. ونظراً لما أعهده فيك من التبصر بالأمور ، وشدة الحياء والحساسية ، فقد ساورنى الأمل فى أنك ستعرفين كيف تصونين نفسك : إننى لا أستطيع أن أصف لك ما قاسيته ليلة أمس من الآلام عندما بحثت فى جميع أرجاء القصر فلم أجدك ولم أجد السيد .. وأخيراً رأيتك قادمة معه فى منتصف الليل ! » .

فقاطعتها بصبر نافد : « لا تبالى هذا الآن .. يكفيك أن تعلمى أن كل شىء سار فى طريق سليمة » .. فقالت : « وآمل أن ينتهى أيضاً نهاية سليمة . ولكن .. تأكدى أنك لاتستطيعين أن تكونى مفرطة فى الحذر والانتباه . حاولى أن تقصى عنك مستر روشستر ولا تثقى بنفسك ولا به ، لأن السادة الذين فى مثل مركزه لا يتزوجون عادة من مربيات أطفالهم » .

والحق أننى ازددت سخطاً وانفعالا ، ولكن (أديل) أقبلت إذ ذاك — لحسن الحظ — وهى تصيح : « دعينى أذهب .. دعينى أذهب أنا كذلك إلى (ميلكوت) . إن مستر روشستر لايريدنى مع أن بالعربة الجديدة فراغاً فسيحاً .. توسلى إليه أن يدعنى أذهب يا آنسة ! » .. فقلت متلطفة : « سأفعل يا أديل » .. ثم أسرعت معها وقد ابتهجت لتخلصى من ذلك الوحش الكئيب . وكانت العربة قد أعدت ، واقتيدت لتقف أمام المدخل ، بينما كان السيد يذرع الأفريز ومن خلفه كلبه بايلوت يسير معه هنا وهناك ، فقلت أسأله : « تستطيع أديل أن ترافقنا .. أليس

كذلك ياسيدى ؟ » ، فصاح : « قلت لها : كلا .. لست أريد ثرثارات، وإنما أريدك أنت فقط » .

— دعها تذهب معنا يامستر روشستر ، أرجوك .. يحسن ذلك .

— كلا .. سوف تضطرنا إلى أن نلزم الحذر والتحفظ .

وكان غاية فى الحزم سواء فى نظرته أو لهجته . واستبدت بى تحذيرات مسز فيرفاكس وشكوكها ، فشعرت بشىء من القلق يغالب آمالى ، وأحسست بأننى فقدت نصف نفوذى عليه ، وأننى أكاد أخضع برغمى لإرادته .. ولكنه نظر إلى وجهى عندما ساعدنى على ركوب العربة وسألنى : « ما الذى جرى؟ .. لقد تبدد منك إشراقك، فهل حقاً تريدين هذه الثرثارة معنا ؟ » .. فقلت : « أوثر أن تأتى معنا ياسيدى » .. فصاح يخاطب أديل : « إذن أسرعى وهاتى قبعتك بسرعة البرق ! » .. فأطاعته بأقصى سرعتها .. بينما قال يحدثنى : « لا بأس من أن نجد من يعكر علينا صفونا فى هذا الصباح ، ما دمت سأحظى بك عن قريب .. بك وبأفكارك وأحاديثك ورفقتك .. طيلة العمر ! » .

ولما عادت أديل واستقلت العربة، جعلت تقبلنى اعترافاً بجميل ، ولكن مستر روشستر أجلسها بجانبه من الناحية الأخرى، فلم تجرؤ على التكلم أو مطالبته بشىء .. بيد أنها أخذت تسترق النظر إلىَّ حيث جلست ، وهى متبرمة بجارها المتجهم ، فقلت أضرع إليه : « دعها تأتى إلىَّ حتى لاتزعجك ياسيدى ، وهنا فى هذه الناحية متسع » : فرفعها وناولنى إياها كأنها جرو صغير ثم قال وهو يبتسم : « هل ألحقها بمدرسة ؟ » .. وسمعته أديل ، فسألت : أتذهب بدون الآنسة . وكان جوابه : « نعم بدون الآنسة

لأنني سآخذها إلى القمر حيث أبحث عن كهف في واد من الأودية البيضاء بين قمم البراكين : وهناك ستعيش الآنسة معي وحدي ! » .

فاعترضت الصغيرة قائلة : « إنك لن تجد ما تأكله وسوف تقتلها جوعاً » .. فقال : « بل سأجمع لها المن في الصباح والمساء ، لأن السهول وسفوح التلال في القمر زاخرة بالمن يا أديل » :

— إنها ستحتاج إلى أن تدفئ نفسها :: فمن أين تأتي لها بالنار ؟

— تخرج النار من جبال القمر ، فإذا شعرت بالبرد حملتها إلى قمة عالية ، ووضعتها على حافة فوهته :

— ستسوء حالها لقلة الراحة ، وسوف تبلى ملابسها ، فمن أين تأتي بغيرها ؟

وتجلت على مستر روشستر الحيرة فسعل وقال : « ماذا كنت تصنعين أنت يا أديل ؟ فكري جيداً .. هل تنفع سحابة بيضاء أو قرنفلية لعمل جلباب ؟ .. وهل يمكن صنع وشاح جميل من قوس قزح ؟ » .. فأجابته بعد تفكير : « إنها أحسن حالا كثيراً .. في وضعها الراهن ، وفوق ذلك فإنها لن تلبث أن تمل الحياة معك وحدك في القمر . ولو كنت في مكانها لما رضيت بالذهاب معك ! » .. قال : « ولكنها رضيت وقد عاهدتني على ذلك » .

— ولكنك لاتستطيع أخذها إلى القمر ، لأنه لايوجد طريق إلى هناك ؛ كما أنكما لاتستطيعان الطيران :

وكانت العربة قد خرجت من بوابات (ثورنفيلد) وسارت خفيفة في الطريق المرصوف إلى (ميلكوت) ، حيث تراكمت الأتربة بعد

العاصفة ، وبدت الأشجار الشاهقة على الجانبين لامعة خضراء وقد أنعشها المطر ، فقال مستر روشستر : « انظري إلى هذا الحقل يا أديل ، لقد كنت أتمشى فيه ذات مساء منذ أسبوعين ، عندما تولاني التعب ، فجلست أستريح على السياج . وهناك أخرجت دفتراً صغيراً وقلماً ثم أخذت أكتب عن حادث سيء أصابني منذ زمن بعيد ، وعن رغبتي في التمتع بأيام سعيدة مقبلة .. وفيما كنت أكتب بسرعة — وعلى الرغم من الظلام — رأيت مخلوقة تقف أمامي على بعد خطوتين ! .. ونظرت إليها فرأيتها ضئيلة الجسم ، وقد أسدلت على وجهها خماراً ! .. وأشرت إليها أن تتقدم ففعلت ، ووقفت على الفور عند ركبتي .. ولم أتكلم معها قط ، ولا تحدثت هي إليّ بصوت مسموع ، ولكني قرأت كلامها في عينيها كما قرأت هي حديثي في عيني .. وكان مضمون حديثنا باللغة المألوفة هو : « كانت جنية قدمت من أرض الأقزام . وكانت مهمتها أن تسعدني. ومهمتي أن أذهب بها بعيداً عن العالم الأرضي إلى مكان منعزل كالقمر مثلا . فأومأت برأسها نحو التل ، ثم حدثتني عن الكهف المرمري والوادي الفضي اللذين نستطيع الإقامة فيهما ، فقلت إنني أود الذهاب ، ولكني ذكرتها — كما ذكرتني الآن يا أديل — بأنني لم أوت أجنحة أطير بها. فقالت الجنية :

— أوه . هذا لا يهم ! هاك تعويذة تزيل كل العقبات .

« ثم ناولتني خاتماً بديعاً من الذهب وقالت : « ضعه في سبابة يسراك تجدني ملكاً لك وتصبح ملكاً لي ! وسوف تغادر الأرض ونقيم في جنتنا بعيداً عن هنا ! » » :

« ثم أومأت نحو القمر مرة أخرى .. وهذا الخاتم يا أديل فى جيب سترتى متنكراً فى صورة جنيه ذهبى ، ولكنى أعتزم حالا أن أحوله إلى خاتم مرة أخرى ! » .. فقالت الصغيرة :

— ولكن ما شأن الآنسة بذلك ؟ .. لا يهمنى أمر الجنية .. فقد قلت إنها هى التى ترغب فى أن تأخذها إلى القمر ! » . فقال وهو يهمس همساً يثير فضول الفتاة : « الآنسة جنية ! » .

* * *

● ودعوت أديل إذ ذاك إلى ألا تعير مزاحه أهمية ، بينما أظهرت هى من جانبها ذخيرة من التشكك ، ودمغت مستر روشستر بأنه « كذاب حقيق ! » ، وأكدت له أنها لا تبالى بقصصه عن العفاريت ، وأنه لا وجود للعفاريت الآن على الأقل ، وأنها واثقة من أنهم لا يمكن أن يظهروا أو أن يعطوه خواتم ، أو يعرضوا عليه أن يعيش معهم فى القمر . وكانت الساعة التى قضيتها فى (ميلكوت) مضجرة بالنسبة لى ، إذ أكرهنى مستر روشستر على أن أختار ستة (فساتين) .. وهى مهمة أكرهها ، فتوسلت إليه أن يعفينى منها ، ولكنه أبى إلا أن ننتهى من ذلك فوراً ، على أننى استطعت بتوسلات هامسة أن أنقص العدد إلى اثنين أقسم أن يختارهما بنفسه . ورحت أرقبه فى قلق وهو يتنقل بعينيه فى المتاجر ، إلى أن وقع اختياره على ثوبين . ولكنى وجدت لونهما زاهياً لامعاً إلى درجة لا أجرؤ معها على ارتدائهما . وبعد عناء شديد استطعت أن أغريه على أن يستبدل بهما ثوباً أسود من الحرير ، وآخر فضياً فى لون اللآلئ .

وسررت عندما غادرت متجر الملابس ثم محل الجوهرات بعد ذلك . وكان وجهى يتضرج بحمرة الحنق والمذلة كلما ابتاع لى شيئاً ، حتى عدت إلى العربة وانخذلت فيها مكانى كالمحمومة المنهوكة ، فتذكرت — وسط دوامة الأحداث قاتمها ومشرقها — أننى نسيت خطاب خالى إلى مستر ريد واعتزامه أن يتبنانى ويجعلنى وريثته ، وقلت أحدث نفسى : « سيكون فى ذلك عزاء لى فى الواقع ، فلو أن لدى شيئاً من الاستقلال لما قبلت أن يلبسنى مستر روشستر كما لو كنت دمية ! » : وعقدت العزم على أن أكتب إلى (ماديرا) بمجرد عودتى إلى القصر ، فأزف لخالى خبر زواجى القريب .. ولما كان من المحتمل أن يصبح مستر روشستر وريثاً لبعض ثروتى القادمة ، فقد رأيت أن أتركه الآن ينفق علىّ . وبهذه الفكرة ارتحت نفساً ، وجسرت على أن أقابل نظرات سيدى وحبيبى التى كانت تبحث دائماً عن نظراتى ، فى حين أننى كنت دائماً أتحاشى وجهه وعينيه ! .. وابتسم فخيل لى أنها ابتسامة سلطان يلقيها على جارية أغدق عليها ذهبه ومجوهراته ، فشددت على يده بكل قوتى — وكانت دائماً تبحث عن يدى — ثم دفعتها إليه وقد بدت عليها آثار ضغطى الشديد المنفعل ، وقلت : « ليس ثمة ما يدعوك إلى النظر إلىّ هكذا ، وإذا فعلت فلن أرتدى إلى النهاية غير ثوبى الذى كنت أرتديه فى (لو وود) ، ولن أتزوج إلا مرتدية هذا الثوب المصنوع من التيل الأبيض . أما أنت فى وسعك أن تصنع لنفسك جلباباً من الثوب الفضى وعدداً لا حصر له من الصدارى من الثوب الحريرى الأسود ! » .. فقهقه عالياً وفرك يديه ثم صاح : « ها . ها . ما أجمل أن أراك وأن أسمعك ! .. إنك شاذة

الأطوار ، لاذعة اللسان ، ولكننى أوثرك على جوارى السلطان من
الحور ذوات العيون الغزلانية » .

وآلمتنى هذه الإشارة للشرق مرة أخرى فقلت : « أنا لا أحتمل قط
أن تشبهنى بحريم السلطان ، وإذا كانت لديك شهوة من هذا القبيل فلتذهب
ياسيدى إلى أسواق (استامبول) فوراً ولتدفع لأحد تجار الرقيق جانباً
من أموالك التى لاتدرى فيم تنفقها هنا ! » .

— وماذا تفعلين ياجانيت عندما أساوم فى شراء مثل هذه القناطير
العديدة من اللحم ، ومن هذه العيون النجل ؟

— أعد نفسى للسفر مبشرة بالحرية بين من وقعن أسيرات فى أغلال
الرق ، بما فيهن جواريك يا سيدى ، وسأعرف كيف أصل إليهن
وأشعل فى صدورهن نار الثورة ، وأبث فى قلوبهن روح العصيان ،
فلا تلبث أن تجد نفسك رازحاً بين أيدينا فى الأصفاد والأغلال ، أما
أنا فلن أرضى بتحطيم قيودك حتى توقع عهداً ، يصبح أعظم عهد وقعه
حاكم مستبد من حيث الكرم والسخاء والتساهل .

— يرضينى أن أكون تحت رحمتك ياجين .

— لن أعرف معنى للرحمة والشفقة مادمت تنظر إلىّ بهذه العين ..
ومادامت هذه نظرتك ، فلا شك عندى فى أن أول ما سوف تعمله بعد
إطلاق سراحك هو نقض العهد الذى قطعته مكرهاً على نفسك !

— ما هذا ياجين ؟.. أخشى أن تضطرينى إلى القيام بحفلة زواج

خاصة غير تلك التى تقام عادة أمام المذابح !.. أراك ترمين إلى شروط
خاصة غريبة ، فما هى ؟

— لا أطمع فى غير راحة البال ياسيدى .. لا أريد أن ترهقنى
بالالتزامات المتعددة . هل تذكر ماقلته عن (سيلين فارنس) ؟.. عن
اللآلىء والكشمير وغير ذلك مما كنت تغدقه عليها ؟ لن أكون (سيلين)
الثانية ، بل أفضل أن أظل معلمة لأديل وأن أكتسب بذلك طعامى
ومسكنى وثلاثين جنيهاً فى السنة ، وأن أشترى من هذا المرتب ما أريد
من ثياب . أما أنت فلا أطمع منك فى غير .....

— فى غير ماذا ؟

— فى غير الاحترام .. وإذا منحتك احترامى فى مقابل احترامك
لى ، فلن يبقى أحد منا مديناً للآخر بشىء » .

فقال مستر روشستر : « ليس لك مثيل فى فطنتك الباردة المعتدة ،
وفى كبريائك الغريزية المحضة » .

وكنا قد اقتربنا إذ ذاك من ثورنفيلد ، فسألنى : « هل يسرك أن
تتناولى العشاء معى الليلة ؟ » .

— كلا .. شكراً يا سيدى .

— هل لى أن أسألك عن معنى « كلا .. شكراً يا سيدى » ؟

— لم أتناول معك طعام العشاء من قبل ياسيدى ، ولا أرى الآن
ما يدعونى إلى ذلك حتى .....

— حتى ماذا ؟ إنه يسرك دائماً أن تنطق بالجمل ناقصة !

— حتى يصبح هذا أمراً محتوماً علىّ !

– أتحسبين أنى ألتهم طعامى كالغول ، وتخشين مشاركتى فى تناول الطعام .

– لم أكوّن بعد فكرة ما فى هذا الشأن يا سيدى ، ولكنى أريد أن أظل على طريقتى المألوفة لشهر آخر .

– بل ستتحررين من عبودية تربية الأطفال فى الحال .

– معذرة يا سيدى . الواقع أنى لن أفعل ، بل سوف أستمر فى عملى ، وسأتحاشى طريقك طوال المساء كعادتى ، ولك أن ترسل فى طلبى فى المساء إذا ما لمست فى نفسك رغبة فى مقابلتى ، وعندئذ سآتى حالا ولكنى لن أفعل أكثر من ذلك !

– أنا فى حاجة إلى التدخين أو إلى قليل من السعوط ياجين لتهدئة خواطرى أمام كل هذا ، ولكنى للأسف لا أحمل معى سجاير أو سعوطاً فاصغى إلىّ . هذا وقتك أيتها الطاغية الصغيرة ، ولكن سوف لا تنقضى فترة وجيزة حتى يكون الأمر أمرى ، ومتى قبضت على زمامك فسوف أشدك بسلسلة كهذه – وأشار إلى سلسلة ساعته – نعم سألبسك فى صدرى مخافة أن تضيع جوهرتى !

قال ذلك وهو يساعدنى على مغادرة العربة . وفيما كان منشغلا مع أديل ، انتهزت الفرصة وأسرعت إلى حجرتى . وعندما جاء المساء أرسل يدعونى ، وكنت قد أعددت له ما يشغله ، إذ اعتزمت ألا أقضى معه الوقت كله فى حديث مقصور علينا نحن الاثنين فقط .. ولقد تذكرت صوته الرخيم ، وكنت أعرف أنه يحب أن يغنى ، شأنه فى ذلك شأن من يجيد الغناء .. ولم أكن ذات صوت جميل ، كما أنى كنت – فى حكمه

القاسى – لا أجيد الموسيقى ، ، ولكنى كنت أغتبط بسماع الصوت الرخيم .. لذلك لم تكد الظلمة ترخى أستارها فى ذلك المساء ، حتى نهضت من مكانى وفتحت البيانو ، ثم توسلت إليه أن يغنى . فقال لى إننى ساحرة ماكرة ، ووعدنى بالغناء فى فرصة أخرى ، ولكنى أكدت له أن ليست هناك فرصة أكثر ملاءمة من الوقت الحاضر . فسألنى هل أحب صوته ؟.. وكنت غير مشغوفة بإشباع زهوه المفرط ، ولكنى رضيت لمرة واحدة – تمشياً مع مقتضيات المناسبة – أن أتملق غروره ، بل أن أثيره فقلت : « أحبه جداً » .. وإذ ذاك قال : « إذن عليك أن تعزفى لى مصاحبتى » ، فقلت : « حسناً يا سيدى .. سأحاول ! » .

وفعلا حاولت ، ولكنه سرعان مادفعنى عن مقعدى فى غير لطف أو دماثة ، واغتصب مكانى – وهذا ما كنت أرغب فيه – ثم راح يعزف لنفسه ، لأنه كان ماهراً فى العزف مهارته فى الغناء ، بينما بادرت أنا إلى فراغ النافذة . وفيما كنت جالسة هناك أطل على الأشجار الساكنة والمروج المظلمة ، شرع يغنى المقطوعة التالية بصوت رخيم وأنغام حلوة !

إنه أخلص الحب الذى يمس سويداء القلب المتقدة .. قد سرى منى
فى كل شريان .. وانطلق مسرعاً .. يتدفق فى مجرى الحياة !
كان قدومها أملى فى كل يوم .. وكان فراقها مبعث آلامى .. فإذا
تمهلت فى خطوها .. فكأنما الثلج يجرى فى عروقى ويهدئ هواجسى !
حلمت بأنى أعيش فى نعيم مقيم .. وبمثل ما أحببت أردت أن أكون
محبوباً .. وبهذا الأمل الحلو أسرعت .. فى لهفة الأعمى ونشوته .

ولكن الشقة بين حياتينا كانت واسعة وعرة المسالك .. خطيرة خطورة الأمواج المزبدة .. فى المحيط الثائر :

وكانت هذه الشقة بيننا ، كطريق يعيث فيها اللصوص .. لا يدعون منها بداءه ولا غاية .. فقد كانت تحول بين روحينا : القوة والشريعة والويل والثبور !

فاقتحمت الأهوال وعبرت بالعقبات .. وتحديت نذر السحر .. بل حيث تكمن الأخطار والمضايقات ، ويتبغى الحذر .. كنت أمضى متهوراً.

وطرت كأننى فى حلم .. نحو قوس قزحى المندفع فى سرعة البرق .. حتى تجلى لناظرى فى أبهى صوره .. هذا القوس : وليد البرق والمطر !

وعلى سحب الظلام المدلهمة .. ظل يأتلق السرور الرقيق .. فلم أعد أحفل بمدى تكاثف وقتام .. المصائب المتجمعة !

ولم أعد أبالى فى هذه اللحظة الحلوة .. بأن كل ما اجتحته وغلبته .. لن يلبث أن يأتى على جناح الطير قوياً مسرعاً .. ينشد الثأر الذريع !

وإذا كانت بغضاء التعالى صرعتنى .. وإلى محكمة الحق قدمتنى .. ثم بقواها الطاحنة العابسة هددتنى .. بالعداوة الأزلية إلى الأبد .

فقد وضعت حبيبتى يدها الصغيرة .. فى يدى بإخلاص نبيل .. وأقسمت على أن رابطة قدسية لا تنفصم .. سوف تربط بين روحينا !

وقد أقسمت حبيبتى وهى تختم حبها بقبلة .. أن تعيش معى وتموت معى .. وبذلك نعمت أخيراً بالفردوس المقيم .. لأن حبا لى لم يكن أقل من حبى لها!

* * *

ثم نهض وتقدم نحوى ، فرأيت وجهه متقداً وعينيه تلتمعان ، وقد ارتسم الحنان والوجد على كل أساريره ، فأجفلت لأول وهلة ، ثم استجمعت قواى ووجدتنى إزاء مشهد ناعم ، وعرض غرامى جرى ولم أكن أحبه ، فقلت لنفسى : يجب أن أهيئ وسيلة للدفاع . وكان أن شحذت لسانى ، حتى إذا اقترب منى سألته فى حدة وخشونة : من هى هذه التى يعتزم أن يتزوجها الآن ؟.. فقال : « يا له من سؤال عجيب .. من حبيبتى جين ! » .

ـ حقاً ! إننى أعتبره سؤالا طبيعياً وضرورياً بعد أن تكلم الشاعر عن زوجته المستقبلة التى ستموت معه ، فماذا يعنى بهذه الفكرة الوثنية ؟.. إننى لا أعتزم الموت معه ، وله أن (يتأكد) من ذلك !

فقال إن كل ما كان ينشده ويصلى من أجله ، هو أن أحيا معه ، لأن الموت ليس مما يرجى لمخلوقة مثلى . فقلت : « بل إن الموت حق على ، كما هو حق عليه ، متى حانت المنية ، ولكنى لا أتعجله ، بل أترقبه على مهل » .. فسألنى أن أصفح عن فكرته الأنانية ، وأن أؤكد غفرانى بقبلة ، ولكننى رفضت ، وسألته أن يعفينى .. وإذ ذاك ، سمعت نفسى ترمينى بالقسوة والجمود ، وتقول إن أية امرأة أخرى فى مثل هذا الموقف كانت تذوب وجداً أمام هذا الإطناب والإطراء !.. ورحت أؤكد له أننى جامدة بطبيعتى ، وأنه سوف يجدنى على هذا الطبع فى كثير من الأوقات . والواقع أننى قررت أن أبدى له ـ فى طباعى ـ كثيراً من المواضع الخشنة ، قبل أن تنتهى الأسابيع الأربعة ، كى يعرف جيداً

أية صفقة كان مقدماً عليها ، قبل أن يتم إبرامها ، لعله أن يرجع عنها ..
ولكنه ما لبث أن سألنى : « هل ألتزم الهدوء وأتكلم بالمنطق والحكمة ؟ » .

— جيدا لو أردت الهدوء .. أما من ناحية التكلم بالحكمة ، فإننى أطرى نفسى ، لأننى فعلت ذلك .

فأرغى وأزبد !.. وقلت لنفسى : « حسناً .. لك أن تتململ وأن تبرم كما تشاء ، ولكن هذه — كما أعلم — خير وسيلة أسلكها معك ، فإننى أحبك فوق ما يقوى لسانى على التعبير ، ولكنى لا أريد الغرق فى بحر العواطف . وأريد بهذا الوخز أن أبعد بك عن شفا الهوة ، وأجعل بينى وبينك حداً فاصلا لخيرى وخيرك ! » .. وبهذه الطريقة أخذت أثير مرجل الغضب فى نفسه — فى الليالى التالية — فكان يسير إلى نهاية الحجرة .. وإذ ذاك كنت أنهض وأقول بلهجتى الطبيعية الزاخرة بالاحترام : «طابت ليلتك ياسيدى ! » . ثم أنسل من باب الحجرة الجانبى وأنصرف .

وسلكت هذه الخطة طوال مدة التجربة وفترة الاختبار ، فوفقت فيها كل التوفيق ، وكنت أراه يغضب ويتكدر ، ولكنه كان يجد فى ذلك لذة — بوجه عام — إذ كان يرضيه أن ألقى جبروته بوداعة الحمل وهدوء الحمائم .. وكنت — فى حضرة الغير — أبدو كالعادة : شديدة الاحترام والهدوء . فلم أكن أعارضه أو أعاكسه إلا فى أحاديثنا الليلية ، إذ ظل يستدعينى عندما تدق الساعة السابعة من كل مساء . ولم يكن يستقبلنى بألفاظ الحب والتدليل ، وإنما كان يدعونى بالدمية المتمردة والشيطانة المتقلبة وغير ذلك من الألفاظ ، كما كان يدللنى بتجهم من وجهه بدل الابتسام ، وبضغط يدى أو بقرص ذراعى ، أو عرك أذنى ،

بدلا من أن يطبع قبلة على وجنتى !.. والواقع أننى فضلت هذه المجاملات الخشنة على غيرها فى فترة الاختبار . كما لاحظت أن مسز فيرفاكس قد ارتاحت لهذه الخطة ، وأن قلقها من ناحيتى قد تبدد ، فأدركت أننى أسلك سبيل الصواب .. فى حين كان مستر روشستر يؤكد لى أننى أضايقه ، وراح يهددنى بالانتقام المريع فى أقرب فرصة ، لسلوكى هذا ، فكنت أضحك من تهديداته وأقول فى نفسى : « لقد أمكننى أن أوقفك الآن عند حدك ، وفى وسعى ذلك فيما بعد ! وإذا أعجزتنى هذه الحيلة عمدت إلى غيرها ! » .

ومع ذلك فإن مهمتى لم تكن سهلة ميسورة ، إذ كنت أوثر فى بعض الأحيان أن أرضيه بدلا من أن أغضبه ، فقد أصبح زوجى المرتقب أغلى عندى من العالم بأجمعه ، بل صار كل أملى فى الحياة !

* * *

الفصل الخامس والعشرون

• انتهى شهر مطارحة الغرام ، وكنا قد أخذنا نعد ساعاته الباقية على الأصابع . ولم نرجئ ما يستلزمه اليوم السابق للزفاف من استعدادات لمقدمه . ولم يكن لدى – أنا على الأقل – ما أعمله بعد أن ملأت الحقائب وحزمتها وأغلقتها بالمفتاح ثم ربطتها بالحبال وصففتها فى خط طويل بجانب جدار حجرتى الصغيرة ، لتكون فى مثل تلك الساعة من اليوم التالى فى طريقها إلى لندن ، وكذلك أنا بمشيئة الله ، أو على الأصح (جين روشستر) التى لم أعرفها بعد !.. ولم تكن البطاقات التى تحمل عنوانى قد لصقت بعد على صناديق السفر الأربعة ، بل ظلت فى الدرج .. وكان مستر روشستر قد كتب على كل منها بخط يده : (مسز روشستر بفندق .. لندن) ؛ ولم أستطع أن أغرى نفسى على لصقها أو تكليف أحد آخر بذلك ، فإن مسز روشستر لم تكن موجودة بعد ، وما كانت ستولد قبل الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى ، ومن ثم كان من الواجب أن أنتظر ريثما أستوثق من أنها قد أتت إلى العالم حية قبل أن أعزو إليها كل هذه الأمتعة ! كان يكفى أن أرى أمامى صوان الملابس وقد اكتظ بثياب لها ، حلت محل ثوبى الأسود – الذى كنت أقتنيه من (لو وود) وقلنسوة من القش : وكان بين تلك الملابس ثوب العرس : (فستان فى لون اللآلئ ، وخمار فى كثافة البخار :: ووجدتنى أغلق الصوان لأحجب عن عينى هذا (الجهاز) الذى بدا لى فى هذه الساعة – التاسعة مساء – غريباً تشع منه خلال عتمة الحجرة ظلال كالأشباح ! . وقلت

لنفسى : « سأدعك وشأنك أيها الحلم الأغر ، فإننى محمومة ! إننى أسمع الرياح تهب وتعوى ، وسأخرج لأحس بها ! » :

لم أكن محمومة لمجرد العجلة فى ترتيب المعدات اللازمة ، ولا لمجرد ترقب الانقلاب الكبير – وهو الحياة الجديدة التى ستبدأ غداً – وإن كان للظرفين نصيبهما بلا ريب فى اضطرابى وتورقى التى جعلتنى أسرع فى تلك الساعة المتأخرة إلى الحديقة المظلمة .. ولكن كان هناك سبب ثالث أثر فى نفسى تأثيراً أكبر : كانت فى قلبى فكرة عجيبة قلقة ! ولم يكن أحد غيرى قد علم أو رأى هذا الحادث الذى وقع فى الليلة الماضية ، فقد كان مستر روشستر غائباً فى تلك الليلة عن القصر ، ولم يكن قد عاد بعد من ضيعة صغيرة – تتألف من مزرعتين أو ثلاث – على مسافة ثلاثين ميلا ، ذهب إليها ليسوى بنفسه بعض الأمور قبل سفره من إنجلترا !.. وفيما كنت أرقب عودته لأفضى إليه بما أثقل قلبى وأسأله إيضاح اللغز الذى يبلبل أفكارى ، ولكن : انتظر أيها القارئ حتى يأتى ، ومتى كشفت له عن سرى ، شاطرتنا إياه .. وتعال أرو لك الحادث !

قصدت إلى البستان تدفعنى إلى الاحتماء به الرياح التى كانت تهب شديدة طوال النهار من الجنوب دون أن تحمل قطرة واحدة من الأمطار . وبدلا من أن تهدأ هذه الرياح مع اقتراب الليل ، زادت فى حدتها ، وتضاعف زئيرها ، وظلت الأشجار تميل فى اتجاه واحد ، ولا تكاد تطوح بأغصانها إلى غيره مرة واحدة ؛ بل ظلت منحنية الرءوس نحو الشمال ، بينما كانت السحب تنتقل متتابعة متراكضة ، كتلة إثر أخرى ،

بحيث لم تكن تبدو من السماء الزرقاء رقعة صغيرة فى ذلك اليوم من أيام شهر يوليو .. ولم يكن قلبى خلواً من السرور والاغتباط عندما جريت أمام الرياح لكى أسلم أفكارى المكدودة للهواء المدوى حولى فى الفضاء وهبطت الممر الذى تحوطه الأشجار ، لأواجه حطام شجرة البندق .. وفيما كنت أتأمل جذعها الأسود المشقوق ، شاهدت العصير قد جف فى جوفه ، والفروع متراخية على الجانبين ميتة .. وكان من المؤكد أن عواصف الشتاء القادم ستدفع ببعض بلور الشجرة إلى الأرض . فلا تلبث أن تنمو شجرة جديدة .. على أنها بوضعها الراهن كانت هالكة ، فقلت أخاطبها وكأنها تسمعنى : « لقد أحسنت بتماسكك، ويبدو لى برغم ما أصابك أن بك قبساً من الحياة بفضل الجذور الأمينة ، وإن كنت ستحرمين الأوراق الخضراء، ولن ترى الطيور تعشش بينك أو تغنى على منابرك .. ولكنك لست فى وحشة ، لأن لكل من غصونك رفيقاً يواسيه فى محنته ! » .

وعندما رفعت رأسى إلى الفروع ، ظهر القمر فى تلك البقعة من السماء وقد احمر قرصه وكأنه كان يلقى علىّ نظرة حائرة موحشة . ثم اختفى ثانية وراء سحابة قاتمة .. وكانت الرياح قد سكنت حول (ثورنفيلد) بضع لحظات ، ولكنها كانت تعول بعيداً فوق الغابات والأمطار بصوت حزين مروع لم يسعنى أن أصغى إليه ، فأطلقت لساقىّ العنان مرة أخرى .. ورحت أجوب أنحاء البستان أجمع التفاح المتساقط من أشجاره فوق الحشائش الكثيفة ، ثم انهمكت فى فرز الناضج منه وحملت ما جمعته إلى مخزن القصر ، وما لبثت أن مضيت إلى

المكتبة ، لأجد النار مشتعلة فى المدفأة ، فوضعت المقعد الكبير ذا المسندين بجانبها ، ثم جلبت المنضدة ، وأسدلت الستار ، وأعددت الشموع للإضاءة .

بيد أننى — عندما أتممت هذه الترتيبات — وجدتنى أزداد قلقاً بحيث لم أعد أطيق الإخلاد إلى الجلوس فى هدوء ، ولا البقاء فى المنزل ودقت الساعة الصغيرة فى الحجرة ، كما دقت الساعة العتيقة فى البهو ، عشر دقات ، فقلت لنفسى : « كم يمعن الليل فى سيره ! سأنزل إلى البوابات الخارجية ؛ فإن القمر يظهر بين الفينة والأخرى بحيث أستطيع أن أتبين جزءاً كبيراً من الطريق . ولعلنى أرى مستر روشستر قادماً فى هذه الآونة ، فأقابله خارج القصر لأوفر على نفسى بعض لحظات من الانتظار ! » .

وكانت الأمطار قد انقطعت ، ولكن الرياح ظلت تزأر عالياً بين الأشجار الضخمة التى تظلل البوابات . أما الطريق — على مدى ما تبينته — فكان ساكناً موحشاً ، لا تشاهد على يمينه وعلى يساره غير ظلال السحب التى كانت تجتازه من وقت إلى آخر ، كلما أطل القمر من خلالها .. وفيما كنت أتطلع حوالى ، ترقرقت فى عينى دمعة خفيفة .. دمعة اليأس ونفاد الصبر .. فخجلت وجففتها ، وأخذت أتسكع فى الطريق إلى أن احتجب القمر تحت ستار من السحب الكثيفة ، واشتدت ظلمة الليل ، وبدأت الأمطار تهطل ثانية والعاصفة تسوقها أمامها بقوة وسرعة . فهتفت وقد استبدت بى الوساوس السوداء : « ألا ليته يأتى !

ليته يأتى ! » :: لقد كنت أرتقب وصوله قبيل موعد الشاى ، وها هو ذا الظلام قد أرخى سدوله ، فما الذى حال دون عودته ؟! :: هل أصابه حادث ؟ .. وتذكرت حادث الليلة الماضية ، ففسرته بأنه نذير لمصيبة أو كارثة ، وخشيت أن تكون آمالى أكبر من أن تتحقق ، فقد حظيت أخيراً بنعيم كبير ، حتى خيل إلىّ أن سعادتى قد بلغت ذروتها ووجب أن تأخذ فى الأفول .

وقلت لنفسى : « لن أستطيع العودة إلى المنزل ولا الجلوس بجوار المدفأة ، وهو ما يزال فى الخارج فى هذا الطقس القاسى !.. يجب أن أنطلق لألقاه ! » .. وسرت بسرعة ، ولكن دون أن أبتعد كثيراً ؛ ولم أكد أقطع ربع ميل حتى سمعت وقع حوافر ؛ ورأيت فارساً يعدو بكل قوته وإلى جانبه يجرى كلب ، فقلت : « لتذهبى عنى أيتها الوساوس !.: ها هو ذا على ظهر جواده (مسرور) يتبعه كلبه (بايلوت) .. وشاهدنى — لأن القمر كان قد شق لنفسه ثغرة زرقاء بين السحب — فرفع قبعته ثم لوح بها حول رأسه ، فأسرعت لمقابلته ؛: ومد يده وانحنى على السرج وهو يقول : « ها أنتذى ترين أن لا غنى لك عنى !.. هذا واضح ! ضعى قدمك الصغيرة على طرف حذائى وأعطنى يديك .. اصعدى ! » :. فأطعته وقد استخفنى الفرح ، ثم وثبت إلى ظهر الجواد أمامه ، فحيانى بقبلة حارة وبضع كلمات تنم عن فوزه المزهو ، احتملتها قدر ما استطعت ، إلى أن سألنى وسط مظاهر فرحته : « ماذا حدث يا جين حتى تأتى لمقابلتى فى مثل هذه الساعة ؟ هل جرى شىء ؟ » .. فقلت : « كلا ، وإنما خيل لى أنك لن

تأتى أبداً ، فلم أقو على احتمال انتظارك فى المنزل وخاصة مع هذا المطر وهذه الرياح ! » .

— مطر ورياح ؟.. آه ، حقاً !.. أجل . إنك تقطرين ماء كحورية البحر . لفى عباءتى حولك .. ولكننى أراك محمومة يا جين وقد التهب خداك ويداك ، ولذلك أسألك مرة أخرى : وماذا حدث ؟ »

فقلت : « لا شىء الآن ، فلست خائفة أو تعسة ! » .

— إذن فقد كنت كذلك ؟

— تقريباً .. ولكنى سأقص عليك الأمر شيئاً فشيئاً يا سيدى . وأظنك ستضحك من أسباب ما يؤلمنى !

— سأضحك منك من كل قلبى ، بعد أن ينتهى الغد بخير ، أما قبل ذلك فلا أجرؤ ، لأن مكافأتى لم تتقرر بعد .. أنت ، أنت التى ظللت طوال الشهر الماضى تتزلقين من يدى مثل السمكة ، وتخزيننى بشوكة كالوردة ، فلا أضع يدى على جزء من جسمك حتى تلدغنى إبرك ! أما الآن فيخيل إلىّ أننى أحمل بين يدى حملا شارداً من الحملان الوادعة؛ هل غادرت حظيرتك لتقابلى راعيك يا جين ؟

— كنت مشوقة إليك ، فلا تباهى ولا تزدهى !.. ها قد بلغنا (ثورنفيلد) فدعنى أهبط .

* * *

● ونزلت على الممر المرصوف . وعندما تناول منه جون عنان جواده ، تبعنى إلى البهو وأمرنى بأن أسرع فأرتدى ملابس جافة ، ثم

أعود إليه فى المكتبة . وقبل أن أبلغ الدرج ، استمهلنى وطلب منى ألا
أبطئ فى العودة . ولم أبطئ فقد رجعت بعد خمس دقائق لأجده
يتناول العشاء . فقال : « اجلسى واحتملى رفقتى يا جين . شكراً لله
على أن هذه ستكون الأكلة الأخيرة لك فى (ثورنفيلد) لمدة طويلة » .
فجلست بالقرب منه وأخبرته بأننى لا أستطيع أن أتناول طعاماً .
فقال : « وهل ذلك لأنك مأخوذة بما أمامك من أمل فى الرحيل
يا جين ؟.. وهل التفكير فى السفر إلى لندن هو الذى انتزع منك شهوة
الأكل ؟ »

— إن آمالى ليست واضحة لعينى الليلة ، ولا أكاد أدرى ماذا
يدور فى رأسى من أفكار ، إذ يخيل لى أن كل ما فى هذه الحياة
باطل زائف .

— ما عداى .: أنا مادى ملموس .. المسينى بيدك !

— بل أنت أقرب ما فى الحياة كلها للوهم يا سيدى .. أنت
مجرد حلم !

فلوح بيده قرب عينى وقال : « أهذه حلم ؟ » .. وأقصيت يده
عن وجهى وقلت : « إنها حلم برغم أننى مستها .. هل فرغت من
عشائك يا سيدى ؟ » .. وإذ أجاب : « نعم يا جين » . دققت الجرس
وأمرت بحمل الصينية .. حتى إذا عدنا وحيدين ، حركت نيران المدفأة ،
ثم تناولت مقعداً خفيضاً ، وجلست عند ركبة سيدى ، ثم قلت :
« كاد الليل ينتصف ! » .. فقال : « نعم ، ولكن تذكرى يا جين أنك

وعدتنى بأن تظلى ساهرة معى طوال الليلة السابقة للزفاف » .. فقلت :
« فعلا ، وسأفى بوعدى لساعة أو اثنتين على الأقل ، إذ لا رغبة لى
الآن فى النوم » .

— هل فرغت من جميع ترتيباتك ؟

— جميعها يا سيدى .

— وأنا الآخر أعددت كل شىء ، وسنغادر (ثورنفيلد) غداً
بعد نصف ساعة من عودتنا من الكنيسة ..

— حسناً يا سيدى .

— يا لها من ابتسامة عجيبة هذه التى اقترنت بقولك « حسناً » ،
ويا للبقعة الحمراء اللامعة التى تخضب خديك ! . وما هذا البريق
الغريب الذى تألق به عيناك ؟ هل أنت بخير ؟

— أظننى كذلك .

— تظنين ؟! ماذا جرى ! خبرينى ، بماذا تشعرين ؟

— لا أستطيع يا سيدى . ليست هناك كلمات تستطيع التعبير لك
عما أشعر به . بودى ألا تنتهى هذه الساعة ، فمن يدرى ماذا يأتى به القدر
فى الساعة التالية ؟

— هذه وساوس يا جين ، فقد نال منك الإفراط فى الانفعالات
والمتاعب .

— أتشعر يا سيدى بأنك هادئ وسعيد ؟

— هادئ ؟.. كلا ، ولكنى سعيد .. كل السعادة ؟

وتطلعت إلى وجهه لأقرأ فيه آيات النعيم التى كانت تنعكس عليه فوجدته حاراً متورداً .

ثم قال : « امنحينى ثقتك يا جين ، وأقصى عن رأسك هذا العبء الذى يرهقه بأن تفضى إلىّ بما يتعبك . ماذا تخشين ؟ ألا أكون زوجاً طيباً ؟ » .. قلت : « هذه أبعد فكرة عن رأسى ! » .. فعاد يتساءل : « إذن ، فهل تخشين الدنيا الجديدة التى أنت مقبلة عليها ؟ أو تخشين الحياة الجديدة التى تنتقلين إليها ؟ » .. فقلت : « كلا ؟ » .. وعندئذ هتف : « إنك تحيريننى يا جين ! إن منظرك ولهجتك ينمان عن حزن واضح يربكنى ويؤلمنى ، فأفصحى ! » ..

— إذن أصغ إلىّ يا سيدى .. أما كنت بعيداً عن القصر فى الليلة الماضية ؟

— نعم كنت .. وقد سمعتك منذ هنيهة تشيرين إلى أن أمراً وقع فى غيابى ، وربما كان أمراً لا أهمية له ، ولكنه — بالاختصار — أزعجك فأخبرينى به ، هل قالت لك مسز فيرفاكس شيئاً ؟ أم سمعت الخدم يتحدثون عن شيء ؟.. أو هل جرح أحد كرامتك المرهفة ؟

فأجبت قائلة : « كلا يا سيدى » .. وفى تلك اللحظة ، شرعت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ، فانتظرت حتى فرغت من دقاتها ثم مضيت أقول : « كنت منهمكة طوال نهار أمس فى عمل متصل ، ولكننى كنت غاية فى السعادة ، لأننى لم أكن أخشى دنياى الجديدة أو غيرها ، بل كنت أشعر بمنتهى الهناء فى مجرد الأمل فى أن أحيا معك

لأننى أحبك !.. كلا يا سيدى ، لا تغازلنى الآن ، بل دعنى أتكلم دون مقاطعة .. لقد أحسنت الظن فى أمسى بالأقدار ، واعتقدت أن الظروف تحالفنى وتحالفك . وكان يوماً هادئاً جميلا — إن كنت تذكر — مما أقصى عن رأسى كل خوف عليك أو على سلامتك فى رحلتك . فأخذت أتمشى قليلا فى الدرب المرصوف بالحديقة بعد أن تناولت الشاى ، وأنا أفكر فيك وأراك فى خيالى قريباً منى بحيث لا أفتقد وجودك فعلا بجانبى .. ثم فكرت فى الحياة الماثلة أمامى .. حياتك يا سيدى !.. إنها دنيا تفوق دنياى فى اتساعها وإثارتها ، وفى عمق غورها ، حتى لتبدو مسالكها الضحلة أعمق كثيراً من أغوار البحر الذى تصب فيه الأنهار . وإننى لأعجب كيف يشبه كتاب الأخلاق عالمنا بالبيداء الموحشة ، فى حين أننى أراه فى عينى وردة متفتحة ؟.. ثم غربت الشمس فبرد الهواء وتلبدت السماء ، وعندئذ أسرعت إلى القصر وإذا بصوفى تستوقفنى لتدعونى لمشاهدة ثوب الزفاف .. ورأيت تحته فى الصندوق هديتك .. هذا الخمار الذى دفعك تبذيرك الشديد إلى أن ترسل فى طلبه من لندن ، لأنك — فيما يبدو — قررت أن تغرينى بهذه الهدية الغالية بعد أن رفضت قبول الجوهرات !.. وفيما كنت أبسط هذا الخمار أمامى ، ابتسمت لأننى أزمعت أن أداعبك من ناحية ذوقك الارستقراطى وفى محاولتك إظهار عروسك الفقيرة بمظهر النبيلات .. فكرت فى أن أضع على رأسى القماش البسيط غير المزركش الذى كنت قد أعددته لنفسى كفتاة متواضعة الأصل ، ثم أذهب إليك وأسألك : « ألا يكفى ذلك لامرأة لا تستطيع أن تأتى لزوجها بثروة أو جمال

أو جاه ؟ » . وتصورت منظرك إذ ذاك وسمعت ردودك الصارمة ، وتنصلك فى كبرياء من أية حاجة بك إلى زيادة ثروتك أو رفع مستواك بالزواج من فتاة موسرة أو كريمة الحسب والنسب » .

• • •

● وهنا قاطعنى مستر روشستر قائلا : « كيف تقرئين أفكارى يا ساحرة ؟.. ولكن ماذا وجدت فى الخمار غير تطريزه ؟ ترى هل عثرت على سم أو خنجر حتى تتجلى عليك أمارات الحزن والأسى هكذا ؟ » .. فقلت : « كلا يا سيدى ، فإننى لم أجد فوق رقة الصناعة وجمالها ، سوى ما ينم على كبرياء آل روشستر .. وهذا شىء اعتدته ولم يعد يروعنى ، ولكن يا سيدى .. عندما اشتدت الظلمة ، هبت الرياح .. ولكنها لم تكن كما هى الآن ، صاخبة مهتاجة ، وإنما كانت (تنوح وتئن) بشكل يثير الفزع ، فتمنيت أن تكون بالمنزل : وجئت إلى هذه الحجرة ، فلما وجدت مقعدك خالياً ، انتابتنى رجفة .: وما لبثت أن أويت إلى فراشى ، ولكننى لم أستطع أن أغمض عينى ، إذ تملكنى قلق غريب !.. وكانت الرياح ما تزال تعصف بصوت خيل إلىّ أنه صراخ مكتوم حزين ، سواء فى القصر أو خارجه . وأخيراً تبينت أن الصوت كان عواء كلب بعيد . وما لبث أن انقطع فاستراحت نفسى ! ولما استغرقت فى النوم ، استرسلت فى أحلام دارت حول الليلة الرهيبة ، ثم ما لبثت أن انتقلت إلى التفكير فيك ، والرغبة فى أن أكون معك ، وأحسست إحساساً عجيباً بأن هناك شيئاً ما يحول بيننا :: وكنت

فى المرحلة الأولى من نوى أسير فى طريق مجهول ، كثير الثنايا والتعاريج تحيط به بقاع موحشة ، وتتساقط عليه أمطار غزيرة .. وكنت أحمل بين ذراعى طفلا صغيراً — جد ضئيل — لا يقوى على المشى ، وقد أخذ يرتجف مولولا بصوت حزين كان يخرق أذنى . وخلتك يا سيدى فى الطريق أمامى ، فاستجمعت قواى لألحق بك ، وبذلت الجهد تلو الجهد كى أناديك وأضرع إليك أن تقف ، ولكن حركاتى كانت مقيدة .. وتلاشى صوتى بينما أحسست بأنك تمعن فى الابتعاد عنى فى كل لحظة ! » .

— وهل ما زالت هذه الأحلام تضايقك وتثقل عليك يا جين ، وأنا على مقربة منك ؟.. يا لك من مخلوقة عصبية صغيرة !.. انسى هذا الهم الموهوم ولا تفكرى فى غير السعادة الحقيقية !.. تقولين إنك تحبيننى يا جين .. نعم لن أنسى ذلك ولا يسعك إنكاره ، لأن هذه الكلمات لم تمت على شفتيك ، ولكننى سمعتها واضحة ، ناعمة ، فى حلاوة الموسيقى ، عندما قلت : « أعتقد أنه شىء رائع أن أتمنى الحياة معك يا إدوارد لأننى أحبك ! » .. أتحبيننى يا جين ؟.. أعيدى ذلك على مسمعى ؟

— أحبك يا سيدى .. أحبك من كل قلبى .

فقال : « حسناً » ؛؛ واستطرد بعد صمت دام لحظات : « هذا غريب ، ولكن الجملة اخترقت صدرى فى إيلام . لماذا ؟.. لأنك — فيما أعتقد — قلتها بصوت حاد ، وفى تحمس المتعبد ، ولأن فى

نظرتك الآن إلىَّ ، روح الصدق والحق والنقاء .: وهو كثير جداً ، حتى أننى لأخال أن روحاً بجانبى لا إنسانة ، فانظرى إلىَّ نظرة خبيثة يا جين ، وارسمى على وجهك ابتسامات قاسية حية مثيرة ، وقولى إنك تكرهيننى .. عاكسينى .. كدرينى !.. افعلى كل شىء يحركنى ويثيرنى ، فإننى أوثر أن تغيظينى وتثيرينى على أن تملئى نفسى بالحزن والأسى ! »

— سأرضيك بما شئت من معاكسة وإثارة بعد أن أفرغ من قصتى ، فاسمعها إلى النهاية .

— ظننتك قد فرغت من قصتك كلها يا جين ، وحسبت أننى اهتديت إلى مبعث الحزن فى أحلامك !

وإذ هززت رأسى ، قال متسائلا : « ماذا ؟.. ألديك المزيد ؟.. ولكنى لن أعتقد أنه على شىء من الأهمية .. وأنبئك مقدماً إلى أننى لن أصدق منه شيئاً .. استمرى ! » .. وأدهشنى قلقه الواضح ، وما بدا عليه من نفاد الصبر ، ولكنى استرسلت أقول : « رأيت حلماً آخر يا سيدى .. شاهدت قصر (ثورنفيلد) طللا موحشة ينعق فيها البوم والخفاش . ولم يبق من واجهته الفخمة سوى جدار واحد عال متصدع ، فأخذت أتجول — فى ليلة مقمرة — وسط الحشائش التى نبتت بداخله ، وإذا بقدمى تتعثران فى حافة رخامية نائتة .: جزء من أطلال سياج .: وكنت ألتفع بشالى ، وأحمل الطفل المجهول بين ذراعى ، فلم ألقه رغم تعبى وثقله الذى كان يعرقل سيرى : وما لبثت أن

سمعت جواداً يركض من بعيد ، فأيقنت أنك أنت القادم ، لأنك كنت قد رحلت منذ زمن بعيد ، فأسرعت أتسلق الجدار بأمل أن ألمحك من قمته ، وإذا بالأحجار تنهار تحت قدمى ، وإذا بالأغصان تلتوى بعد أن تعلقت بها . ولف الطفل ذراعيه حول عنقى حتى كاد يخنقنى ، ولكنى وصلت فى النهاية إلى القمة ، ورأيتك أشبه بنقطة بيضاء تزداد تضاؤلا فى كل لحظة .. ثم اشتدت الرياح ، فلم أعد أستطيع الوقوف ، وجلست فوق قمة الجدار . ورحت أهدئ من روع الطفل الخائف فى حجرى ، وإذا بك تدور حول منعرج فى الطريق .. وانحنيت إلى الإمام لألقى عليك نظرة أخيرة ، ففقدت توازنى وسقطت . ثم صحوت من نومى ! » .

— ولكن الحلم قد انقضى وتبدد !

— بل هذه هى المقدمة فقط يا سيدى ، وستأتى القصة بعد ذلك : فما أن استيقظت حتى بهر عينى نور ، فخيل إلىَّ أن النهار قد أقبل .: ولكنى كنت مخطئة ، إذ لم يكن النور سوى لهب شمعة . وحسبت أن (صوفى) وفدت على الغرفة .. وكانت ثمة شمعة على مائدة الزينة ، كما كان باب الخزانة — التى علقت فيها ثوب الزفاف والخمار قبل أن آوى إلى فراشى — مفتوحاً .. وسمعت حفيفاً بداخلها ، فقلت : « ماذا تفعلين يا صوفى ؟ » .. ولم يجبنى أحد ، وإنما مرق شخص من الخزانة . فتناول الضوء ورفعه عالياً ، وراح يتأمل الثياب المعلقة .. وصرخت مرة أخرى : « صوفى !.. صوفى ! » ، ولكن الشخص ظل صامتاً .. وكنت قد استويت جالسة فى سريرى ، فملت إلى الأمام .. ودهشت فى البداية ، ثم استولت علىَّ الحيرة والخوف .. ثم تجمد الدم فى عروق.

لم يكن الشخص (صوفى) .. ولا (ليـاه) .. ولا (مسز فيرفاكس).. لا ، لم يكن أياً منهن ، وإنى لمتأكدة من هذا .. ثم ، وفوق كل هذا ، لم يكن كذلك تلك المرأة الغريبة الأطوار .. جريس بول ! » :

إذن ، فمن كان ذلك الشخص ؟.. أكان إنساناً أم شبحاً ؟؟ .. رجلا أم امرأة ؟.. وما سر وجوده فى مخدع جين إير ؟.. بل ما هى الأسرار والألغاز التى كانت تكتنف ردهات قصر (ثورنفيلد) وأبهاءه ؟! وأخيراً هل تزوج روشستر من جين إير وتمت سعادتها ، أم أن الأحداث فرقت بينهما ؟!

اقرأ التفصيلات الشائقة لتلك الأحداث كلها فى الجزء الثالث والأخير من هذه القصة الخالدة .

* * *